

فقهاء الظّلام

الحمقى الذين قبلوا الاشتراك في هذه الرواية :

الملاّ بيناف بن كُوچري.
برينا بنت عقْدي ساري، زوج الملاّ
كرْزو، زيْوانْ، عاني، حمْزات: أولاد الملاّ من زوجه الأولى.
خاتي بنت كوچري، أخت الملاّ
بيكاسْ، ابن الملاّ بيناف من زوجه برينا.
سيْنمْ بنت مهْمدْ بن كُوچري، زوج بيكاس.
مهْمد بن كُوچري، اخو الملا بيناف.
مجيدو بن عقْدي ساريْ، أخو برينا.
باقي جُواني، الضحية الثرثارة (يقتله مجيدو).
ابن زاري، جد برينا
عقْدي ساري، والد برينا، وجد بيكاس.
جَهْورْ ساري، أخو عقْدي.
عَيْشانه بنت أوسيْ بدرخان، زوج مهْمد.
سطّامُو لاويْ حجّي عبّاس، مهرّب التبغ.
حشْمُوْ، زوج خاتي.
حَيْندرْ، صاحب الثور
حسين بن كُوچري، ذو القرنين، والد الملاّ بيناف.
حُسُّو (حسين) الميْرْسيْني، جد الملاّ بيناف.
باران بن ساري، جد عقْدي.
عبد الصمد بن باران، والد عقْدي.
زيْركه، أم برينا.
كلَشْ، أخو عيشانه. خال سينم
سرْبسْتْ (حجر النشادر) بن كلش.
جكَرْخُويْنْ، خال الملاّ بيناف.

الفصل الاول

حاول الملاّ «بيناڤ»، ابن «كوجري»، أن يبدو وقوراً كعادته. ابتسم من دون افترارٍ لشفتيه عن أسنانه الكبيرة القوية. ثم رفع يديه، وقرأ الفاتحة تمتمةً.

عمد بعض الرجال المحيطين بمجلسه الى تملُّقه بكلمات اطناب ممطوطة فلم يلتفت اليهم، بل نهض في هدوء. فرد سجادة، وصلى ركعتين في اطالة ظاهرة خفّت فيها تمتمات الشكر، وكلمات المديح. وحين انتهى من ذلك طوى السجادة، ثم لفّها. انتعل حذاءه البلاستيكي، وخرج من الباب الى الساحة المسوّرة.

الساحة واسعة. تقع المضافة في الجانب الشمالي منها، حيث كان الملاّ «بيناڤ». وفي الجهة الشرقية غرف متلاصقة، ذات أبواب مستقلة تطل على الساحة. أما في الجهة الجنوبية الغربية فتقع الحظيرة، التي تجاورها مساحة صغيرة مسقوفة بصاج متموج عار، مخصصة للتنور.

اتجه «بيناڤ» الى احدى الغرف، تاركاً وراءه سلسلة من آثار صفراء في رقعة الثلج الرقيقة. توقف فجاءةً، وانحرف يميناً مسافة مترين من باب الحظيرة. كان ثمت عصفور يتخبط في فخ. انحنى والتقطه في دعة. صاح ابنه «زيوان» الراكض اليه: «بابا، هذا هو الثاني، اليوم». أرخى الملاّ ما بين فكي الفخ فطار العصفور مترنحاً. فتح ابنه فمه دهشاً، فعاجله أبوه: «عسى أن يكون خيراً ما فعلناه يا بني. سأعوّض عليك»، وألقى اليه بقطعة نقدية ثقيلة غاصت في الثلج، فاسترجعها الطفل فرحاً، بقبضته التي امتلأت

بحشائش احتتها من تحت الطبقة البيضاء. أكمل الاب سيره ودخل احدى الغرف. خرج وفي يده سكين طويل، متجهاً الى الحظيرة.

خرج الخروف الاول من باب الحظيرة راكضاً، ثم هوى فوق الثلج. تبعه ثان، فثالث، فرابع. كلها كانت تخرج راكضة ثم تهوي. تنهض فتدور حول نفسها، ثم تهوي، راسمة فوق الثلج رشاشاً أحمر، وبركاً حمراء صغيرة، ذات بخار خفيف. إذ ذاك خرج الملاّ «بيناف» بسكينه المخضب، فهرول اليه رجلان تناولاه منه، ثم انكبا على الخرفان سلخاً.

زغردت امرأة من جهة الغرف المتلاصقة فرفع الملاّ «بيناڤ» يده اشارة بالسكوت، فسكتت. «كل الناس ينجبون ابناء، ولست الاول»، قالها وهو يمشي في اتجاه غرفة المضافة. خلع حذاءه أمام العتبة، ودخل. أفسح الرجال مكاناً له قرب موقد المازوت المتوهج، فتربّع. التفت الى شماله، ثم الى يمينه، بنظرة رضا، مومئاً، كأنما يردّ على التهنئة بشكر خـفـيّ. مد يده الى علبة التبغ الفضية، ذات النقوش، وناولها الى جاره. أخذها، ثانية، وناولها الى شخص قباله، وراء الموقد، بحركة دفع دائرية خفيفة على السجادة، فتناولها ذلك الشخص.

كان تبادل علب التبغ المعدنية على أتمه بين الجالسين. من يدفع بعلبته الى شخص يرد له الشخص ذلـك بعلبته الخاصة. لُفافات رقيقة، واخرى ثخينة، من ورق شفيف وتبغ رطب، وأنامل كثيرة مشغولة بعقدها في حذاقة لا تخطىء.

«ماذا ستسميه يا سيدنا الملاّ» سأله أحد الحاضرين. «بيكاس» ردّ الملاّ، كأنما هيّأ الاسم من زمن. حاول السائل مجاملته، وقد فاجأه الاسم قليلاً: «لمـاذا تدعوه بالوحيد، يا سيدنا، وسلالتكم كبيرة بحمد الله؟»، ردّ الملاّ: «ليس لأحد سوى خـرافـه، وبيته، وقمحه الذي يخذله احياناً فيتركه عارياً». ازدرد السائلُ الردّ، وانكب يشتغل على لُفافته بلسانه، يرطب الورق ليلتصق طرفاه.

في الغرف المتلاصقة، شرقي الساحة، كان النساء يدخلن من باب، ويخرجن من باب، كلُّهنَّ في شغل. قماطات بيضاء، وصحاف من ثريد الخبز المحلّى تنتقـل معهن في فرح ذائب كالثلج الـذائب من آثـار الاقدام، بين الابواب. أما المسافة الممتدة بين تلك الغرف والزريبة، حيث الرقعة البيضاء غير الممسوسة، والتي نصب الاطفال فيها فخاخهم المدفونة، اذ لا يظهر منها

الا قطع خبز صغيرة، فكانت العصافير تحوّم فيها، ثم تطير الى الاعمدة البارزة، أفقياً، تحت الاسطحة، متوجسة خوفاً، بعد تخبّط عصفورين فوق تلك القطع الظاهرة من الخبز المبتلّ. ولو انها تمحّصت الامر قليلاً لانقضت دون خوف. فالخبز في الثلج، بعد ساعة على أبعد تقدير، يتحول الى شيء هش تماماً، وفي امكان المناقير ان تلتقطه كسرة كسرة دون ان تنفك إبرة النابض عن المَحْبَس. كان هذا ما يحدث، عادة، حين يترك الاطفال فخاخهم في الثلج طويلاً: تبتلع العصافير الخبز من غير ان ينغلق فكا الفخ، فيعضون على أصابعهم قهراً، صارخين من وراء زجاج النوافذ المطلة على الساحة: «اكسر رقبته يا أحمق»، ويظل الفخ احمق صامتاً. وهم لا يقدرون على تغيير الخبز في الفخاخ كل برهة، لأن آثار أقدامهم، في الثلج، تجعل العصافير نفورة عادة، لذلك ينتظرون اختفاء آثار أقدامهم ليكون التمويه على أتـمّـه، وهنا تقع الواقعة اذا استمر هطول الثلج اكثر من اللازم.

من المتّبع أن تكون حبات القمح هي الطُعْم في الفخاخ، لكن الثلج يغطي الحبّات في يسر لا يجاوز الدقيقة، لذلك يستبدلون القمح بقطع كبيرة من الخبز لتبقى ظاهرة للعيان فترة أطول، وهنا الضعف في هذه الطريقة.

الوقت. آه. للطُّعم وقت، وللملاّ «بيناف» وقت في التفكّر. كانت الساعة تشير الى النصف بعد التاسعة صباحاً. نُدَفُ أخيرة كسولة من الثلج تهوي على مهل. لا ريح. بضعة زرازير تتشبث بسلك كهربائي يمرُّ فوق الساحة، وقد نفشت ريشها حتى اختفت أعناقها في السواد المرقّط. كلب يقف على قائمتيه الخلفيتين خارج البوابة الخشبية، ناظراً من الشقوق إلى بقايا أحشاء الخراف وجلودها المهملة. جيران الملاّ «بيناف» هم أول من وفدوا. في ساعة الفجر كان مخاض امرأته. المرأة الأشورية التي كانت تتوقع الأمر، منذ المساء، اصطحبت زوجها في الصباح الباكر، وكان هذا الرجل هو «المدني» الوحيد بين الرجال، ذلك ما كانوا يطلقونه على من يرتدون البناطيل والسترات. وقد قدم الملاّ «بيناف» لضيفه كرسياً قرب الموقد، بينما اقتعد الآخرون، جميعاً، السجاد المطرّز، ملتفين بعباءات ثقيلة مبطنة بالفراء. ومن ثم مد يده اليه بعلبته الفضّية، فاعتذر الأشوري، لأنه لا يتقن لفَّ اللّفافات، وهو يفضل ـ عل كل حال ـ السجائر الجاهزة ذات الفلتر.

سيأتي الأقربون والأبعدون. هكذا يفكر الملاّ «بيناف»، وتلك مسألة تضايقه قليلاً. لا يهمه الوافدون اليه من هذه المدينة الصغيرة، فهم لن يكلفوه

ما لا طاقـة له به، بل يهمـه الآتـون من القرى، الذين سيمضون أياماً في ضيافتـه، والحال على قَدْرها. صيفه الماضي قصم الظهر. لم ترتفع السنابل مقدار شبر عن الأرض، فلَم تُحْصَد، بل تُركت للرّعي. أبّهته تنحسر، والمكان يضيق. بات يفكـر كم ذبح من الخراف، وكم سيذبح. كم كيس طحين سيكفي القادمين، وكم فراشاً سيتّـسخ بفعل الاقدام التي غسلتها عصارة الثلج والطين المتسربة الى الاحذية. وهو وقور بفعل انقباضه الدائم، الذي لا يستمزج المرح، مترفع قليلاً ليحفظ ما تبقّى.

كان غير آبهٍ، فيما مضى، بالذي يجري داخل بيته. غائب وإن كان حاضراً. ثلاثة أرباع النهار في «سوق التجارة» ـ حيث تتجاور غرف صغيرة تسمى «مكاتب». تشتمل كل واحدة على بضعة كراسي من القش، وطاولة لِنَشر عيّنـات القمـح عليهـا، وهي مسقوفة بالاسمنت الذي تتخلله نوافذ ضيقة، في الاعلى، ذات زجاج سميك ـ وربع نهاره الاخير في البيت. ربع نهار طويل يمتد فيشمل المساء وبعض الليل، لا مع العائلة وشؤونها، بل مع زائريه، الذين يكملون أحاديث النهار حول تجارتهم.

في الصيف، بالطبع، تكون المشاغل أكثر، فما لم ينته إنجازه في «سوق التجارة» يُنْجَزُ في ساحة البيت. تبقى البوابة مفتوحة، سائقو شاحنات نقلٍ يأتـون ويمضـون. حمولات حنطة تأتي من الحصاد مباشرة الى الشاحنات. عتّالون يأتون ويمضون. بعضهم يُـسْتَـبـدَلُ ببعض آخر، والباقون يقبضون أتعـابهم. عيّنـات حنـطة تأتي في منـاديل الـرجـال الملوّنة، ليجري اختيار الافضـل. رجـال من جمارك الشحن يتسللون، أيضـاً، مع هؤلاء، لينالوا حصصهم لقاء «تسهيل» الامور. وفي الخريف تختلف المسألة: يجري البحث طويلاً في استئجـار أراضٍ مشهـود لها بالخصب، وفي جرارات الحـراثـة، والـحَـبِّ الانقى. في الشتاء يتم رصد المطر. في الربيع تتعلق العيون بأسواق القمـح، ومداهمات البَرَد المفاجئة، الى آخر ما هنالك من تلزيم لأصحاب الحصّادات، واختيار الطواقم، بدءاً بالطبّاخ وانتهاء بسائق عربة التموين.

كان غير آبه، فيما مضى، بشؤون بيته، فالامور تجري بانتظام تلقائي. كل من يملك جاهاً تجري أموره بانتظام تلقائي. نساء الجيران يخبزن في التنور للعـائلة، لقـاء مؤونـة الشتـاء من أكياس القمح. اللحّام يختار من اللحم أحسنه، وينقله الى البيت بنفسه، حتى من دون طلب. الاطفال مدلَّلون، الأقرباء يتسابقون في ذلك لكسب ودّ زوجه، وهي ستخبره، بالطبع، عَمَّن

يليق باهدائه فائضاً من كَرَمه. حتى شُجيرة الزيتون الوحيدة في ساحة الدار، والتي لم يزد نموّها عن متر خلال سبع سنين، ستجد من يتبرع بنكش التراب من حولها. غير أن الملاّ «بيناف» يشهد انحساراً كبيراً في رقعة مشاغله، فلا يجد نفسه الا في مواجهة البيت: «لماذا تطأ طرف السجادة بحذائك الوسخ أيها الصبي؟»، وحين لا يردّ الصبي الخائف يصفعه. «من أهمل قارورة الموقد فلم يملأها من جديد؟»، واذ لا يجد جواباً يركل الموقد فيتمايل، وقد انبثق الدخان من مفاصل المواسير المضخمة، التي تتجه الى السقف. «أغلق الباب وراءك يا حمار. الريح الباردة تملأ البيت». «اوقفوا صراخ هذا الولد المسعور». «أشتمُّ رائحة البرغل المحترق. الا تنتبهين يا امرأة؟». «حمير. عائلة من الحمير».

ثمة غضب ما يتّجه الى غير المسبِّب، وهو يدرك ذلك في صفائه، الذي يواكبه حين ينكبّ على دفاتر حساباته المهلهلة من كثرة التنقيب فيها. ينظر من حوله في حنان مشوب باعتذار صامت الى الوجوه التي لا تتنفس حين لا يتنفس هو، ولا تبتسم اذا لم يبتسم. وهو لا يبتسم على كل حال، بل يعود بنظرته تلك الى دفاتره، حيث الحسابات المدوَّنة بقلم الرصاص.

الأمور طُويتْ كلُّها، وبقيت الأرقام الفضية الباهتة. «من يخصُّ الحسابُ هذا؟» يسأل نفسه، أحياناً، بتمتمة، ثم يفكر طويلاً ليجيب: «آه». دفاتر متدرّجة في أحجامها: صغيرة ذات أسلاك لولبية للجيب، وأخرى متوسطة ذات مربعات زرقاء، وما تبقّى كبيرة الحجوم، بأغلفة سميكة، مرتسمة عليها آثار الأنامل حتى حالَ لونُها.. والملا «بيناف» ينقب على شيء ما، أُفلت من فكره فصار رقمًا. من يدري.

على أية حال، لم يكن هذا الصباح كغيره من الصباحات. جاءه الرقم الخامس في سلسلة نسله، وكان صبياً، جرت تسميته على الأقل في رأس والده، باسم «بيكاس». قد يكون الملاّ فرحاً قليلاً بهذه الهبة الجديدة، لكن الثلج يجعل الجزم بالامر صعباً. أن تقوم وتقعد، وتودّع وتستقبل، فاتحاً الباب، كل مرة، لهبوب وهج قارس من الخارج، أمور لا تدعو الى البهجة. ومع انتشار النهار، دقيقة دقيقة، تكبر المهمة الرتيبة، التي يقطعها سعال خفيف، من جراء انتقاله بين الموقد المتوهج والباب البارد.

في العاشرة وسبع دقائق، على وجه التحديد، اي حين نظر الملاّ «بيناف» للمرة الاولى الى ساعة الجيب المعلقة بسلسلة فضية الى زر من ازرار سترته، دخل عليه «كرزو»، أكبر ابنائه، مشيراً اليه من الباب كأنما يسأله أن

يقترب ليحادثه، فتجاهله «بيناف»، مكملاً حديثه مع احد الجالسين. وحين ألحف الصبي بالاشارات الصامتة، صاح به والده في وقار، كعادته بين الناس: «تقدّم، ولا تقف كاليربوع على الباب. لقد جلّدْتَنا».

كان الصبي قد أطلّ بنصف جذعه الأعلى من الباب، تاركاً قدميه خارجاً حتى لا يطأ طرف البساط. فاضطر الى خلع حذائه، بعد أن دقّ بكعبيه طويلاً على العتبة حتى تنسلّ قدماه. ربما كانت فردتا الحذاء البلاستيكيتان ضيقتين. ثم دخل في خفر. قرفص قرب والده، وتمتم بكلام في أذنه، من وراء الحطة البيضاء المنسدلة على أذنيه ورقبته. نظر «بيناف» الى الصبي في ريبة، ثم محا الريبة عن وجهه بابتسامة بليدة، ناظراً الى الجالسين، لكنهم كانوا في حديث ما فلم يلمحوا انقلابات وجهه. اشار على الصبي بالانصراف، فانصرف. بقي شبه ذاهل لدقيقتين، قبل أن ينهض ويخرج لاحقاً بالصبي.

حين صار خارجاً، رأى النساء يتجهن الى غرفة أخرى غير غرفة زوجه، حيث ينبغي ان تكون مع وليدها. ورأى أخته، التي تبرّعت بنهارها له، واقفة في الباب تصرفهن في رقّة: «الى الغرفة، هناك، من فضلكن. برينا ليست على ما يرام»، لكن وجهها كان ينمُّ عن عصبية تكاد تنفلت بين برهة واخرى، وإذ لمحته قادماً حدّقت فيه، من بعيد، دون أن تطرف عيناها، مشدوهة بصورة ما، تتلألأ على الحدقتين كباشق. حدّق الملاّ «بيناف» فيها، بدوره، ليتأكد من كلام الصبي في وجهها قبل أن تنطق.

اقترب حتى كاد أنفه يلامس أنف أخته. النُدَف البيضاء الكسولة، التي سقطت على أهدابها بتطفُّل، لم تطرّف لها جفناً. مد يده الى مقبض الباب فالتفتت بعينيها الى يده؛ الى الحركة البطيئة التي ستجعلها ترتعش بعد قليل. دفع الباب وهو مايزال ناظراً الى أخته من خلف كتفه. أردف الباب خلفه، وجال بنظره على الغرفة: زوجه على فراش ممدّد على السجادة، وقربها، في الفراش ذاته، ابنه الجديد، مغطى حتى قمة رأسه، وأكبر حجماً من طفل. ظن ذلك للوهلة الاولى، غير أن وهلته الاولى لم تخطئْ تقديره للأحجام. خلع حذاءه عند طرف البساط وتقدّم. نظرت اليه امرأته في عياء ظاهر، مشوب بقلق غريب.

جثا على ركبيته قرب الفراش، شادّاً طرفي عباءته السمكية على فخذيه. «كيف حالك؟» سألها، فظلت محدّقة فيه بالعياء ذاته، لكن شفتها

السفلى ارتجفت على دفعتين، فأشاح بنظره عنها، متفرساً في الغطاء الذي يلاصقها. مدّ يده، في هدوء، الى قمة الغطاء. سحبه فظهر شعر كثيف أسود. سحبه أكثر فبان جبين وردي، فتغضن قليلاً. حدقتا الملاّ تتسعان، ويده ترتجف. ضيّق ما بين جفنيه وتمتم بكلام غير مسموع، ثم سحب الغطاء عن الوجه بأكمله.

الخبر يتسرب من الغرفة الموصدة التي تقف أخت الملاّ على بابها، والوجوم يأخذ طريقه الى وجوه الزائرين. التهنئة تستحيل، الآن، الى نوع من التطفّل: «أحقاً.. يا سيدنا الملاّ؟»، وقبل أن يكمل السائل يردّ الملاّ: «هبة الله أيّها الجار. هبة الله».

كل نصف ساعة يجد الملاّ نفسه متجهاً الى الغرفة الموصدة، ثم يخرج أشدّ عبوساً. يطلب من أخته أن تحدّ من الزائرين قليلاً قليلاً، وأن توصد البوابة، بعد ذلك، فلا يدخل أحد. وحين تنظر اليه في استغراب، كأنما تسأله: «وكيف لنا أن نمنع كل هؤلاء؟»، يجيبها ماشياً: «نحن لم نعد هنا. قولي لهم لم نعد هنا».

الثلج الكسول، المترقرق على مهل من سماء حليبية، يمحو الآثار دقيقة بعد دقيقة. الزرازير ماتزال على السلك ذاته، الذي يصل الأعمدة من فوق الساحة. العصافير، وحدها، لم تعد بعد ذلك الهدوء. اقترب ابن الملاّ، ذو السنوات الست، وسأله أن يسمح له بنصب الفخاخ من جديد. حدّق أبوه فيه طويلاً، ولم يكن، بالتأكيد، يتفكر في جواب. بادره الابن، ثانية: «هل العصافير مقيدة حقاً؟»، فألوى الملاّ شفته السفلى، ورفع حاجبيه: «هكذا يقولون. في أرجلها قيود غير مرئية، لذلك تنتقل قفزاً». «من قيّدها، بابا؟» سأله ابنه. «الله يا بني. لا بد أنها اقترفت ذنباً يستأهل القيد».

بات الوقت ظهراً. عمر الوليد يتراوح بين سبع ساعات او ثماني. يدخل الملاّ الى الغرفة ويطيل المكوث، والأخت تروح وتجيء أمام الباب، نافخة في يديها المثلجتين، وقد تقف أحياناً لتنصت الى الباب، ثم تكمل الحركة المقفلة ذهاباً وإياباً، غير آبهة بالطّرقات التي تتناهى من بوابة الساحة، بين وقت وآخر.

النار ماتزال تحت القدر الكبير قرب التنّور. بخار كثيف يتصاعد ممتزجاً بدخان الروث المبتل، الذي يستخدمونه وقوداً. إمرأة عجوز تحرّك ما في القدْر بعصا طويلة، ثم تجثو أمام النار مُسْتَدفِئةً. وليمة ينقصها حاضرون جاءوا في

الصباح، واختفوا قبل أن ينضج لحم الخراف. وعلى مقربة من ذلك الاحتفاء الباهت بزائرين لا تُفْتَح لهم البوابة، انكبّ ابن الملاّ على الطبقة البيضاء يغطي بها فخاخه الباردة.

«أين رأى كل هذا، بحقّ الله؟» قالها الملاّ حين سألته أخته عن الأحوال داخل الغرفة، وما يجري هناك. وأضاف: «إنه يعرف أنني بقيت نائماً فسهوت عن صلاة الفجر، بسبب سهر الليل. أتصدقين؟». سألته: «وكيف حال المرأة؟»، «مذهولة» أجابها. «ماذا سنفعل الآن؟»، ردّ مطرقاً: «من يستطيع أن يردّ قَدَرَه. لكن الذي يخيفني هو أين سيتوقف الأمر».

تقدّم الملاّ، وسط ثلج الساحة، الى حيث المرأة العجوز المنكبّة على تحريك الطعام في القِدْر بعصاها. صاح به ابنه، من زاوية الزريبة التي اتخذها مرصداً يرقب منها الفخاخ: «حاذر يا أبي، لقد وطأت فخّاً». لم ينتبه الملاّ، حقاً، الى القرقعة الخفيفة للفخ تحت قدميه. نظر الى أسفل لبرهة، ثم أكمل مشيه. «كيف حال الخراف؟» بادرَ المرأة، فابتسمت ابتسامة مجعَّدة: «إنها دافئة الآن، وهذا خير لها من صقيع الزريبة». تمتم: «وحال النار؟». لم يكن سؤالاً هذا، بل محاولة إبعاد شبح سؤال آخر يستعصي جوابه. إذ ذاك جثا، بدوره، قرب القِدْر، وبسط يديه للوهج المتسرب من ألسنة صفراء تلعق الركائز الحجرية، ثم تنحسر.

«أخي». كان شارداً أمام الدفء الذي أحال نُدَف الثلج العالقة بعباءته الى خيوط من الماء، ما تلبث أن تغيب في النسيج الأسود. «أخي»... سمعها حين هتفت أخته للمرة الثانية، فالتفت وهو مايزال جاثياً. لم تكن تنظر اليه، بل الى الباب، فأدرك، على فوره، أن البرهة التي انتظرها قد حانت.

كان شاب ورديُّ البشرة، بشعر أسود كثيف، ولحية منبتَّة في مناطق من الوجه دون أن تتصل تماماً، يطلّ من الباب، مظللاً عينيه بيده ليتّقي وهج الثلج، وقد شدّ بالاخرى على غطاء سميك لفّ به جسمه. قصير القامة، لكن بتناسق. ربما يكون في السابعة والعشرين او الثلاثين. نهض اليه الملاّ بتثاقل، وحين صار قباله قال: «سيؤذي الثلج عينيك يا بني». ضيّق الشاب ما بين جفونه، وردّ: «ينبغي أن أرى أشياء كثيرة أعرفها بإحساسي فقط يا أبي». صمت لبرهة، مُجيلاً بعينيه في الساحة، وأردف: «أين إخوتي؟». التفت الملاّ الى أخته، وأومأ، فاتجهت المرأة الى غرفة مجاورة. وقبل ان تعود،

كان الملاّ وابنه الشاب يدخلان الى غرفة الأم من جديد، ثم يجلسان قربها، على الفراش.

بعد برهة دخل أبناؤه الاربعة. صِبْيَة، أصغرهم في الرابعة، وأكبرهم في العاشرة من عمره. كانت أخت الملاّ ترشدهم الى حيث ينبغي ان يجلسوا حول الموقد، بينما أخذتهم نوبة من هرج خفيف. صاح الاصغر على حين غرّة: «أريد أن أكبر مثل بيكاس»، فنهره الأكبر: «أسكت». والأكبر يدرك بإحساسه، ومن خلال ذلك الذهول الذي يستحيل الى استسلام في وجه الأب، أن الأمر ليس للتَّفكُّه.

لم يجد الأب ما يقوله، ليجعل التعارف ممكناً بين ابنائه الاربعة من جهة، وبين هذا الوليد الذي يختزل السنوات، كل ساعة، من جهة أخرى. بأي مَثَل يسترشد ليجعل الفهم محتملاً، وبأي ظاهرة يستنجد أمام هذه الطفرة التي لا يشبهها إلاّ ما يعرفه عن نبيّ تكلّم، وهو في المهد، بكلام كبير؟ ينتقل ببصره الحائر بين وجه زوجه المستندة الى وسادة، وبين وجه أخته. وحين أعيته الحيلة، قال في ما يشبه الهمس: «هذا أخوكم بيكاس.. وهؤلاء هم إخوتك يا بيكاس». وفيما الكلام الذي نطق به الملاّ يترقرق كنقر على صفيحة، تقدم الشاب، زحفاً على ركبتيه، الى حيث إخوته حول الموقد. ابتسم فاتسعت حدقات الصغار. مدّ يده الوردية الى شعر أخيه الصغير مداعباً ومستأنساً، فأحنى الطفل رأسه ليتلافى تلك اليد.

الابن الأكبر «كرزو» لم يبادل أخاه العجيب ما بادله الصغير من نفور. جرّ نفسه على البساط، وهو جالس، مبادراً «بيكاس» بقوله: «أهلاً أخي»، ثم مدّ يده مصافحاً. وكانت هذه التوطئة من الابن البكر مدخلاً الى كسر الوجوم الدافىء بفعل وهج الموقد. همس الثلاثة الآخرون: «أهلاً بيكاس». وكأنما نسي الأب والأم ما هما فيه من غرابة، إذْ غرَّتهما هذه التوطئة الحكيمة للصِّبْية، فاندفعا يحثان الجميع، في حماسة، أنْ: «قبِّلوا بعضكم بعضاً. هؤلاء إخوتك، هذا أخوكم. يا للعار، تتهامسون كغرباء. إرفعوا أصواتكم. نعم، هكذا».

بات الصِّبْية يرفعون الكِلْفة التي لم يرفعها الأبوان في أعماقهما. فهذا الـ «بيكاس» أغلق صورة الأبوّة على نفسه بعد ساعتين من ولادته، حيث رأياه وليداً فاختزنا ما تختزن الأبوّة تجاه وليدٍ، ثم نما خارجها على نحو يجعل الحيرة والدَّهش سيدين على أحاسيسهما.

الأبـوان يرقُبان فحسب. الأمور تأخذ مجراها خارج أي تدبير. يقول «زيوان»، ناصب الفخاخ، موجّها الكلام الى أخيه «بيكاس»: «أتحب صيد العصـافير؟». «العصافير؟» تساءل بيكاس، «آه. العصافير. تصيّدتُ منها الكثـير قبل مجيئي»، ونظر مبتسمًا الى أخيه الذي فاجأه الجواب، ثم أكمل ليدفع عن هذا الصغير حيرته الهشة: «لم نكن نتصيّد العصافير بالخبز، مثلك، بل كنا نضع الفخاخ بين ورق الأشجار، ونجعل الفاكهة طُعْمًا». بعد ذلك الجـواب التفت الى الأكـبر «كـرزو»، تاركـاً ناصب الفخـاخ في تسـاؤلاتـه المتسارعة: «لماذا لا تسألني كيف أنمو بهذه السرعة؟». فتح «كرزو» فمه كمن وجد سؤالاً، فلم يدعه «بيكاس» ليكمل، ملتفتاً الى الخلف، حيث الأبوان اللذان تلألأ في عيونهما السؤال ذاته. «اللعنة» تمتم، «كيف سأشرح ما لا طاقة لي به. أنا مذهول مثلكم. أراكم كل ساعة أشخاصاً آخرين، ينمون معي سنة بعد سنة، في تسارع يختلط فيه فهمي الثابت لأشياء أعرفها عنكم قبل مجيئي». صمت برهة، وأضاف: «حيرتي حيرتان: حيرتكم بي وحيرتي بكم. فلنتقبَّـلِ الأمـر معاً، إذ لم يبق من الوقت إلاّ أقلّه. انظروا، قد اصبح في الأربعينَ عصراً، وفي الخمسين مساء. والليل؟.. لا أعرف. ثمت شؤون عليّ ان انجـزهـا معك يا أبي، فالدّورة دورة، سواء أإكتملت في يوم أم في عشرين ألف يوم. سيكـون قاسياً عليك شرح ذلـك لهؤلاء الواقفين خلف البوابة، والمنتظرين جواباً قاطعاً. إنها محنة، فتهيَّأ لذلك فقط، وانسَ حيرتك فيَّ».

ربت الأصغر، من إخوته، على فخذه ليجعله يلتفت إليه، فالتفت. «أعندك دفتر؟ أنا عندي دفتر»، قالها الصغيرة. «أووه» ردّ بيكاس، «دفتر! كل الدفاتر التي في حوزة والدي هي دفاتري»، فقطّب الصغير: «لا. إنها دفاتر بابا».

تململ «بيكاس»، فالاسئلة المشروعة لهؤلاء الصِّبية ستطول: «أبي، أريد أن أبحث معك أمراً يلحُّ علـيَّ»، ثم نظر الى أمه مكملاً: «ومعك أنت أيضاً».

«خاتي» صاح الأب، فدخلت أخته التي بدت، بسرعة دخولها، وكأنها كانت تتنصّت من البـاب طوال الـوقت. «نعم؟» سألتـه. «خـذي الأولاد وأطعميهم يا أختي» ردّ الملاّ، وأضاف: «تأخر الوقت ولم يأكلوا بعد». تقدمت أخت الملاّ فأخذت بيد الصغير، ودفعت الآخرين أمامها كخراف مرحة.

زحف «بيكاس» على ركبتيه مقترباً من فراش أمه، بالطريقة ذاتها التي اقترب بها من الموقد. «اسمعاني» بادرهما، وهو عارف أنهما سيستمعان حتى رؤوس أناملهما. «أريد أن أتزوج»، وصمت ليقرأ شفاههما التي ارتخت قليلاً، ووجهيهما الخاليين من أي تعبير. وكأنما أراد أن يقيدهما أكثر بسحر يزيد ارتخاءهما، حتى ينزلق اللحم عن العظام في ارتجاج مطّاطيّ، أردف: «إنها المحنة». تمتم الأب: «محنة. .» كمن يهذي، أما الأم فغاصت كتفاها في المخدة التي تستند إليها، وغدت قطعة رمادية من الفراش الرمادي. «إنها محنة ستنسيانها حين تنقضي، أما أنا فلن أجد الوقت لأنساها. . أريد أن أتزوّج، وهو مطلب يسبق سؤالي عن ثياب أرتديها»، قال ذلك، في حين تعلقت عينا الأب بمربع أزرق في البساط، نافرٍ صلدٍ، تكاد تختفي إحدى زواياه تحت الفراش. وقد بات يرتّب الأضلاع في ذهنه، دائراً من خط أفقي الى زاوية فالى خط عمودي، صاعداً هابطاً، لا يعثر على كلمة. كابوس المربّع الأزرق يسيطر على اللغة فيجعلها زرقاء ممتدة في المساحة، لا في الحروف ذات الهندسة. امتداد بليغ، يحصر تاريخ الملاّ، وتاريخ أسلافه، في عدم أزرق لا محطة فيه ولا انعطاف. مسافة بكماء في مربع تذوب زواياه، وتمّحي فلا يعودان، هو وامرأته، واقعين إلاّ بهذا الصمت المهرّج.

«سيتزوج» همست الأم، فأفاق الأب مردّداً: «سيتزوج. .». وبدا أن كليهما لا يفقهان معنى الكلمة، عدا «بيكاس»، المبتسم من هذا الوجوم الفكاهي. «نعم» قالها جازماً، : «أنت تعرف أعمامي بالطبع، وفي مقدرتك أن تختار من بناتهم». «أعمامك» ردّد الأب الكلمة مرتين، «آه»، ثم انزلق الى هاوية مربع البساط الأزرق. «أعمامك؟»، وانتفض: «أتمزح؟ قل إنك تمزح. لن يصدقوا ما سنقول. نحن لم نصدق الأمر بعد، فمن سيهب ابنته من أجل كذبة يا بيكاس؟». رد الابن: «عليك أن تحاول يا أبي. لم يبق من الوقت الكثير»، فاحتدم الأب: «وقتُ مَنْ يا عجيب؟ من يهتم إذا بقي وقت أو لم يبقَ؟ ولماذا عليّ أن أنصت الى إلحاحك هذا لتجعل المحنة أقسى؟ استُرْنا بحق الله، فأنت تُجْهز علينا». «لا» ردّ بيكاس، «الأمر محسوم، وستفعلها يا أبي». نهض الملاّ على ركبتيه، متوعداً: «ومن حسم الأمر؟»، فأجابه ابنه «ستفهم ذلك فيما بعد يا أبي». «لا أريد أن أفهم شيئاً فيما بعد، ولا أريده الآن. لستُ معنيّاً بفهم هذه المحنة، فليفهمها ربك». أمسكته امرأته من

كـمّـه، كأنما توبّخه على كلام لا يليق بشخص في مقامه، فانتزع الكم بذراعه منها، متمتمًا: «لماذا أنا؟» مشيراً بأصبعه الى صدره. «إذا كنتُ الـمُـختارَ لهذا الامتحان فلست بقادر عليه. للانسان حدود في الاحتمال، ولا تجاوز حدودي هذه الساحة التي يتصيد فيها أخوك العصافير. إسمع . . .». كان نبضه يعلو فتهتز العباءة، كأنما استحال الملاّ بجسده كله الى قلب مذعور: «يتهيّأُ لي أنك تعرف كل شيء، فدلَّنا على منفذ»، وتراجع جالساً بمؤخرته فوق فراش الأم، مستسلمًا بمرارة لما سيقوله هذا الذي تزداد الأخاديد الصغيرة حول عينيه عمقاً.

كانت علبة التبغ الفضية، المجاورة للمربع الازرق في البساط، تدور حول نفسها تحت الأنامل العابثة لبيكاس، والأب ينظر الى الحركة مرتقباً جواباً ما. رفع «بيكاس» العلبة على راحته ومدّها الى أبيه: «لفّ لي سيجارة يا أبي». «سيجارة. نعم، سيجارة»، ردّد الملاّ وهو يتناول العلبة كالمنوَّم. فتحها وعقد الورق الشفيف على بعض التبغ، ثم بلَّل حوافها بلسانه فاكتملت. قدّمها لابنه وهو يشعل ولاّعة الكيروسين ذات الفتيل. عبّ الابن الدخان ملء فمه دون أن يبتلعه، ونفخه في هدوء. «التبغ مُـرٌّ يا أبي، كيف تطيقونه؟»، ثم ازدرد لعابه في ما يشبه القرف، لكنه احتفظ باللُّفافة مشتعلة بين إصبعيه، اللّتين كان يحدّق أبوه فيهما. «والآن يا بيكاس؟» تمتم من غير أن ينظر الى وجهه. ردّ الابن: «السؤال ذاته يا أبي. سأتزوّج، فتدبَّر الأمر مع أعمامي». نهض الأب واقفـاً، ثم ركـل ابنـه الجالس ركلة خفيفة تنم عن غضب لا يوصف: «لو لم تكن. . لو لم تكن. .»، وكان يبحث عن كلمة يصفه بها فلا يجدها. قد تكون «لو لم تكن عجيباً»، أو «غريباً»، أو «شيئاً يدعى إبناً»، أو «وافداً ماتزال الكلفة قائمة بينه وبيني»، أو. . من يعرف بمَ كان يفكر في فورته، غير أنه أضاف: «لركلتك على وجهك. ورّطتني حتى أنني أوصدت البوابة في وجوه الزائرين، وها أنت تورِّط أناساً آخرين في طلب لن يفهمه أحدٌ من كائن لن يفهمه أحد»، ثم اتجه الى الباب صارخاً: «سأهرب. عليّ أن أهرب من هذا البيت». لبس حذاءه البلاستيكي ذا العنق الطويل، وصفق الباب خلفه.

نهض «بيكاس» مسرعاً بدوره، عارياً تحت الغطاء السميك الذي يلفّ به جسده، وخرج خلف أبيه.

نُدَف الثلج تزداد رخاء وتتكاثف. لا ريح بعد، والزرازير ذاتها على

السلك الكهربائي فوق ساحة البيت. الملّا يتجه الى البوابة الخارجية مهرولاً، هارباً من شبح ابنه الحافي الذي يهرول بدوره. أخت الملّا تطل برأسها من الباب الذي قادت اليه اولاد أخيها، خالية الوجه من أي تعبير، ثم تغلقه، في هدوء، على المشهد، كأنما الأمر يعني القَدَر وحده.

فتح الملّا البوابة، وخرج هائمًا في الساحة البيضاء التي تجاور سور البيت. والمساحة ممتدة شمالاً. بضعة بيوت متناثرة تلوح في البعيد الذي يجعله الثلج المتساقط أكثر عمقاً. الملّا يمضي بتثاقل من أثر قدميه اللتين تغوصان، وابنه يمضي بتثاقل أيضاً، عاري القدمين، وثمة أمتار بينهما لا تنقص ولا تزيد، فالأب متمهّل الآن، والابن متمهّل مثله، كشخص يتبع الدليل.

الأم، وحدها، التي تركها الأب والابن في سباقهما، لا تعرف مسافة غير مسافة ذهولها. مربعات البساط تستحيل الى عيون متسائلة، والجدران تقهقه. تشد اللحاف السميك الى ما فوق انفها، وتبقى عيناها محدقتين في فراغ يقرقع بسوطه في الهواء. «إلهي، لو محوت كل هذا في لحظة. .» تقولها صامتة، فيكبر الواقع الذي يشبه جسده جسد ابنها: شعر كثيف ينسدل من لا مكان، وأنامل وردية تعبث بالاسئلة.

يختفي الأب والابن في ما وراء البيوت المتناثرة شمالاً. آثار أقدامهما المتعرجة تكاد تلحق بهما تحت مكنسة الثلج البليدة، وفي مسافة أبعد، حيث تكاد تخوم المدينة الصغيرة هذه أن تلحق بتخوم تركيا، أدرك الابن أباه. «أبي، لا حاجة بك الى كل هذا» قالها «بيكاس» صارخاً، فالتفت الأب وقد بان عليه العياء واللاجدوى. وقف سائلاً ابنه في إشفاق: «ألا تؤلمك قدماك الحافيتان؟». رد الابن: «لا أحس بهما، لكن عيني ستسقطان من محجريهما إذا استمرت المطاردة يا أبي».

مسح الأب على لحيته بيده الزرقاء التي أخرجها من تحت عباءته، ثم قلّبها أمام عينيه متفحّصاً: «لقد ربحت يا بني. إلى أين سأهرب مني؟»، فتقدم منه ابنه ممسكاً بتلك اليد: «فَلْنَعد، إذاً، يا أبي».

مقبض الباب يدور من الداخل بفعل حركة اليد التي تديره من الخارج. همستان تعقبان تلك الحركة: «تفضّل»، يسأل أحدهما، فيردّ الآخر: «تفضّل أنت». سحبت الأم جسدها من تحت الغطاء لتستند بظهرها الى المخدة. يدخل الأب خالعاً حذاءه على حدود البساط، بينما يدخل الابن وقد

خلت قدماه من أي لون. يقف حائراً: أيطأ البساط أم ينتظر؟. يصيح الأب: «خاتي» فتردّ أخته من الغرفة المجاورة: «نعم يا أخي». «هاتي بماء فاتر» يضيف الملاّ. يأتي الماء الفاتر في إبريق نحاسي، وهم يحتفظون في كل غرفة بابريق فوق موقد المازوت. «صُبِّيه على قدميه» فتصبُّ الأخت الماء على قدمي ابن أخيها في رفق. ينزلق الماء على الجلد فيتورَّد قليلاً قليلاً، منسرباً من مجرى إسمنتي في الزاوية يُفضي الى الخارج، حيث يأخذ طريقه بين الثلج في أخدود ضيق.

حيرة الملاّ تجعل يده تنزلق في حركة آلية على لحيته، ثم على صدره ففخذه الأيمن. يتقرّى حدود المربعات في البساط قبل أن يمسك بخيط يتدلّى من حاشية قفطانه. يسحب الخيط فتنفرطُ عُقَدٌ على مسافة بوصة في الحاشية. يتوقف لأنه يدرك أن استمراره في سحب الخيط سيجعل الثَّنْيَةَ تتدلّى. يعقد عقدة صغيرة في المكان الذي انتهى إليه سحب الخيط، ثم يقطعه بجمرة لُفَافته. يلتفت الى امرأته سائلاً: «من منهم أختار؟». تجيبه: «مَهْمَدْ. أنت تعرف أن لدى أخيك مَهْمَدْ إبنة . . .» ثم ترفع يدها الى مستوى وجهها، كأنما تضيف: «ربّما».

الملاّ يفهم حركة امرأته. لدى أخيه «مَهْمَدْ» ابنة بسيطة العقل، جاوزت العشرين ولا تعرف العدّ حتى العشرين. يحسّ بأسى وهو يفكر على هذا النحو: «ألا يليق ابني بفتاة لا عيب فيها؟» يسأل نفسه. تنخفض عيناه خجلاً من أن تلتقيا بعيني ابنه، لكن عليه أن يحبك المؤامرة على هذه المحنة، وعليه أن يعفي نفسه، في الوقت ذاته، من مساءلة مرفوضة بالتأكيد. ستكون حجته أمام إخوته الآخرين ضعيفة جداً، لكنه إنْ سأل «مَهْمد» يد ابنته المسكينة هذه فانما يمسك بضعف أخيه كله في يد واحدة.

خمس دقائق الى الخامسة مساء. يعيد الملاّ ساعته ذات الغطاء الى جيب صدّارته. «فلأمض الآن» يقولها بصوت عال، من غير أن يعني أحداً بقوله. ينهض في اتجاه البَاب، وقبل أن يكمل ارتداء الفردة الاولى من حذائه البلاستيكي، المبطّن بصوف أشعث، ينادي أخته «خاتي» فتأتي اليه. يسألها أن تتهيّأ لتمضي معه فتجيبه أنها جاهزة. ينظر إليها الملاّ متوقعاً أن تسأله في الأمر، لكنها لا تسأل. «خاتي» تعرف التسلسل المُرَّ للمهزلة، من غير أن تسمع أو ترى إلاّ القليل. هادئة كمن عليه إنجازُ مهمة أُحِيْطَ بها عِلمًا من قبل. تفكر

بين الحين والحين في أطفالها الذين تركتهم في البيت طوال النهار، لكنها عارفة أن زوجها الوديع يقوم بالأمر على أحسن ما يكون.

كانت «خاتي» مُهْمَلَةً في العادة، لا يستدعيها أخ من إخوتها إلّا لترعى أطفاله اذا مرضت الأم، أو للطبخ اذا كثر الضيوف. وكذلك يفعل إخوة زوجها وأخواته. عمر متواصل من غسل ملابس طفل متّسخة، أو ملابس أمٍّ وضعت وليداً. عمر متواصل تحت أثداء الأبقار والأغنام، حيث تطفو رغوة الحليب النيِّء في قدور سوداء من الخارج بفعل الدخان. عمر من غربلة سَقَطِ القمح الرخيص الذي يشتريه زوجها قبل إرساله الى المطحنة، وها هي فخورة، الآن، بمواكبة أخيها في أمر صعب.

تتبع «خاتي» أخاها في الظلام الذي يحلُّ باكراً في هذا الوقت من السنه، وكلاهما يستهدي بشعاع الثلج الذي يخترق الأزقة غير المرصوفة في طرف المدينة. حَدَباتٌ صغيرة، وحفر في الطريق، تجعلهما يتعثران، أو يغوصان. لا صوت. لهاث فقط. الأخت تفكر في المسألة على نحو قدريٍّ متّصلٍ بالأعالي التي تغيب فيها وراء الثلج، والملاّ يفكر في مدخل الى زيارته، ثم ينسيان، معاً، أسئلتهما، حين يقرعان على البوابة الخشبية التي تتوسط السور الطينيّ. يقرعان بقوة حتى يسمع أهل البيت فيرتفع النبض في صدغيهما. صوت بعيد يجيبهما: «لحظة.. لحظة».

يفتح الباب فتى في الثالثة عشرة، فيميزهما: «عمي. عمتي». يدخلان دون أن يجيباه بشيء، فيردّ الفتى البوابة بقوة حتى تنغلق، ثم يدفع الرتاج الحديدي الصدىء في الحلقة الصدئة، فينبعث صوت كأنين كلب. يسمع الملاّ وأخته، في مرورهما، نهوض بقرة في الزريبة، وقَأْقَأة دجاج في القن ما تلبث أن تهدأ فور عبورهما. يصلان الى باب البيت الذي يبعد عن البوابة مسافة ثلاثين متراً، فيدفعانه دون استئذان. ضوء سراج الكيروسين خفيف في الداخل، لكن وهج النار في المدفأة يضفي لألأة منيرة، وظلالاً أنيسة على الجدران. ينهض الجالسون من مفاجأة الزيارة. لقد حاولوا زيارته للتهنئة فكانت بوابته موصدة، وها هو يزورهم، مُبَاغِتاً، فينهضون في آلية من يباغت لصاً. أكانوا يتحدثون، في تلك اللحظة، عن بوّابة الملاّ؟ أم عن قِحتِه التي دفعته الى الاختفاء في مناسبة هي للفرح؟. بوغتوا وهم يتحدّثون، مُرْخِين سيقانهم حول الموقد، وعلى وجوههم أقنعة من دخان اللُّفافات. «تفضّل. تفضل»، دبَّتِ الهمهمة.

عائلة أخيه «مَهْمد» حول الموقد بأنفارها التسعة. «مَهْمد» يكبر الملاّ بستة أعوام. وثمة جيران أيضاً، أتوا يتسامرون. لم يردّ الملاّ كثيراً على إيماءات الترحيب، كأنما هو في عجلة من أمره. والفاصل الوحيد بين صمته ووجوم الجالسين كان أن عَقَد لُفافة من علبة أخيه التي انزلقت على البساط حتى لامست يده. نفخ سحابة من الدخان من فمه، أما ما خرج من منخريه فقد استقر في لحيته، متموّجاً كضباب خفيف في حقل فلفل. «أريدك أنت وزوجك في خلوة» قالها لأخيه. ولأن كلامه، هذا، خلا من أي انفعال، فقد أحس الجالسون ما يريب، فاستأذن الجيران وخرجوا، أما أفراد العائلة فالتمسوا موقداً في غرفة أخرى، كان يفصلها عن هذه الغرفة باب واطىء تخفيه ستارة سميكة من القنّب الملون.

«أخي» بادر الملاّ الرجل الآخر، الجالس محتضناً ركبتيه الى صدره، «جئت أسألك ابنتك سينم»، وجال بنظره على أخته وزوج اخيه.

حدّق في اللهب خلف النافذة السيلوفانية الضيقة في صفيح الموقد، عارفاً ما يجول في رأس الزوجين. كان يقرأ وجهيهما اللذين ينتظران، بعد الزيارة المباغتة، أن يفاجئهما بموت الوليد الذي جاءه فجر هذا اليوم، لا أكثر، إذ ما من إشارة الى غير ذلك في وجهه هو. «أنصتا إليّ» أضاف، «لن تفهما ما سأقوله، لأنني لم أفهمه بعد، لكنني أرجو أن تستسلما للأمر كما استسلمت له. إبني...»، وارتشف من لُفافته نَفَساً أتى على نصفها، فمال الجمر حتى كاد يسقط، فصحّح الوضع بإصبعه بعدما بلّلها بلسانه. «إبني بيكاس، الذي وُلد فجراً، ينمو في الساعة الواحدة ما يقارب ثلاث سنين. مشيئة الله. وإبني يريد أن يتزوج اليوم، أعتقد أنكما فهمتما لماذا أغلقنا البوابة في وجوه الزائرين. لا أريد أسئلة كثيرة، لأنني منتفخ بالاسئلة التي تدور في رأسي. أريدكما أن تستسلما لأكذوبة، لا أكثر، ولا أقل».

لم يُحِرْ «مَهْمد» جواباً. زوجه وضعت يدها على فمها كأنما تسند عينيها حتى لا تسقطا. «أوه» نفخ الملاّ. «ما يحصل لكما من دَهَش حصل لي حين رأيته بأم عيني، للمرة الأولى، وهو ينمو دقيقة بعد دقيقة. تصوّر يا أخي أنك إذا سهوت قليلاً، وأنت تلفّ لُفافتك، وأفقت ثانية، تجد شعراً على صدغيه، ثم شارباً ينمو، ثم ترى تجاعيد تأخذ مكانها، الواحدة تحت الأخرى، في هدوء. وهو يعرف ما نعرف من غير أن يكون قد رأى. لطيف جداً، ينسيك

ما أنت فيه من حيرة»، وابتسم ليبدّد ما لن يبدّده أحد. «لن تخسرا شيئاً. شاركاني هذه المحنة من غير أن يسمع أحد صخب هذه المحنة. قصدتكما لأنكما تقيّان».

رفع «مهمد» وجهه المنكّس وقد اختفت عيناه بفعل الظلال التي يرسمها لهب الموقد: «اخترت ابنتي بسبب قصورها العقلي؟». غمغم الملاّ فلم تسعفه إلاّ مخارج حروف لا يبين فيها جواب. بادره أخوه، ثانية، كأنما ينقذه: «لن يطلبها مني غيرك. أعرف ذلك. لكنها ابنتي على كل حال..»، فردّ الملاّ بصوت يشوبه احتداد خفيف: «وبيكاس ابني على كل حال. المسألة ليست مساومة على الأبوّة بيني وبينك، بيد أنّي لن أجد فتاة اخرى تهب نفسها لهذا الموقف المحيّر»، وصمت الملاّ ليعقد لُفافة جديدة من علبة أخيه، وإذ رفعها الى فمه أردف: «نعم يا أخي، قصدتك لضعف موقفك بطلب ليس فيه إغراء»، وأشعل اللُّفافة في هدوء مَنْ أدلى باعترافٍ ينتظر مغفرة مضمونة.

قال «مَهْمد»، موجهاً سؤاله الى زوجه: «وماذا ترين، أنت؟»، فردّت حيرى: «إنه أخوك...» ولم تكمل. تمتم «مهمد»: «ومتى تريدها جاهزة؟». «الآن.. سنأخذها معنا» ردّ الملاّ، وأضاف: «لا نريد الابلاغ عن ذلك حتى الغد. فلنكن وحدنا في عقد القران».

قامت زوج «مهمد» على فورها، هاربة من مواجهة نفسها وزوجها بأسئلة كثيرة، ثم دخلت من وراء الستارة القُنَّبية الى الغرفة المجاورة. مضت دقائق ارتفع بعدها صوت أطفالٍ وصِبْيَةٍ يهتفون في نشيد ساخر: «سيـ سيـ نم.. سينم.. نم نم»، فعرف الكبار أن المرأة اضطرت الى إبلاغهم بالأمر، لتبرر مغادرة أختهم الساذجة للبيت على هذا النحو المضحك. وبعد ربع ساعة، على التقريب، كانت الفتاة البسيطة تقف قربهم بابتسامة بلهاء تتحول بين الحين والحين الى نصف ضحكة مكتومة، ومن خلفها تقف أمها، حاملة كيسين صغيرين هما عبارة عن ملابس الفتاة وحوائجها. «سأسبقكم» قالها الملاّ وهو ينهض: «سأعرّج في طريقي على الشيخ عارو لأصطحبه لعقد القران». ثم انتعل حذاءه وهمّ بالخروج، غير أنه توقف ملتفتاً الى أخيه: «لا تفعلها إذاً لم تكن مقتنعاً يا أخي»، ورمى بعقب لُفافته خارج الباب الذي فتحه قليلاً، فأشار عليه أخوه بحركة من يده: «إمْض. إمض» من غير أن يقولها.

كانت «خـاتي»، أخت المـلاّ، أكثر خفَّة في سيرها، ترى خط الثلج الرمادي بعيني بوم، وتحسّ بالأثلام كخفاش. وحين صارت على مقربة من سور بيت أخيها هرولت. فتحت البوابة على مصراعها، ثم انعطفت في اتجاه غرفة الأم. دخلت هامسة في فحيح عال: «لقد جاءوا، فليرجع الأولاد الى الغرفة الأخرى». ردّ «بيكاس»، الذي كان جالساً خلف الموقد، ولا يُرى منه سوى طرف قفـطان أبيه الأكـبر من مقاسه: «فليبقوا يا عمتي، لا ضرر في ذلك». وقبل أن تستنفر عمته كلمات أخرى كان الوافدون في الباب. قالت «خاتي»: «تفضلوا» فدخلوا، الأب أولاً، فابنته، ومن خلفها أمها بالكيسين الصغيرين. ردّت «خاتي» الباب في سرعة، عازمة على أن تجعل الجو الصارم أكثر ليناً، لكن «بيكاس» أخذ المبادرة منها، ناهضاً مادّاً يده المفتوحة: «أهلا عمي» فَذُهـل العم. أخـذ «بيكاس» يد الرجل المرتخية بين يديه، وهزّها. «تفضل» وأشار الى وسادة قرب الموقد، فانزلق العم ثقيلاً بجسمه عليها. رفع «بيكاس» عينيه إلى وجه المرأة، ثم جاوزها إلى وجه الفتاة. ردّ بابتسامة بلهاء على الابتسـامـة البلهاء. فم الفتاة مفتوح أبداً، وثمت ضحكة محتبسة بين الأسنـان. تدخّلت «خـاتي»: «اجلسـا. اجلسـا»، وقدمت وسادتين للفتاة وأمها. أمُّ «بيكاس» ردّت الغطاء عن جسمها فبدت كأنها تهيّأت للموقف: ثيابها كأكمل ما تكون، وعلى رأسها غطاء موصِليّ أحمر مرقّط ببقع سوداء، وحول استدارة الرأس منديل زهريّ من الحرير.

الصمت يتصيَّد الصمت بصنّـارتـه بين الوجوه. كلٌّ يراقب الآخر، مُطْرقـاً حينـاً وملتفتاً حيناً، أو عابثاً بأي شيء يقع بين يديه ليداري العبث المخيِّم على الموقد. حتى أولاد الملاّ، الذين بقوا في الغرفة بتوصية من أخيهم «بيكاس»، كانوا يلكزون بعضهم البعض دون نأمة، ومن يتألم منهم يفتح فمه على آخره، ثم يعود فيعض على أسنانه. حاول الصغير، ذو السنوات الأربع، الاقتراب من العروس المرتقبة فشدّه أحدهم من حاشية جلبابه، فسقط على وجهه، بينما ظلت مؤخرته في الهواء. هم أن يبكي فتلقَّفت إحدى الأيدي فمه وسدَّته.

على حين غـرَّة دخل الشيخ «عارو» يتبعه الملاّ. نهوض جماعي وجلوس جماعي. إيماءات بالرؤوس لا معنى لها حول الموقد. «اقترب يا بني. اقتربي يا ابنتي» قالها «عارو» مستعجلا. قطعة ورقـيَّة من فئة الخمس والعشرين ليرة جـنّبت العـائلة اسئلة الشيخ. «بسم الله. أنكحتهـا لك... تأخـذينه،

تأخـذهـا. عُـهْـدةٌ. المهـر مقـدّمـا. . . خمس ليرات رشـادية. . . ». هذه الكلمات، إضـافـة إلى كلمات أخـرى، استقـرت على البساط الصوفي ذي المربعات. بعدها نهض الشيخ متمتمًا: «على بَـرَكة الله»، وخرج يودّعه الملاّ في الباب.

الصمت يزداد ثقـلاً، من غير أن تقـطعـه التفـاتـات الفتاة البسيطة الفجائية الى هذا الوجه، والى ذاك، مسترسلة في ابتسامتها البلهاء. «خاتي» ألقت بثقلها على الموقف: «أيّ غرفة نختار للعروسين يا برينا؟»، فردّت زوج الملاّ: «غرفة المضافة»، وأومأ الملاّ برأسه موافقاً، فهرولت الأخت لتهيء ما يلزم لليلة كهذه.

ما من احد في حاجة الى قليل من السمر. هكذا بدا الموقف بين الملاّ وزوجه من جهة، وبين أخيه وزوجه من جهة أخرى. قد يُـبـدّد الصباح شيئاً من هذا الكابوس: الوجوم في الوجوه يميل الى تخمين كهذا. علبة تبغ الملاّ، وعلبـة أخيه انتقلتـا بالتنـاوب بينهـما. حركـة آلية من الأفواه والأنوف لنفخ الدخان. تجاسر الملاّ بكلمات قليلة الى أخته: «حان وقت العشاء يا خاتي. أطعمي الأولاد واذهبي الى بيتك. نشكرك على كل شيء. سيفتقدك اطفالك وزوجك». واستدرك فأضاف: «سأتدبر لي ولأخي وزوجه شيئاً نأكله»، فردّ «مهمد»: «اعذرنا. يجب أن نعود الى اولادنا لنتعشى معاً يا أخي»، فلم يلحّ الملاّ، كأنما يودّ أن تغيب الصورة الماثلة في أسرع ما تكون. «كرزو» هتف الأب بابنه البكر: «دلّ أخاك وعروسه على غرفة المضافة».

لم يكن يهم الملاّ، في هذا الموقف، أن يرشد ابنه «بيكاس» الى ما ينبغي فعله، فالعادة ان يقوم رجل وامرأة، كـلٌّ بدوره، بارشاد العريس والعروس الى ما يتوجب عليهما في هذا اللقاء الأول، لكن الاستثناء في الموقف أنْسى الحاضرين لعبة المرح التي يُفْصح فيها العارف عن معرفته للساذج الجاهل بهذه الامـور. النسـاء كنَّ يتفـكَّـهْـن بالعـرائس، قائلات: «أحرقن خصلة من شعركن قرب الفراش، قبل أن يدخل عليكن الرجال، لتجعلنهم متعلقين بأجسادكن الى الأبد»، وإذْ يريْـن أن الفكاهة انطلت عليهن يُقهقهن: «لا. نمـزح. أرفضن الاستسـلام ليشعر الرجال بعـفّـتكن». وكان الأمر يكلف العرائس ما يشبه الاغتصاب من جراء ذلك. أما الرجالُ فينصحون المقبلين على الزواج قائلين: «لا تطيلوا المكوث في الداخل. فضّوهن واخرجوا على

الفور، لأن في الاطالة انتقاصاً من ذكورتكم»، وقد كلّف ذلك الكثيرين عِنَّةً من لهفتهم الى السرعة فما استطاعوا.

«كرزو» يقود أخاه وعروسه الى المضافة بخطى تترك خشخشة في الثلج، حاملاً قنديل الكيروسين ذا الشعلة المرتشعة. فتح الباب ودخل، فدخلا من خلفه. علّق القنديل الى مسمار في الحائط، وانكب على المدفأة يشعلها بخرقة مبللة بالمازوت، معلقة الى سلك طويل، وحين تيقَّن من دبيب اللهب في القاع الصفيحي للمدفأة، انسلَّ خارجاً.

كان الفراش الممدد قرب الموقد مجهزاً على عجل، فاللحاف السميك مكوّم فوقه دون ترتيب، والشرشف القرمزي ملقى قرب الوسادة في إهمال، منتظراً من يقوم ببسطه على الفراش. جلس «بيكاس» على اللحاف تماماً، فبدا عالياً عن الأرض. أشار الي «سينم» لتجلس، فاختارت مكاناً على البساط قرب الموقد، متجهة بقدميها العاريتين صوب الصفيح الذي بدأ يتوهج. وكانت تبدو، في جلستها تلك، كطفل على وشك أن يستلقي ليتلقفه أحد قبل ارتطام ظهره بالأرض. الابتسامة البلهاء تتحول الى هأْهَأة، و«بيكاس» يتفكر في الأمر على نحو من يُقْبل على لعبة. مدّ إصبعه مداعباً خاصرتها فتلوَّتْ مُقهقهةً. نزل عن اللحاف المكوّم زحفاً، وشدَّ غطاء رأسها الموصِليَّ فاهتزت جديلتاها السوداوان. بدا خائفاً قليلاً، أو مُتهيِّباً، لكن سذاجة الفتاة الضاحكة، وخِفَّتها، سهَّلتا عليه إمعانه في اكتشافه الغريب.

لهاثه الغرائزي يرتفع، متستراً بابتسامة كابتسامتها. ينحدر بيده من كفتها الى ثديها فلا تجفل. تنظر الى يده بهأْهَأةٍ تجعل اللعاب يتلألأ في زاوية فمها. أرجعَ يدهُ الى حضنه، وسألها بصوت متقطّع: «أتعرفين لماذا أنت هنا؟»، فردّت الفتاة محدّقة بعينيها الساخرتين: «لنتزوّج». سألها ثانية: «أتعرفين معنى الزواج؟»، فردّت ووجهها على الحال ذاتها: «يعني أن تصبح زوجي». باتت بلاهتها تحيله الى واثق لا يتقطّع الكلام في فمه: «هل أخبرك أحد قصتي؟». ابتسمت من غير أن تفهم السؤال. «من أنا؟» سألها، فردّت: «أنت بيكاس». تمتم: «أعرف أنني بيكاس...»، فقاطعته: «أنت ابن عمي». «أوه» تمتم بيكاس ساخراً من اكتشافها هذا.

مدّ «بيكاس» ساقيه مثلها قرب الموقد، ملامساً بقدمه قدمها في دغدغة خفيفة. الفتاة لا تتوقف عن الهأْهَأة بفم مغلق. بادرها، وهي تنظر الى حركة قدمه: «أتصدقين أنني ولدت اليوم؟». «هأْ. هأْ»، ردت الفتاة. «ولدت

اليوم، وكـبرت حتى صرت رجلاً». «هَأْ. . هَأْ». كان مسترسلاً في دغدغة قدمهـا: «عمـر الانسان، في الأصل، يوم واحد، ومن يعيشون لسنين هم استثناء»، قالها هامساً، وقد توقف عن الدغدغة، غير أن الفتاة بادرت، حال توقُّفه، الى التحرش بقدمه، بغية الاستزادة من هذه اللعبة التي أعجبتها، فاستسلم «بيكاس» لتحرُّشها، مكملاً حديثه: «يوم واحد يكفي. كم عمرك؟ عشرون سنة؟ كنتِ وفَّرْتِ على نفسك مليارات من هذه الهأْهَأَة لو عشتِ يوماً واحداً فقط. لقد مللتُ من نظراتهم الفاحصة في ساعاتٍ، فماذا يحدث لو امتدت هذه النظرات لسنين؟. كل يوم ستقابلين النظراتِ ذاتها من غريب يتشمَّمُكِ كالكلب، قبل أن يطمئن إليك»، واستدرك، كأنما يسأل نفسه: «أين تعرّفتُ على الكلاب؟. كنتُ حاضراً على كل شيء، في مكان ما، ولا يهم أن استقصي ذاكرتي لأعرف المكان ذاك. لقد رأيت الكثير، وهذا يكفي».

الفتاة مسترسلة في دغدغة قدمه بقدمها. التجاعيد تأخذ أمكنة لم تكن قد بلغتها من قبل. لحيته تتصل وتزداد كثافة. الهأْهَأَة تترافق، أحياناً، مع تكتكة خفيفة في صفيح المدفأة، الذي يتمدّد بفعل اللهب، فتتساقط نثارات من قشرتـه الـداخلية المتفحمـة على القـاع. «أعجبتني اللُّفـافـات»، قالها مُسْتَـذْكِـراً، وقـد أرخى رأسـه على كتفـه. «ليتني اصـطحبت علبـة أبي. أتعرفين. .» التفت إليها فرآها تحدّق فيه في وداعه لا استفسار فيها. «أتعرفين أنني ملمٌّ بالاشياء، لكنني افتقر الى الاحساس بطعمها. لقد رأيت من قبل، في مكان ما ـ لن أستقصيه، فأنا متعب ـ من يأكل خبزاً ولحماً، لكنني تذوَّقتهما اليوم فكأنني عرفتهما توّاً، لا من قبل. والمرأة. . رأيتها. أشعر برعشة أسفل المعـدة. الأمعـاء، نعم. لماذا أشعـر برعشـة في الامعـاء؟ لأنني مقبل على تذوُّقها؟». إذ ذاك استدرك تناقضاً ما، فأردف: «يوم واحد يكفي. أن تستمر في التذوّق يعني أن تعيش أكثر. المعرفة تكفي، والاحساس بالطَّعم شواذ في القاعدة».

«هأهأ. . . امي ستطعم الدجاجات غداً، لاني سأبقى هنا». ألقت الفتـاة بكلماتهـا هذه فاستعـاد «بيكـاس» احسـاسه بدغدغة قدمها لقدمه. «الـدجـاجات» ردّد من ورائها، وصاح متفكهاً: «كَـأْ كَـأْ كَـأْ كيك» مقلداً صوت الدجاج، فازداد هرج الفتاة حتى كادت تصدمه برأسها المهتز. قام من جلستـه، ثم احنى ظهره، رافعاً رجله اليمنى عن الارض: «كَـأْكَـأْكَـأْ»، فتشـظّت القهقهـة في فمها مبللاً بلعاب متطاير. «كَـأْكَـأْ كيك» ودار حول

المدفأة. رددت البلهاء بدورها: «كَـأُكَـأُ» واستلقت على ظهرها. جثا «بيكاس» قرب صدرها. ثم جعل ينقرها بأنفه أسفل الثدي الايسر، مثلما تفعل الدجاجة حين تلتقط الحَـبَّ، فارتفعت ساقاها المرتعشتان من الضحك في الهواء.

كان «بيكاس» ماضياً في لهوه حين بادرته البلهاء، وسط القهقهة المبللة بلعابها: «عليك ان تقول كوكو، كوكوو»، فسألها، وقد رفع رأسه عن صدرها: «لماذا؟»، فردت: «لأنك ديك، ولست دجاجة». رفع «بيكاس» حاجبيه في تساؤل ساخر: «وكيف تعرفين انني ديك؟»، ردت الفتاة: للديك خصيتان، وللرجل خصيتان». «أووه. لقد نسيت ذلك»، قالها مبتسمًا، ثم استلقى قربها على ظهره، متكئاً على مرفقيه، وجعل يدغدغ قدمها من جديد.

نظر الى المدفأة لبرهة، ثم التفت اليها فرآها تحدق في قدمه اللاهية. سحب ساقه اليسرى في هدوء حتى اكتملت زاوية حادة في مثلث ضلعاه الساق والفخذ، وقاعدته ارضية الغرفة. انحسر جلبابه عن ركبته في ذلك الوضع، وقد تعمد ان يشده باطراف انامله، خلسة، لينزلق حتى منتصف فخذه. نظر اليها من جديد فرآها تتتبَّع حركته الـمُـفْـتَـضَحة بفم مبتسم مفتوح. رفع يده الى فخده وانحدر بحاشية الجلباب فتجمع في ملتقى الفخذين، اللذين يكسوهما شعر خفيف فوق بشرة لا لون لها الا لون ضوء القنديل، الذي يعلو او يخفت بفعل امتصاص الفتيل السريع حيناً، والبطيء حيناً آخر، للكيروسين.

يتراقص نبضه فيخرج زفيره متقطعاً. المعرفة مُنْجَزَة، لكن نكهة المعرفة ماتزال على مرمى حركة صغيرة من جسده: «ضعي يدك هنا»، واشار بعينيه الى حيث تجمَّع الجلباب فوق ملتقى فخذيه، فمدّت البلهاء يدها المخفورة بَهْأَهَأة خفيفة حتى استقرت في المكان الذي اشار اليه. «ارفعي الجلباب» قالها هامساً، فسحبت يدها في حركة مباغتة، مصحوبة بقهقهة عالية: «كوكووو. . ديك».

كان واضحاً ان البلهاء مستمرة في اللعبة التي بدآها، غير حافلة بزفيره المتقطع. لكن «بيكاس» امسك بيدها، واعادها الى حيث كانت بردّةٍ عصبية لم تبن على وجهه، اذ ذاك هدأت القهقهة، لكن الابتسامة ذاتها ظلت تحوم على فم «سينم»، التي اراحت يدها على ملتقى الفخذين، ولم تسحبها بعد

ذلك. «ارفعي الجلباب» ردد الكلمة مرة ثانية، فشدت البلهاء الجلباب حتى سرّته.

نظر «بيكاس» الى نصفه العاري، ثم التفت الى الفتاة فألفاها محدّقة في اعضائه. دفع يده في خَفَر حتى استقرت على فخذها. بدأ يسحب ثوبها بدوره، لكن الفتاة اعتدلت في جلستها، مطوقة ركبتيها بذراعيها في وضع مضموم، وعيناها لا تفارقان ذلك الظهور الغريب لاستطالات في جسد الرجل. البلاهة تنحسر الى مكمن الفضول. يد «بيكاس» المرتعشة تنذرها بشيء أبعد من لعبة، ووجهه الذي يكتسي صرامة في إقدامه الحائر لا يخفى حتى على دجاجة بلهاء مثلها. همس: «مابك؟»، فلم ترفع عينيها عن نصفه العاري. همس ثانية: «قلتِ للديك خصيتان، وللرجل خصيتان، وانا رجل..». وكأنما استأنست البلهاء بعودة الكلام بعد وجوم متحفز، فندَّت عنها هَأْهَأة خفيفة. «كَأْكَأْ» ارتفع صوت «بيكاس»، عارفاً ان تربُّصه الفجائي كذكر بها قد صعَّب عليه استسلامها كأنثى، فقهقهت البلهاء من معاودة اللعبة.

على «بيكاس» إذاً، ان يعود بإغوائه الى أوَّله. دغدغ خاصرتها فتلوَّت. قلَّد الدجاج من جديد، ناقراً بأنفه على ثدييها فاستلقت. انسلّ بجسده قليلاً قليلاً حتى استقر فوقها، متذرّعاً، في اللعبة، بإمساك ساقيها المتأرجحتين، في الهواء، بين ساقيه. يده اليسرى تستمر في دغدغة الخاصرة، بينما تشد اليمنى الثوب حتى ملتقى الفخذين. اشتداد صخب البلهاء بحركاتها العنيفة من تحت، وبقهقهاتها، جعلها تسهو عن التسلُّل العاري لحيلة اللحم. ساق الرجل تستقر في فرجة بين ساقيها، ثم تشتغل دفعاً بينهما ليتمكن الحوضٍ من حصاره. سكنت البلهاء وقد فاجأها ارتطام صلب بمكان حرصت طويلاً على اخفائه بغريزتها. يد «بيكاس» كانت اسرع من تصوُّرها لما يجري، فقد استقرت على فمها بإحكام، بينما اندفع الحوض في حركته التي استقاها من أوّل اتصال بين الخليقة.

انتهى الامر في ثوان. تهيؤ «بيكاس» جعله سريعاً الى درجة لم يدرك معها ما جرى، لكنه في استلقائه قربها، حين استقرَّ خائراً على البساط بحركة دفع قوية من يدها، أحسَّ فضولَ الجسدِ السرمديِّ: اكتشاف ما لن يُكتشف قط، وقد قطعت البلهاء عليه ذلك شبه مولولة: «دم.. دم..»، رافعة يدها

اليمنى الى مستوى عينيها، فصرخ بملء فمه: «اسكتي»، فخيَّم عليها وجوم صلب، ويدها ماتزال في الهواء.

كان ثمت حلة وإبريقان في زاوية قرب الباب، حيث مساحة دائرية ضيقة من الاسمنت، ذات انحدار يؤدي إلى مَسْرَب يمضي خارجاً. والزاوية تلك مخصّصة للاغتسال عادة. أحضر «بيكاس» الأبريق ووضعه على سطح المدفأة، ثم جلس قرب «سينم» التي بدت خائفة مرتعشة. لم يقُلْ لها شيئاً، بل مسّ براحته كتفها، وربت عليها مطمئناً. بعد دقائق جسّ «بيكاس» الإبريق. أنزله، ومدّه إليها: «اغتسلي هناك»، وأشار الى زاوية الباب. تناولت البلهاء الابريق ومضت إلى الدائرة الاسمنتية. رفعت ثوبها حتى الخاصرة ثم قرفصت، وجعلت تغسل نفسها. تركت الابريق هناك فمضى إليه «بيكاس»، وفعل ما فعلته، مجفّفاً ما بين فخذيه بجلبابه كما جفَّفت الفتاة نفسها.

حين صارا جالسين حول المدفأة من جديد، بادرها: «هاتي يدك» فمدَّتها إليه. تحسَّسي هذه الاسنان»، وفتح فمه على آخره. «بدأت تتخلخل» قالها حين استعادت الفتاة يدها، فأجابته وهي تُهأهِيء من جديد: «أسنان أبي تتخلخل. إذا خلعت أسنانك ارْمِها الى الفضاء وغمض العيني». سألها بمرح: «ولماذا عليّ أن أفعل ذلك؟»، فردّت: «حتى لا يأخذها الشيطان. إرْمِها إلى الفضاء مُغمض العينين». همّ أن يسألها أكثر في الأمر، فرآها تمدّ يدها، خلسة، تحت ثوبها، فسحب يدها محتدّاً: «إنسي يا سينم. كل النساء يجري لهنّ ذلك»، وزحف متراجعاً حتى استقرَّ على الفراش، فتمدَّد.

لأول مرّة يحسّ «بيكاس» بازدحام غير متجانس من المشاهدات في ذاكرته. يد أمه التي مرّت على وجهه في حنان، ثم في حيرة، بعد ذلك، مستقرئةً نموّاً لا تجد إليه فهمًا. كبش ينهار بضربة من سكين تلتمع شفرته تحت ضوء الشمس. أين رأى ذلك؟ رجال كُثُر يقفون على باب موصد يذوب رويداً رويداً كشحم فوق النار، ليبدو رجال آخرون، من جهة الداخل، يقفون الوقفة ذاتها. «أبي»... رأى نفسه راكضاً ليقتحم الواقفين، صارخاً «أبي». كرة كبيرة بيضاء تتدحرج على مستوى أعلى من رؤوس الرجال، ثم تنحدر صوبه في هدوء. يرفع يديه ليصدَّها متشبثاً بالأرض بقدميه. يزداد ثقل الدفع و«بيكاس» يصرخ: «أبي». الأب على مقربة منه، خارج الجمعين المتقابلين من

الرجال، الذين يفصلهم الباب الذائب. يعض «بيكاس» على أسنانه لاهثاً، وينظر إلى أبيه ليقول في حشرجة: «ظننتك في وسطهم يا أبي».

«ظننتك»، كان يردّدها لنفسه في استلقائه على الفراش، بما يشبه نوبة حُـمّـى. بعد قليل تراخى جسده المُجْهَد فرفع رأسه لينظر إلى عروسه، فرآها تحدّق فيه. همس: «كَأْكَأْ» مداعباً، فلم تزددْ إلّا وجوماً. استند على مرفقيه، سائلاً: «ما بك يا سينم»، فأشارت بإصبعها إليه، رفع ظاهر يده بطريقة مائلة الى مستوى عينيه، لينعكس الضوء عليها، مدركاً من وجوم الفتاة ما كان يحسّ به في أعماقه، فرآها ملآى بالتغضّنات، وقد تقوّست أصابعه فلا تستقيم برغم جهده. «أووه» همس، «اللعبة تكتمل».

رعشة فزع عامضة تعتريه. كان يبدو واثقاً من دورته الغريبة، لكن ثقته تتزعزع في كلّ مرة يرى الحيرة ذاتها على وجه أحد ما. فترات سلامه هي ان يستسلم المراقب، قبل عودة المراقِب، نفسه، الى حيرة جديدة من زمنٍ لا يراه إلّا على جسد «بيكاس». «ما همَّ» يقولها لنفسه، «لو وضعوا خصيتيَّ في كفّة ميزان، ووضعوا سنواتهم في الكفة الاخرى، لرجحت كفّتي». اذ ذاك رفع رأسه عن الوسادة في وهن: «أوه، سينم»، ناداها ولم يكن من داع لمناداتها، فهي لا تفارق وجهه بعينيها، : «كم مرة يضاجع الرجل المرأة في حياته؟»، ولما ظلت ساكتة، اردف: «في وهنه سينسى كل شيء، ضارعاً الى دقات قلبه حتى لا تخونه». ثم اشار اليها: «اقتربي»، فاقتربت، زحفاً، من الفراش. قال: «ارفعي ثوبـك»، فانتابتها هأهأة خافتة لا طعم لها. «ارفعيه. ارفعيه» ردّد الكلمة آمراً، فرفعته البلهاء حتى ثدييها. ظلّ يحدّق بعنق ملتوية الى ملتقى الفخذين، هامساً: «هذا هو. هذا هو».

نُدَفُ الثلج تتلاحق في ساحة البيت بعد سكون قصير. الليل المرتجف كطريدة في شبكة رمادية، يلوح مضاء في هذه الجهة من جسده المستطيل، أو في تلك، بوهج بارد يتضوَّع كالرائحة من الارض. غرفة الملّا وزوجه، حيث تكـوّم الاولاد بعضهم قرب بعض تحت الاغـطية، ترسـل لألأة باهتـة من النافذة، ومن ثقب المفتاح الكبير، الذي نسي أحدهم أن يسدّه بخرقة، حتى لا يتسلل منه الهواء. باب الزريبة مغلق على بعضه اغنام وبقرتين، لكن دفئاً خفيفاً ينبعث مما يسمّى «غرفة التنّور»، المسقّفة بصاج عارٍ. ذلك ما يمكن أن تحس به أية روح عابرة في ذلك الوقت، فوق الساحة؛ روح كلب أو إنسان.

بصرير لا يسمعه إلّا من يكون قريباً يُفتحُ باب غرفة «بيكاس». شبح يستند بظهره الى عارضة الباب ليرتدي حذاءه، ثم يوصد الباب خلفه بصرير لا يسمعه إلّا من يكون قريباً. يتقدم الشبح في الساحة ساحباً قدميه وراءه، في خشخشة عالية، متوجّهاً صوب بوّابة السور، وحين يدركها يستند عليها قليلاً، كمن يلتقط أنفاسه. يرفع المزلاج ويسحبه يميناً فتتحرَّر الدّفة اليسرى من البـوّابـة. يجتارها ويردّ الدفّة خلفه، ثم يمضي شمالاً ليغيب في الشبكة الرمادية المنسوجة من الليل والثلج.

قال «بيكـاس» للبلهـاء، قبـل خروجـه بدقـائق من الغـرفة: «هاتي عبـاءتي»، وكـان يشـير الى العبـاءة المبطنة بالفرو، التي تكوّمت حيث كانا يلهوان. وهي عباءة استعارها من والده على كل حال، في يوم لم يكن كافياً لأن يشتغل خيّاط على مقاساته المحيِّرة. وحين حملت الفتاة العباءة اليه، وقف في عياء، سائلاً ان تساعده في ارتدائها، ولما اكتمل له ذلك جعل يتفرَّس فيها من وراء حاجبيه المـرتخيين. «سينم. . اجلسي»، فجلست الفتاة بآلية مبهمة. كشف العبـاءة، بيديه، عن جلبـابـه، في الصدر حتى القدمين، هامساً: «تشمَّميني من الاسفل الى الاعلى». بدت الفتاة واجمة، في مزيج من الحيرة والبلاهة، فأمسك برأسها ضاغطاً عليه الى اسفل: «ابدأي من هنا»، وكاد رأسها أن يلامس البساط من ضغطه.

عادت الهأهأة الى فم البلهاء وهي تشمه من اسفل الى اعلى، ككلب وديع، ثم تنحدر من أعلى الى أسفل، في لعبة لن تنتهي. أوقفها وهو يضمُّ ذقنهـا براحـة يده، ثم يرفع وجهها اليه، قائلاً: «أوصدي الباب خلفي»، فأومأت «سينم» برأسها إيجاباً في راحته. مضى الى الباب وفتحه فاقتحمت وجهـه لفحـةٌ كريمة من الثلج الكريم. استند الى عارضة الباب، وارتدى حذاءه الذي بدا ضيّقاً، ثم أغلق الباب خلفه منسلاً الى قدره.

آثار الخطى تـمَّـحي من خلفه في الثلج العجول، والبيوت التي تبدو على مرمى خطوات تختفي بعد عبورها بخطوات. الجهة الشمالية نفقٌ تحدّد العين دائرته في الظلام. هذا ما يحسّه «بيكاس» الذي يزداد وهناً وإبطاءً. يفتح ذراعـيه على وسعهـما فلا يلمس أيَّ جدار للدائـرة اللولبية. إمض إمض «بيكاس». لا مرئياتٌ فضولية تواكب خشخشة قدميه في الثلج، وإذ يقف ليتنصَّت اليهـا، تعود الى مزيجها الظلاميِّ الصامت. شبكة واحدة، عريقة تضمُّ جسده الى العراء. كم يحسُّ بضيقه وبتّساعه: هذه، إذاً، هي الكرة

المنفلتـة من ماضيه؛ كرة اليوم الـواحـد المعلوم بفجره، وصباحه، وظهره، وعصره، ومغيبـه، ومسـائـه، وليله؛ كرة الـلامعلوم؛ الكرة الجاثية بعينين مغمضتين خشوعاً امام معرفة تعبر الجهة الاخرى على ظهر حمار. «والمذاق؟» يسأل «بيكاس» نفسه، ليردّ: «فتحت عينيّ فرأيت كل ما اعرفه، اما المذاق فليس الا هذا الـوهن». «عَمْ. . عَمْ» تلك كانت حركة فمه الذي يقضم الهواء والثلج. «عَمْ. . عَمْ» يصرخ «بيكاس» مقضقضاً بأسنانه، كأنما يلتهم اللامرئي، دائراً حول نفسه، ويداه تتشبّثان بغده الذي لن يأتي.

«خاتي»، أخت الملاّ، كانت تسرد، في الوقت ذاته، الامر لزوجها في تقـطُّع، بحسب ما رأت وما سمعت، وكان الزوج الساذج يصغي اليها في ذهول. وبيت «خهاتي»، الذي يقع على مقربة من بيت اخيها، لم يكن قد استكمـل الاعـداد للنـوم برغم تقـاوم الليل. فالأب، الذي حاول جهده ليستحصل من الاولاد على مواعيد الاكل والنوم، اخفق في ذلك، ثم استسلم اليهم، فبات يخبرهم باقاصيص اكثر بساطة منه، ينسى خواتيمها فيلحّ عليه الاولاد، او يخترعـون ما يجدونـه منـاسبـاً، ليخـرجـوا الاب من ورطتـه، فيحـاجـجهم، بدوره، كطفـل، في أن ما يقـولونه غير مقنع. اذ ذاك تدور الدائرة. يقول الاب: «وجد الكلب زورقاً وهو مشرف على الغرق، فتشبَّث به»، فيسأله الاطفال: «وأين كان الزورق؟». يرد الاب: «كان هناك، في النهر. . . انتم تعرفن»، فيردّ الاولاد صائحين: «سقط الكلب في البئر، وليس في النهر، فيستدرك الاب: «انا آسف. تشبَّث الكلب بالدّلو».

فيضيف الاولاد: «بـالـدّلو الذي ألقى الثلب به إليه»، فيهزُّ رأسه: «نعم. نعم. الثعلب ألقى اليه بالـدّلو»، فينظر الاولاد بعضهم الى بعض مقهقهـين: «أيُّ ثعلب؟ الكلب سقط في البئر سهواً، ولم يكن هنالك من ثعلب». فيحتدُّ الرجل البسيط قليلاً: «ولماذا تسألونني عن قصص تعرفونها اكثر مني؟»، فيجيبونه: «لنتأكّد ممّا تقوله أمُّنا عنك». ويسألهم: «ماذا تقول أُمُّكم عني؟»، فيردون: «غبي، خصية قنفذ»، وتكون ردّة فعل الرجل ان ينهض كالبهلول، ملوّحـاً في الهواء بحطّته التي ينتزعها عن رأسه، دون أن يهوي بها على أحد. أما الاولاد فيبقون جالسين، مصفقين لحركاته المضحكة، وتهديده الذي لا يخيفهم قط.

كانت «خاتي» تسرد ما يفوق فهم زوجها، الذي اقتصرت ردّات فعله على «واو»، «أووه»، «هـاي هاي»، بينما راح الاطفال يردّون عن وجوههم

الاغـطية، مادّين ألسنتهم سخرية من خلف ظهر أبيهم. «خاتي» تراهم، لكنها مسترسلة في شرح ما لن يشرحه أحد، بحركات من يدها، وبأنصاف كلمات توحي ببلبلتهـا اكثـر مما توحي بفهمها. وحين تُخْفق، أو تشعر بأنها أخفقت في جعل هذا الأبلة يلمس الذي تقوله مَلْمَس إدراك، تنتفض صارخة بالاولاد الـلاهـين: «فليتبـوَّل عليكم عزرائيل»، ثم تقـذفهم بعلبة زوجها النحاسية، التي تقشّرت طبقة القصدير عن حوافها، فترتطم بالحائط، لينتثر على الوسائد تبغها المطحون.

«صدّقني يا حشمو» تقولها «خاتي» لزوجها، بعد برهة الغضب العابرة: «صـدِّقني أن قلبي كان يحس بانقباض منذ البارحة»، وتصمت لتتفرّس في وجهـه المنتبه. «البارحة. نعم. كانت دجاجة بيت رَمُّو راقدة لتبيض. لماذا اختـارت هذا الـوقت البارد لتبيض؟ الله اعلم. قَأْقَأَت طويلاً وهي تروح وتجيء من طرف السـاحـة الى طرفها، وسط الثلج، وكان ابن رَمُّو الأعور يتبعها، بدوره، من طرف الساحة الى طرفها. ابن رَمُّو جائع. طلب من أمّه كسرة خبز عليها سمن مُحلًّى كالذي يأكله ابن حُوْبي فنهرته، صارخة به: اتبع الدجاجة ولك بيضتها». توقفت «خاتي» قليلاً لتسأل زوجها: «اتصدقني ان قلبي أحسّ بانقبـاض حين اخبرتني زوج رمُّو بذلك؟»، فهز «حشمو» رأسه بحركة سريعة الى اعلى والى اسفل. «اين وصلنا؟» سألت «خاتي» نفسها، واسـترسلت من جديد: «نعم. قالت زوج رمُّو ان ابنها تبع الدجاجة حتى دخلت القن، ثم انتظر اكثر من ساعة فلم يظهر شيء. ذهب الى امه صارخاً: أنـا جوعان. لن انتظر هذه الدجاجة التي لن تبيض. استغربت الام ذلك التأخير، فحملت المكنسة متجهة الى القن ذي الباب الضيق الشبيه بفتحة التنّـور. حوَّمت بالمكنسـة داخل القن فخرجت الدجاجة مذعورة». رفعت «خاتي» اصبعها الى مستوى حاجبيها، سائلة زوجها: «اتعرف ماذا رأت؟»، فرد الـرجـل: «لا». أضـافت المرأة: «رأت طرف البيضة ظاهراً من مؤخرة الدجاجة. الامر واضح: لقد اصابها عسر في الطرح. وفي هذه الحال ـ قالت زوج رمُّو ـ ان عليها ان تكسر البيضة، وتستخرجها باصبعها حتى لا تموت الدجاجة. حالات كثيرة كهذه ذهب ضحيتها دجاج ثمين. ركضت مع ابنها لتلتقط الدجاجة المذعورة، وحين حاصراها في زاوية السور الطيني طارت، بقدرة قادر، حتى بلغت اعلى السور. جاءت زوج رمُّو بعصا طويلة لتتدبَّر نزول الـدجـاجـة فلم تفلح، بفعـل انتقـالهـا السريع من جهة الى جهة.

استسلمت هي وابنها الى الامر، ومضيا الى داخل البيت قبل ان يتجمَّدا، عسى أن تنـزل الـدجاجة بمحض إرادتها» . وسكتت «خاتي» لتضيف بعد تثاؤب : «أتعرف ما جرى؟ لقد وجدت المرأةُ الدجاجة متجلدة، بعدئذ، فوق السور. ماتت، ولم يخرج من البيضة الا قسم يسيُر» .

اللهب يترجرج في موقد الملاّ «بنياف» . نام الاولاد، ونامت زوجُهُ، او تظاهـروا بالنوم ، أما هو فقد فرد امامه كدسة من دفاتره، هرباً من براهين وشروح لابد منها في غده الذي يحسُّه جالساً مثله قرب الموقد، مادّاً يديه وساقيه الى الدفـء، وعلى وجهه ابتسامة خبث أكيد.

الارقام تتزاحم في خطوط عمودية على الورق المسطّر، وإذ لا ينتهي حاصل الجمع في صفحة ما، فثمت سهم يشير الى الصفحة التالية. ارقام، وسهـام صغيرة من اثر ضربةٍ حنونٍ لغنىً سحيق. كل يوم يجرف سنة من سنوات دفاتر «بيناڤ»، وكل دفتر يجرف محاصيل سهول بأكملها.

لو قُيِّض للقرى ان تخرج على صورة لم تلتقطها عدسة، لخرجت على شكل الارقام التي دوَّنها الملاّ. بيوت واضحة متلاصقة، واخرى لم يبق منها الا جدران خربـة من أثـر المِمْحاة. تدوين بقلم الرصاص يحفر أخاديد عميقة كبقـايا جداول جافة على الصفحات، وأيام الملاّ، وحدها، هي التي تتعثر بالاخاديد. انه يصغي اليها؛ يصغي الى رقم هنا فيسمع نباح كلب، والى رقم هنـاك فيسمع هدير آلات الحصاد. وبين رقم هنا ورقم هناك يرتفع شجار القرويين، الذين يتسابقون الى اطلاق اغنامهم على أسواق القمح بعد حَصْد السنـابـل. وحـين يصـل الملاّ بعينيه المتفحصتين الى الخطوط الافقية تحت الارقـام، حيث تلي تلك الخـطوط محصِّـلات الجمـع او الـطَّرح، يقف ولا يجاوزها. الحاصل الحسابـيُّ امتحانٌ عادةً.

الرجل يحسب ليمتحن مصيره. الارقام هي امتحان الحاضر والمستقبل معـاً: الخسـارة، او الـربـح، في الحـاضر، يُـلْزِمـانـكَ برسم مؤشر آخـر للخـطوات: زيادة ما زاد، او تعـويض ما نقصَ. لعبـة على الورق، بغير تخطيط، تصبـح تخطيطاً، فيما بعـد، لأعـمارٍ، وبيوتٍ، واقتنـاء حيوانات، واطلاق نار ايضاً، بغير خوف، على القائمقام اذا اقتضى الامر.

«لو زادت هنا» يتمتم الملاّ الناظر الى ارقامه بعينيه اللتين زيَّنهما كحل كثيف. ورجال الشمال، مثل النساء، يجعلون على عيونهم الكحل اذا هطل الثلج، اتقاء من البياض المتلألىء الذي يعشِي العيون. «لو زادت هنا» يكرر،

«آه، لو نقصت هنا، لجعلت المساجد تركض كالاوز الغضبان من هذه الجهة الى تلك الجهة من مدينة قامشلو، ولنقلت المخفر الى قرب بيتي، لتسألني الشرطة مَنْ تعتقلُ، ومن تطلق سراحه»، ثم يرفع راحة يده ليمسح خيطاً أسود ساخناً من مزيج الدمع والكحل، انحدر من عينه اليسرى، وغاب في ثنايا لحيته.

شبح «بيكاس» يتخبط في الشبكة الرمادية للّيل والثلج، محاولاً ان يتقرىّ بيديه ذلك الافق الدائري الذي لا يبعد اكثر من خطوتين. يجثو غير قادر على التقدم اكثر، وقد أغمض عينيه، مبتسمًا، على صورة «سينم» البلهاء. «لماذا اختارها ابي؟، كنت اريد مَنْ أتحدّث اليه»، وكأنما استدرك سؤاله العقيم. فبرّر الامر لنفسه: «ومن يمكن ان أتحدَّث اليه غير هذه الضاحكة؟. كل شيء كان كما ينبغي، إلاّ ان اولد في يوم كهذا»، ثم رفع عباءته حتى قمة رأسه العاري إلاّ من شعر يكاد يصل الى كتفيه، في خِصَلٍ متنافرة مبتلة.

طوى «بيكاس» جذعه حتى لامس صدرُهُ فخذيه، مستسلمًا في جلوسه الى اهتزاز زُحافةٍ تترجرج كخدر ساحر، لم تكن إلاّ زحافة نفسه، التي تقودها نساء يشبهن «سينم» على الثلج. لكنه رفع رأسه بغتة، على أثر جلبة تناهت اليه، ناظراً بعين واحدة من شق العباءة التي تغطى بها، فرأى جمعاً من الرجال يحيط به، ومن خلفهم بغال زرقاء مضيئة، كأنما انحدر ضوءٌ من مكان ما، خفيٍّ مؤنس، فاستقر على الحيوانات وحدها. اما الرجال فكانوا معتمين، تبين لحاهم الطويلة شعثاء بنفسجية من اثر الضوء المتلألىء خلف ظهورهم. «وصلتُ إذاً» تمتم الى نفسه، ثم شدّ لجاماً خفياً بيديه كمن يقود عربة، فتباعدت الحلقة المكوّنة من الرجال والبغال، مفسحةً ممرّاً لنساء «بيكاس» اللواتي يتقدَّمْنَ بزُحافته.

يرتعش الضوء في نافذة الملاّ «بيناف»، ابن كوجري الملقبة بأمّ العشرين ولداً، ثم ينطفىء، فتُعتم نُدَفُ الثلج التي كانت تُرى مضاءة خارج النافذة. أما غرفة «بيكاس» وعروسه، فمازالت على حالها من الضوء الرجراج، الذي يضيء النُدَفَ الضاحكة على بعد شبر منها. وفي الداخل لم تزل «سينم» البلهاء، بكامل ثيابها، تتمدَّد مريحة قدميها امام المدفأة.

لم تسأل البلهاء لماذا لم يعد زوجها. كانت في شغل آخر من أشغال ذاكرتها التي لا تلمس إلاّ الاشباح الصغيرة لأيامها المتساوية الصغيرة، وقد

حاولت بكثير من اللاترابط، ان تعقد المواقف المتشابهة التي مرّت بجسدها، نزولاً من ذلك الالم الذي سبَّبه «بيكاس» باقتحامه الساخن لسـرِّها المتوارث، من اول جدَّة الى آخـر أمّ في هذا التـاريخ الخجول، حتى محاولة «حيندر» صاحب الثور المزواج.

كانت في الثانية عشرة حين دلف «حيندر» بثوره الى ساحة دارهم، التي لم تكن مسوَّرة آنذاك، بل ترسم حدودها اسواق طويلة لنباتات الذرة. كثيرون يستـأجـرون ثور «حيندر» ليلقّح بقراتهم، مقابل مائة قرش مؤلّفة من قطعة معـدنية واحدة، ثقيلة، هي مزيج من الفضة بثلاثة ارباع مقابل رُبعٍ من معدن رخيص. وقد اختلط الامر، مراراً، على الحكومة التي تصكّ النقود، فصكّت المائة قرش فضة خالصة، ولم يتم تدارك الامر الا بعد وقت طويل، حين كادت هذه العملة ان تختفي من البـلاد بتهريبها، في صهاريج، عبر الحدود، لان القطعة الواحدة كانت تساوي اكثر من قيمتها المقدرة بعد ارتفاع سعر الفضة. واذ ذاك، وبعد تأخُّرٍ أتى على ما أتى عليه، استبدلت الحكومة تلك القطعة النقدية بما يشابهها حجّماً من النيكل الرخيص، لكن سعر البيضة الواحدة ارتفع، في البلاد الى ما يعادل الضعفين.

دخل «حيندر» بثوره الذي يتولّى قيادَهُ بحبل، صارخاً: «يا أهل البيت، أين بقـرتكم؟»، فردّت عليه ام «سينم»، من الداخلِ، وقد غطى العجين ساعـديها حتى المرفقين: «حيندر، انا مشغولة، ستدلّك سينم»، وصاحت بالفتـاة التي تصب المـاء، من ابريق، على الطحين: «خذيه الى الحظيرة»، فهرولت الى الخارج والَهأْهَأَةُ لا تفارقها.

كان واضـحـاً أنَّ ما من احد في البيت لتكلِّفه الام بالمهمة غير البلهاء، التي دلّت «حيندر» بإشارات تهريجية من يدها الى حيث تنتظر البقرة الصاخبة، إذ شَغَلَتِ الدار، وأهلها، بخوارها المتواصل، قبل أن يستقرّوا على استئجار ثور «حيندر» للمهمة الكفيلة باعادة التوازن الى هذه الحلوب الوديعة عادة. وحين دلف الرجل بثوره الى الحظيرة ذات السقف الواطىء، تبعته الفتاة. وقد قامت، غريزياً، بحصر ثلاث غنماتٍ في الزاوية لئلاّ يجفلن من دخول الثور الفجائيّ الى مملكتهنّ الآمنة، فاردةً ذراعيها على امتداد جذعها المنحني.

دار «حيندر» حول البقرة الهادئة بثوره، يحثّه حثّاً خفيفاً على الامر الذي سينال عليه مائة قرش. بدت عينا البقرة صافيتينِ تماماً، بل ثمَّت وَلَهٌ ما في زاويتيهـا المبتسمتـين. بطن الثـور تشهد استطالةً ما، بيضاء رفيعة، تزداد

صلابة شيئاً فشيئاً، والفتاة تنظر الى تلك الاستطالة بمرح صبيانـيّ. رفع الثور قائمتيه الاماميتين فاستقرّتا على ظهر البقرة. «حيندر» مسترسل في التحديق بدوره، لكن بفكٍّ بدا مرتخياً. نظر الى الفتاة ثم انزلق بيده اليسرى من بطنه الى ما دونها، فاسـترعت الحركة نظرها، ثمت انتفاخ تحت جلباب «حيندر» الـذي انعقـد على وسـطه حزام جلدي عريض. ابتسم بخبث فهَـأْهَأَتْ. همس: «تعـالي»، فاقـتربت. حمل يدها، في حركة عجولة بفعل استثارته، واستقـرّ بها تحت جلبابه الذي رفع طرفه. ضغط بيدها على ملتقى فخذيه فضغطت دون تذمُّر.

طغت حركة الثور البهيمية على لهاث «حيندر»، وحين وثب الثور بعيداً عن البقـرة، سلَّت الفتاة يدها، بغتة، وقد داهمها انفجار ساخن، تصحبه تشنّجات وسّعت قبضتها المضمومة خفقة بعد خفقة. آنئذ سحب «حيندر» حطّته الملقاة على كتفه. مسح يد الفتاة في سرعة، واعاد الحطّة الى كتفه ثانية، ثم خرج بثوره على عجل.

قد تعتمل اشارات كثيرةٍ من هذا النوع في الذاكرة الرخوة لـ «سينم»، لكنها لا تمسّ الا اكثرها جسارةً. فهي لن تقف امام مشهد التصاق «شيخو»، ابن «سِـيْـدَري»، بها من الخلف دائمًا، كلّما سنحت له فرصة للامساك بها وهي ترفع الدلو من البئر؛ ولا أمام مشهد «بَكْرُو رَشْ» وهو يرفع جلبابه ليريها شيئاً نافراً يشبه ما تراه في الكلاب الحائمة، بعضها حول بعض، قرب زريبة «حمزة جَكَر». كان ذلك لهواً، أو ما يشبه اللهو، مروراً بقريناتها، اللواتي كُنَّ يتباهين بنمو الشعر على عاناتهن، صائحات: «فَـلْنَـرَ ما تملك سينم»، وهن يعرّين أسفلها، في هجوم لا تملك البلهاء ردّه، وصولاً الى الفقيه «سُمُّو»، الذي كان معلّم الصِّبْيَةِ في تعليم القراءة. وهم يدعون أرباب الكتاتيب، عادة، بلقب «فقيه»: «جزء عمَّ. . يـٰسن» إضافة الى السُّـوَر القصار، التي يلوكها لسانه الآلي في لُكنةٍ لا زمان لها، والبلهاء لا تجيد نطق حرفين مما يقول.

انها لا تنسى «سُمُّو» ذا البؤبؤين الابيضين. يبدو كأعمى، لكنه يتقن، عن قُرب، قراءة أعمق أعماق صبي أو صبيَّة. لقد ارتأى أبواها أن يرسلاها اليه مع مصحف ذي غلاف ذهبي، علّها تتمكن من الامساك بخيط واحد من خيوط ذاكرتها المتطايرة كرذاذ ماءٍ منحدرٍ من مزراب، او لعلَّ تسكنها روح اخرى، تليق بفتاة مُـقْدمةٍ على سنتها الرابعة عشرة، لتتدبَّر ـ كما تتدبَّر قريناتها ـ مُـهْلة نُضج حكيمة تعرف الانثى فيها كيف تبوح بما يمكن البوح به، وتخفي

ما ينبغي اخفاؤه؛ كيف تمزج الدلال بالحذاقة، والذكاء بالخفر؛ كيف تتحاشى النظر الى عيني ذكر، وتتفرسه اذا سها؛ وأخيراً، أن تبدو رقيبَ حِكمةٍ على البيت الذي سيغدو، ذات يوم، بيتها وهي في كَنَفِ بعلٍ. لكن هيهات مع «سينم». لقد أخَّرها «سُمُّو» مراراً من العودة الى البيت، ليقاصص قُصُورها بعصاه الخيزران. «سمُّو» يقاصص كلَّ متأخرٍ في الاستذكار، أو الفهم، بعد انتهاء ساعات الدَّرس. يختار من الصِّبيبة أقواهم ليمسك بقدميّ الضَّحية، حتى يتمكن من جلدهما، والآباء يفرحون لصرامته.

في الأيام الاخيرة من الشهرين المُرتَجلَين للتعليم، تعود «سينم» متأخرة على نحو بات يتوقّعه أبواها. وهي ترجع حَجْلاً كلَّ مرَّة. لا تكاد قدمها تلمس الارض حتى ترتفع في أَلِم من أثر الضرب بالخيزرانة. غير أنها باتت تعود، قبل ثمانية أيام، تحديداً، من إقفال الوكر العاري، المخصص لتعليم لغة مُحْكمةٍ بالتلقين السّماعي، ماشية في خِفَّة لا أثر فيها لألـمٍ، برغم تأخُّرها.

لم يكن على أحد أن يفهم الامر عداها، فالقصاص يُرفعُ عنها بثمن يحدده الفقيه «سمّو». وقد صار «سمّو» لا يحتفظ بصبيّ قوي للامساك برجلي ضحيته ليجلدهما على مهل. يطلب منها وحدها ان تبقى، عابساً على صورة يعتقد الصِّبْيَة معها ان تلك الغرفة العارية ستتشظّى بعد قليل: جداران الى جهنم، وجداران الى الجنّة، أما السقف فسيظل على حاله، واقفاً في الهواء، محمولاً على ألسنة السحالي التي تتوالد بين الدعامات الخشبية كحروف كُتُبهم. وكم من صغار تلك السحالي كان يتساقط على الصفحات المفتوحة، او على حجُورهم، وهم جالسون، فيدبّ فيهم عويلٌ أبكم تلجمه خيزرانة الفقيه، المرتفعة كصارية ستنقذ العالم.

تتأخَّر «سينم» غير مستاءة الآن، مادامت تُرضي الفقية بثمن لا تحسّ له وزناً؛ فلو طلبه، منذ البداية، لأجابته حتى توفّر على ذهنها البليد عقاباً يشعل قدميها بألم عبقريّ. يقول الفقية: «ارفعي ساقيك عالياً» فترفعهما. يضع الخيزرانة جانباً، ويشدّها الى وسطه: «هذا عقابك الجديد»، ثم يلمس جسدها، من ملتقاه الساخن بضرب ساخن لطيف من شيء لا تراه الفتاة، بل تحسه من انحناءة الفقية وتقوّسه، وهو يخور خوار عجل أمسكه شخص ما من فَكَّيْه.

مرت أربعة أيام دون أن يأخذ «سمُّو» من جسدها إلاّ ظاهره الانثوي،

حتى لفتت زوج الملاّ «بيناف» أمَّها، قبل مولد «بيكاس» بزمن طويل: «ألا ترين ثديي ابنتك؟»، «وما بهما؟» ردت أم «سينم». «يكبران على نحو. . .»، فذُهلت المـرأة من ملاحظة زوج أخي زوجها: «يا لله. لِمَ لَمْ أنتبه؟ «سينم» صرختْ بها، فتقدمت الفتاة والهَأْهَأة لا تفارقها. «من يلعب بهما؟»، واشارت الى ثدييها.

النسـاء يتشمَّمْن نمـو الأثـداء لدى المـراهقات، اذا زاد عن حدّه. يتشمَّمْن الانامل الصلبة للـذَّكَـر في أثر غير مرئي. الاثداء تكبر من هبوب رائحة الذكر عليها. رياح الـذَّكَـر. رياح الرياح. والبلهاء تنظر الى صدرها في ذهـول مبتسم، فتلتقط ذهـولهـا صفعـة تلقي بها أبعـد من الـذهـول: «مَنْ. . . ؟؟»، وتردّ البلهاء: «سمُّو»، مُلقيةً بالإسم وهي في دوارٍ وطنيـن. يد «سمّو» الفقيه كانت تعبث بصدرها. انها ترى الصورة الواضحة لأصابع معقوفة تنتهي بأظافر طويلة، مفلطحة، تشبه أصابع الاقدام، وهي لا تملك إلّا أن تشير الى ما تراه: «يد سمُّو». وقد ذبح أخوها «بَهْرَم» ذلك الفقيه من الوريد الى الويد، دون ان تأبه الناس، او الحكومة، بما جرى.

أربعـة أيام مضت على الجثـة في ذلـك الوكر الطيني، غير المطلي من الـداخـل بالجـير. الصِّـبْـيَة يأتون صباحاً فيلقون نظرة على الباب المغلق، ويعودون ادراجهم. فرح غامر يعلو وجوههم، وقد أنقذهم صمت الباب من ساعات القراءة المزروعة، كحقل، بالخيزرانات.

أربعـة أيام، والصبية يتواطأون ضد الجثة في صمت. فالطوال منهم يتمكّنون من رؤية جسد نفخـهُ القيـظُ كما ينفخ الكبار بالـمِـنْفاخ دواليب درّاجاتهم، عبر كوَّة خلفية ذات شبك معدني صدىء لردّ الذباب. انهم يلقون حقائبهم جانباً، ويتبوَّلون على الحيطان، ثم يرجعون الى بيوتهم، فلا يسألهم الكبار المشغولون ماذا تعلَّـموا في نهارهم. ما من احد يعرف كيف تم العثور على الفقيه الضـائـع في صحراء غرفته. كانت الجثة ملآى بالسحالي، التي تتقافز هاربة من بين ضلوعه المهترئة. وقد رمى الطيبون عليه بعض اكياس القُنَّب ليستروه، قبل دفنه في مقبرة «الهلالية». و«الهلالية» ضاحية، يفصلها عن مدينـة «قـامشلو» دغـل من أشجار الصفصاف والكينا، ومجرى طينـيّ يسمى نهراً، تترعـرع فيه السلطعـونـات، والحنكليسات، التي تشق أفخاذ الـصِّـبْية السابحين فيه بظهورها المنشارية.

«سينم» مستلقية امام المدفأة، وقد اتّـكأت بمرفقها على الوسادة التي

اتّكـأ عليها «بيكاس» قبل ان يغادر الغرفة. ذاكرتها تتهشّم وتومض كشرر باهت، مثل خشبة رقيقة تحترق فتتفتّت. الرماد هو الصورة المُـحْـكَمة التي تلتقطها عدسة ما، يقف خلفها شبح يغطي رأسه بكيس أسود؛ رماد البلاهة الحافل بالقهقهة. «سينم... انظري» يرتفع صوتها هي في صمت الغرفة، مبلّلاً بلعاب متطاير. ترفع نفسها عن الوسادة لتستوي جالسة امام كوّة المدفأة ذات الستار الزجاجي السميك: لهب يلعق اللهب بألسنة زرقاء، وبرتقالية، كجـروٍ جهنّميّ ينظّف فروه من أثر شجار مع جروٍ آخر. غضب يتدلّى كلحية أبيهـا، وسروال فضفاض، كسروال أُمّها الطويل حتى عقبيها، يرفرف في مدى انشغالاتها الضيقة. «سينم... انظري» تقول لنفسها، وتحتار: الى مَنْ تنظر؟ الى وجه «بيكاس» المنتفخ بجزء ظاهر منه، وجزء في الظل الذي يرسمه القنديل، وهو منحنٍ عليها بلهاثه الرّطب، أم الى الفقيه الجالس على لسان اللهب، متّكئـاً على باب فضيّ، وقـد فتـح فمـه في ذعـر دون صراخ؟. «طيري... طيري» تهمس، والهَأْهَأَةُ ملء فمها المفتوح. ماذا ترى البلهاء؟ وأيّ طير سيطير؟. لهب يعض اللهب بأسنان تشبه القش في حظيرة أبيها، وثيران تقرع الجدران الصفيحية للمدفأة بقرون لها رائحة لزجة كرائحة «حيندر».

تزحف «سينم» على ظهرها، في كسل بالغ، حتى تصل الى الفراش الممدّد على الأرض، لصق الجدار، مخفورة بنعاس مغلق لا تنتظر أن يقرعه أحد.

المدفأة تظلُّ مشتعلة، مثلها مثل القنديل المعلَّق الى الحائط. سينطفئان وحدهما، حين ينفد الوقود، فليس من عادة «سينم» أن تتدبّر اموراً كهذه منذ مجيئها الى هذا العالم الضيق، المطرّز بخيوط حريرية كحزامها الذي لم يمنع «بيكاس» من رفع الثوب حتى ثدييها.

«سينم» تنحـدر الى هاوية ناعمـة، وقـد ردّت على جسمها الغطاء. الممالك الاكثر بساطة وصغراً، في أعماقها، تتفتّح كالأزهار الهندسية في بساط الغرفة؛ ممالك لا تتسع لرأس صبيّ يرمقها من الباب المفتوح للمرحاض، أو لدجاجة هائجة تردّ عن فراخها الـدِّيَـكة.

تنقلب «سينم» على جنبها الأيسر، واضعة يديها بين فخذيها الدافئتين، وقد علت أنفاسها بانتظام كأنفاس كلّ نائم. جسدها وحده، يبقى يقظان، متتبّعاً ممالك أعماقها الهندسية. جسدها... نعم، ذلك المباح لاغتصابات

الأيدي اللاّهية، التي ترى في بلاهتها مبّرراً لجسارة. ومن يأبه للجسارة على أي حال؟ حَسْبُها أن ترى في ذلك مالا يراه أحد. حَسْبُها أن ترى الدعابة في كل شيء، أعويلاً كان أم ضحكاً. الحركة، مفصولة عن تعبيرها، هي ما يعنيها. زمن صامت وأُناس صامتون: شفاهٌ، وأيدٍ، وأقدام، وانحناءات. عيون جاحظة أو مغلقة. تمايلات ترتسم على أشكالٍ تقتطف من فمها الهأْهأة. دغدغة أبدية على خاصرتها، والمشهد واحد.

ظلام في الخارج. الأرض والثلج نائمان، جنباً الى جنب، فقد رُفِعَتِ الشبكةُ الفضّية بعدما تصيَّدت ما تصيَّدتْهُ. لا نُدَفَ كسولة أو عَجُولة. صمت سكران سيلقي بالفجر كزجاجة فارغة بعد ساعات، لكن ثمت شعاعاً يتلصَّص من شُبَّاك «سينم» على الساحة؛ شعاعاً غريقاً، يضيء ممرّاً ضيّقاً في الثلج، ويستقرُّ على ورقات شجيرة الزيتون، التي لن تكبر قطّ من وحدتها.

«سينم» تبتسم. تتحرك شفتاها في همس: «كَـأْ. . كَأْ». تتحول الابتسامة الى قهقهة صامتة: «بيكاس ديك وليس دجاجة. . عليه أن يقول كوكووو. . ».

الفصل الثاني

ذلك «الحيوان» يزحف في الظلام، بل الصواب انه يسبح في الظلام، مهتزّاً يمنة ويسرة في الزلال الدبق.

آلاف من الحيوانـات البيضاء، التي تشبهه تماماً برؤوسها المستديرة، وأذيالها الناعمة كالخيوط، تمضي قدماً بالحركة ذاتها، مهتزَّة يمنة ويسرة، في سباق غامض عبر الزلال الدبق الذي يغطي ارض النفق المظلمة. سيصل واحد منها، ذلك ما يعرفه «الحيوان» المندفع بغريزة الخروج الى النور، والى المصـير المنتظر بساعديه المفتوحين كساعديّ أُمٍّ، ليكمل اللعبة التي يرتقبها الكائنُ أعزلَ من العزلة ذاتها.

ذيله الرقيق يرتطم، في انزلاقه، بجثث كثيرة لم تزل ساخنة بعد. «حمير» يهمس، محتقنـاً من سرعته: «يسمّونني الحيوان وأنا ذاكرتهم كلّها»، ويندفع بحمّى الواثق من وصوله.

ليس في وسعه أن يراوغ ليتقدم. قد يدفع برأسه، أو بذيله، جاراً على يمينه او على يساره، لكن امامه حشداً أبعد من أن يجاوزه حتى بجناحين، لذلك يعوِّل على شيء آخر؛ على مقدرته في البقاء حياً بإلهام ذاتي، وهو يحسّ سقوط الكثيرين صرعى، كلّ ثانية من السباق.

«إلهام ذاتـيّ» يكرّر الجملة، «المسألة أن أشغل نفسي بما سيعطيني شكلاً، أكثـر من هذه الحـاشية الكبـيرة العمياء، المنجـذبـة الى رائحة ضجرها»، واسترسل، مندفعاً: «كمالي ينتظرني».

دفقـةٌ من نبـع مستـور كسرت قشرة الـظلام الـرقيقة، دافعة بذلك

«الحيوان» الى حمّى سباقه. نبعٌ منجميٌّ فاض بما استجمع من عروق المعدن، وثلوج السلالات المنحدرة جداول نقيّةً من مكان ما، أعلى من جبل، وأكبر حصاراً من الريح.

«الحيوان» يتقدم، متلمساً بذاكرته الممرَّ، إذ لا عينين في رأسه المستدير. وفي اللحظة ذاتها يتلمَّس ابن «عَقْدي ساري» كراسي المقهى، ويبعدها عن طريقه بيده، دون نظر اليها، متَّخذاً ممرَّه بين الطاولات الواطئة التي اجتمع حولها عتالون مسترخون في كسل، وبعض تجار القمح ذوي الاصوات الخشنة في المساومات. ليس في محيّاه أثر لغضب، لكن عينيه لا تفارقان وجه «باقي جُواني» ذي الشاربين الاحمرين بفعل الحنّاء. و«باقي جواني» مسترخ، حتى تكاد قدماه تلامسان حافة الرصيف.

جانبياً يرى الشاب وجه الرجل، وحين يجاوره لا يرى إلّا قمة رأسه الكبير بين كتفيه، بفعل الحطّة الماردينية التي يعتمرها على شكل عِمامة. يشهر مسدسه ويطلق النار من أعلى الى أسفل، فينهض الرجل مصعوقاً، وقد تسمّر في وقفته. لا يبدو ألم على وجهه، بل دَهَشُ المفاجأة، برغم الدم الذي نفر من كتفه، قرب العنق. يشد ابن «عقدي» على الزناد مرة ثانية، بيد ترتجف ارتجافاً قوياً، فتخترق الرصاصة خاصرة «باقي جواني». يهوي الرجل الى الوراء، جارفاً نرجيلته التي كانت تُكَرْكر تحت شاربيه الكثين قبل لحظات. رجال المقهى ينهضون مصعوقين بدورهم. طاولات تنقلب، وكؤوس شاي تندلق وتتبعثر. لن يقترب احد من الشاب الذي تبدّلت سحنته، فاكتست ذهولاً عصبياً ينبىء بالحماقة.

الرجل ذو الشاربين يتكىء في وهنٍ على احد مرفقيه، مصدراً أنيناً كأنين هرَّة. جسده متمدّد، وثمت كرسي مقلوبٌ استقرّ على فخذيه. الشاب يقترب فيحاذيه من جديد. فوهة المسدس تستقر على جبين الرجل، الذي رفع وجهه الى وجه غريمه في توسُّل مرير.

يبدو واضحاً ان الشاب يجد صعوبة كبيرة في الضغط على الزناد اكثر. جسمه يرتجف بحمّى الذهول الذي يعتري مَـنْ لم يقتل شخصاً من قبل، او من تلاشت حماسته الى القتل، لكنه اندفع مرغمًا. رصاصة ستنهي المشهد، وهي لا تنطلق. الذهول الذي تبثّه عينا رجل لا يريد ان يموت هكذا، هو الباعث على صمت الطلقة، لا شفقةُ الشاب. والشاب بات يدرك ذلك، في وقفته التي تشهد، من كل الجهات، اشباحاً واجمة في الشارع. إذن، كان لابد

من دفـع آخـر لتستكمـل الجسارة مداها. «ها اااي»، تلك كانتْ صرخة الشاب الّتي استجمعت صُـوَر حقده دفعة واحدة، فانطلقت الرصاصة.

تلوّى رأس «باقْي جواني» كأنما يشيح بعينيه عن الومض الذي تفجّر من فوهة المسدس. تراخى الجسد وانقلب على بطنه في هدوء مَـنْ يخفي وجهه في الوسادة. وحين لم يعد الشاب في مواجهة ذلك التوسُّل المرير في عيني ضحيته، أفرغ الرصاصات الثلاث الباقية في ظهر الرجل، ثم رفع يده عالياً، وأهوى بها قاذفاً بالمسدس الى الرأس الملتصق بالرصيف، فأصابه. بصق ومضى، اكثر ثقة مما كان عليه.

«المسألة ان أُشغل نفسي» يقول «الحيوان» المندفع في الزلال الدبق، ويكاد يصرخ: «تراجعي أيتها الحيوانات الشبيهة بي، لأصل سريعاً» فيدرك أن لا فم له.

ذاكـرتـه تقود جسمه الرقيق عبر الظلام، وتقود الوعود الكثيرة بكمال ستتفتَّـحُ من حولـه، كالبراعم، حروبٌ وخيانات، ورعب، ومرح، وأشياء أخرى لا تُسمّى إلّا في حينها. «حيوان أنا» يردّد في غضب. «لو لم أكن حيواناً لكنتُ في أيّ مكان إلّا هنا. يختارونني لهذا السباق، من آلاف من أمثالي، ولا يد لي في ذلك، والأدهى تصميمي على الربح. لماذا الرغبة في الربح، والامر مبهم كالكمال المبهم الذي أعِدُ نفسي به؟ من قال إن كمالاً ما ينتظرني أبعد من هذه الجثث المتراكمة في النفق؟». يرتطم به جاره الاعمى مثله، فيستنفر قواه المكتومة: «ابتعد، انك تجعل الامر يسيراً على من اختارني». ويدفع بذيله ذلك الجار، ماضياً قدماً: «لو ارتأت هذه البهائم، من حولي، أن تخفف على نفسها عناء المزاحمة لخفَّفت بدوري».

«الحيوان» يزحف فوق جثث كثيرة كادت أن تسدّ الممر امامه. كل شيء ظلام، إلّا ذاكرته، التي تلقي به بين حشد هائل من كائنات تواطأت على جعله حيواناً أعمى، ومن ثم ألقت به الى سباق أعمى.

أيُّهم كان الكائن الاول؟ سؤال تتزاوج فيه ومضات شاحبة للفجر الذي يتسلل بين ورق كثيف؛ تتزاوج وتنفصل، ثم تتكوّم على جسد ملتفع بجلد خنزير برّي، كان مختبئاً بين الورق، لكنه يزداد وضوحاً الآن. «انه هو» يقول «الحيوان» السابح في الزلال، ثم يستدرك: «لا. أريد الهيئة الاولى، الأبعد من هذه الهيئة». بحـثُ «الحيوان» عن بدايته يلهيه قليلاً، فيكاد يتوقف في تأمُّله المظلم، وما يدفع به الى المضي هو مرور حيوانات كثيرة من فوق جسده

المتباطىء. «يا للقذارة، إنها تسبقني حين أصير حكيمًا. لا موضع، في هذا السباق، إلاّ للغضب»، ثم يهز ذيله يمنةً ويُسرة فيجاوز من سبقوه.

لم تمنعه حّمى الرحلة هذه من حثّ ذاكرته المتخبّطة في شبكة باردة: «هذا المتربّص بين الورق الكثيف ليس الاول»، يقولها لنفسه. «انه مشوّش الهيئة على نحو يدعو للرثاء». إذن، ثمت تسلسل آخر لهذا الجلال الجسديّ، الذي يتحقق بمصادفات متينة. «تفتّحي.. تفتّحي» يخاطب «الحيوان» حمّى سباقه، وحمّى الذعر من ان لا يجد أزَلَهُ. لكن هيهات، فالذي يتراكم بإلحاح لا يتعدّى فسحة من العشب العالي، وحيوانين ملتمعين تتلامس قرونهما في ارتطام قاسٍ وحنون. احدهما مُجْفل إجفالةً خجولة، والآخر ممعن في الدوران من حوله، كأنما يروِّض الغريزة بحصار من رائحته الذّكوريّة.

حيوانان، بثماني قوائم واربعة قرون، واختلاءٍ واحد بين العشب العالي، حيث كمن المتربّص الملتفع بجلد خنزير بريّ، في ذلك الفجر الأبعد من الذاكرة. «آه» يتنهّد «الحيوان» السابح في الزلال الدبق. سلسلة من التّربُّصات. سلسلة هوجاء من مكائد ناعمة وخشنة.

الحيوانان، اللذان يستبدُّ بهما أُنسٌ جسديٌّ، يختصران المداورة. احدهما يستسلم للآخر. وفي اللحظة ذاتها، التي ترفع فيها الغريزة مجدها كأكمل ما يكونُ لشعاعات الصباح الذهبية، تسقط القائمتان الخلفيتان لاحد الحيوانين في حفرة مموّهة. يتخبّط فلا يستطيع سحب نصفه المنزلق. يخرج المختبىء الملتفع بجلد خنزير من مكمنه وينقض على الطريدة. الحيوان الآخر يطير من مكانه بقفزة واحدة. لا جناحين له، لكنه يطير، وفي ذعره ذاك لا ينسى ان يلقي نظرة غامضة على شريكه المذعور، بل على عيني شريكه المستنجدتين بكل شيء.

كان الرجل، الذي خرج من مكمنه العشبيّ، ينقض كسِلَّوْر على عنق الحيوان الخاسر، ممسكاً به بأسنانه ويديه. قطعٌ من اللحم والجلد تنفصل عن العنق في كل نهشة من تلك الاسنان الطويلة، والحيوان يستسلم، كما استسلم، من قبل، لعضّات شريكه الاكثر عذوبة من نعناع الماء. «يا للجحيم» يهمس المتسابق الأبكم الى نفسه في ظلام النفق، «ليست هذه هي الصورة التي أريدها. عليّ أن أعود الى الوراء اكثر بذاكرتي».

اجتاز ابن «عفدي ساري»، الشاب الذي اطلق النار على «باقي

جواني»، الشارع دون ان يلحق به احد. امامه اكثر من ساعتين ليختفي قبل ان تصل دورية الشرطة الكسولة في سيارة «بيك آب» تقشّر الطلاء الرصاصي عن حوافها. والدورية ستصل، بالطبع، بناء على تبليغ شفهي من شاهد. وعلى الشاهد، بالطبع ايضاً، ان يقطع مائة شارع قبل الوصول الى المخفر الوحيد، المقام على تلّة تعلو السهل المنبسط الذي يربط شمال المدينة بحدود تركيا. ومبنى المخفر، الملحق بفناء مسوّر تحدُّه غُرَف ضيقة تسمى «السجن المدني»، هيكل قديم تركه الفرنسيون خلفهم بعدما مضوا. وعلى مدخل البوابة الضيقة ثمت طاولة يجلس خلفها شرطي في حال نعاس دائمة، يسأل زائري السجن بجملته المعهودة: «أتحمل سكيناً؟»، فان أجبته بالنفي لأمْكَنَك الدخول وانت تحمل ساطوراً، وان كنت رقيقاً في الخُلُق، وأجبته بالايجاب لسألك أن تترك السكين على الطاولة، ولك ان تأخذه، حال عودتك من زيارة سجين ما، مهما كان حجم السكين وشكله.

وصل الشاهد اللاهث، الذي تبّرع بالتبليغ، على كل حال، الى مبنى المخفر. تمالك نفسه وقد انحسرت حطته عن نصف رأسه، وصرخ بالشرطي الجالس وراء الطاولة: «قُتِلَ باقي جواني»، فرفع الجالس جفنيه الثقيلين، وأشار بيده الى غرفة على مسافة متر منه: «راجع هناك»، وأسبل جفنيه من جديد.

كان باب الغرفة، التي أشار اليها الشرطي مفتوحاً، فدخل الشاهد دون استئذان. «قُتِلَ باقي جواني»، قالها من غير ان يتوجّه بكلامه الى احد بالتحديد. ثم ركّز أكثر، فوجّه كلامه الى الرقيب الذي يحتسي كوب شاي: «ابن عقْدي قتل باقي جواني»، «أووه» ردّ الرقيب. نهض بتثاقل وهو يعدِّل من وضع قبعته ذات الشريط الذهبي المتآكل على مدى استدارتها. نفخ صدره قليلاً، وصرخ صرخة أشبه بالمزاح: «عبود... عبدو، بلُّوط»، وقبل ان يسمع جواباً همس بالتركيّة: «بيزڤنك. لصوص».

مضت ثوان دخل بعدها شرطيان، بينما ظلّ ثالث في الباب. قال الرقيب: «احضروا السيارة، وزرّروا بناطيلكم».

نهبت السيارة الطرقات الترابية، مثيرة عاصفة من الغبار الذي اختلط بأجنحة الدجاج الهارب، ثم توقفت بحشرجة مريرة امام سور بيت «عقْدي ساري».

في دقيقة واحدة اجتمع حول السيارة، التي ظل السائق في داخلها،

مائـة صبي فضـولي. وفي دقيقـة تالية امتـدت وجوه وأجساد متزاحمة لكبار وصغار، من البوابات الطينية الضيقة، على امتداد الزقاق. كلاب شاردة هرَّت قليلاً فزجرها القريبون منها بقشور البطيخ.

دخـل الرقيب برفقة شرطيين الى ساحة الدار. كان «عقدي ساري» واولاده الستـة الفتيان، وزوجه، وابنته، في استقبال الزائرين، بوجوه يبدو عليها احتقار واضح، برغم انها تكلّفت بعض الترحيب غير الودود. «تفضّل حضرة الرقيب. . تفضل حضرة الـ . . » بلكْنة تختلط فيها الحروف الكردية بالعربية. «شكراً» رد الرقيب، واضاف: «ابنكم قتل شخصاً. إحِـمْ. أهو هنا؟». وبدا بارداً الى درجة لا يتوسّم فيها جواباً من أحد. فردّ الأب: «قتله؟ قتـل بافي جواني، إذاً». رفـع الرقيب المتكاسل حاجبيه، كمن وجد فرصة ليشحذ ذكاءه: «انتم تعرفون الضحية دون ان انطق باسمها»، وزمّ شفتيه، مُخرجاً من جيب سترته علبة دخان من نوع «خصوصي للجيش». سحب لفافة فوجد نصفها فارغاً من التبغ. دعكها في يده ورماها متأفّفاً. أخرج أخرى لم تكن أحسن من سابقتها. قطع نصفها الفارغ، وأشعل النصف الآخر بعود ثقاب ارتفع لهبه حتى كاد يحرق جفنيه. وعلب تبغ «خصوصي للجيش»، كما يدل اسمها، كانت مخصَّصة للجنود والشرطة بسعر متهاود، لا يزيد عن خمسة عشر قرشاً. تبغ غريب اسود، يجف صيفاً حتى يغدو كروث البقر، فينفرط من الأطراف، ويصير رطباً حادّاً في الأيام الباردة، فيشعله مدخنوه بعود كبريت بعد كل نَـفَـس.

سحب الرقيب نَـفَـساً جافاً من لفافته، وتمتم: «هِمْ . . هِمْ . . آه . . أأنت مشـترك في تحريض ابنـك؟»، وجّـه سؤاله الى الأب. فأطرق الرجل الغارق في قفطانه النظيف، وحطته البيضاء الناصعة، الى الأرض، مجيباً: «الكلب كلب يا حضرة الرقيب».

استدار الرقيب واتّـجه الى خارج الساحة، هامساً: «اتبعوني كلكم».

صعدت العائلة كلها الى سيارة الجيب. الأب، والأم، والاولاد الستة. تخلَّفت البنت وحدها، فلم يجرؤ الرقيب على مناداتها. الـصِّبية متحلّقون حول السيارة، يردّهـم السائق منتهراً فلا يستجيبون. سأله الرقيب الذي حشر نفسه مع زملائه في المقدمة: «أين الشاهد؟»، فردّ السائق: «اختفى. كاد يذوب من نظرات الجـيران فاختفى». لم يعقّب الرقيب بكسله المعهود، بل همس ثانية: «الى المخفر»، وفتح زرّين من أزرار سترته.

دوّى محرّك السيارة ذو الحشرجة. اهتزّت العجلات المطّاطيّة قليلاً وهي ثابتة، ثم انفصلت عن المؤخرة كتلة دخانية سوداء. ارتجّ الجالسون فيها جميعاً، فاختُضَّت جماجمهم. «يلّلا» تمتم السائق، فانطلق الحمار الحديدي. ركض الصِّبية خلف السيارة حتى اختفت ملامحهم في الزوبعة الغبارية، ثم عادوا أدراجهم كالإوزات الشرسة التي لحقت بالقافلة، بدورها، وعادت ادراجها الى حيث البركة الطينية قرب سور «عفدي ساري». بعد ذلك أقفر الزقاق لينتظر زوبعة اخرى.

كل جثة في طريق «الحيوان» السابح في الزلال الدبق تزوّده ببشارة للفوز. «اسقطي، اسقطي. قَدَرُ واحدٍ أن يصل؛ واحدٍ فقط». ذاكرته تتلألأ كحُباحِب فوق نهر، وذيله يشتدّ اهتزازاً. «مَنْ كان ذاك؟»، يسأل نفسه كمن التقطَ ظلاًّ عابراً ولم يتمكن من تحديده. يمعن التفاتاً الى اعماقه التي أورثتها اشكال الى اشكال. سرٌّ صياغة يلقي اليه بالكثير مما مضى، دون ان يكون حاضراً في الذي مضى. الخليَّة؟.. نعم. حَلَبةُ النَّسْخِ الأعظم للدورة كلها، والهاوية التي تتحد فيها مصائر الاشباه، الذين يملكون غريزة ان يستمدّوا بقاءهم من موتٍ، وموتهم من بقاء. سوران عظيمان لا نهاية لهما من المرايا، والشكل يستقر في الفواصل بين الالواح. «من كان ذاك؟» يستعيد «الحيوان» السؤال، ثم يجمع الشتات المضيء الخافت في ظلام جسده، محاولاً حصر ما يراه: كان ذلك الحيوان الآخر، ذو القوائم الأربع، الذي انقض عليه الرجل المختبيء بين الاعشاب، هو العابر بظله على مساحة جلية من ذاكرته. يرصد «الحيوان» السابح في الزلال حركة الحيوان الآخر: وديع مغتبط ببلاهة النعمة التي تجعله أبله. القوائم الاربع تتناوب على الحركة في نظام صارم. وَبَرٌ يَحُوْلُ الى شُقْرةٍ في الضوء، فوق ذلك الجلد البني الفاتح. عشب يهتز من حركة الحيوان. حشرة تطير مذعورة، وذبابة تطنّ فوق قرنيه، ثم تحطّ على زاوية عينه اليمنى. العنق ينحني في رخاء، من اعلى الى اسفل. الخَطْمُ يتشمَّم نبتة صغيرة، قبل ان تجتثها فكّا الحيوان بقضمة واحدة.

«واوو»، همسة مكتومة على هذا النحو تندُّ من أعماق «الحيوان» السابح في الزلال الدبق، فالقضمة التي اجتثت النبتة اجتثّته أيضاً. إنه يحسّ بجسده مطحوناً بين الفكّين القويين. «أيمكن للذاكرة أن تستعيد الالم حرفيّاً؟» يسأل السابح نفسه. «نبتة... كنتُ نبتةً إذاً» يردُّ على حيرته، «أحسُّ بثآليل صغيرة في أطراف جذوري. أحسُّ بجذوري النحيلة أيضاً، سابحة مثلي في

ظلام صلب لا دبق فيه. ورقي العالي لا يرى أبعد من شبر في محيط رؤيته. لو يميل العشب قليلاً لأرى أكثر، لو يستوي النبات كلّه في مدى ارتفاعي فقط. آه. الأعلى ملك رؤيتي. لِمَ لَمْ أنتبه الى أن ثمت فسحة مديدة الى الاعلى؟. الضوء المتهدّل في كسل من منارات الغصون. الغصون وألاعيب الورق المضحكة. السماء التي تفتح ممرات ضيقة بأيديها الألف الطرية لتراني. وجهاً لوجه أنا مع صورتي الاخرى، وامتداداتها». ويستدرك السابح في الزلال الدبق هاتفاً: «قطفني الأبله. عليّ أن أبحث عن حريتي أبعد من ذلك»، ثم يندفع بقوة في النفق.

«باقي جواني» متورّط حتى أذنيه في لعبة اكبر منه. فقد خُيّل اليه، وهو تابع «سطّامو لاوي حجي عباس» أن في إمكانه إذلال بيت «عقْدي ساري» بأقاويل تافهة، بعدما أصابهم الكثير من الحكومة.

حروب مهرّبي تبغ، بعضهم شهم وبعضهم خسيس. «سطّامو» كان يسرّب الى شرطة الحدود مواعيد مرور قوافل «عقْدي ساري»، مقابل ان تتغاضى قليلاً عن بغاله، التي توزّعت سُبُل عبورها بين «نصيبين» و«عامودا» في الشمال السوري المتاخم لتركيا. اثنان من رجال «عقْدي» قُتلا في المداهمات الليلية، وعشرات البغال شردت بحمولاتها بين الاحراش والاودية، بعدما فرَّ الرجال بجلودهم. ولقد أمست أحواله تسير من سيء الى أسوأ، بينما تَبَحْبَحَ «سطّامو» النكرة، على نحو يدعو الى الريبة.

كان «عقْدي» يحسّ أن في الامر شيئاً غير المصادفات التي تمكّن الشرطة من نصب كمائن موَّفقة دائمًا. وقد كاد غضبه ان يدفعه الى نصب كمائن، بدوره، لتلك الدوريات، لكن العقلاء نصحوه بعدم إشعال حرب مع الحكومة لا يعرف أحد خاتمتها.

دافعُ جشعٍ وحسدٍ، لا أكثر، كان وراء ما فعله «سطّامو»، الذي مضى وقت غير قليل قبل أن يكاشف العارفون «عقْدي» بأمره. أما رَجُلُه «باقي جواني» فما من أحد فهم، حتى الآن، سبب نزوعه الى ثرثرات حول ابنة «عقْدي» وأمّها. قد يقول قائل إن الأمر محض تزلّف الى سيّده، الذي نال من الرجل القوي في الحارة الغربية للمدينة بخساسته، أو هو استقواء الوضيع على من هم أرفع شأناً، ممّن جعلتهم المكائد المتتالية على شيء من الضعف. و«باقي جواني» من الرجال النادرين جداً، ممن يحملون الى بيوتهم بعض زجاجات الجعة، في أكياس سميكة محكمة التمويه. اذ ما من عادة هذه الاحياء

المحافظة أن ترى بينها من يتعاطى غير شراب العسل، او التوت. وفي احدى حالات نشوته، كمبتدىء يستطيع أن يتباهى بقول ما لن يقوله قط في صحوه، تفوَّه، في المقهى، بأنه سيُذِلّ «عفدي» في شرَفِهِ، وقد ازدراه بعض الجالسين، قائلين ان هذا الكلام لا يليق برجل له شاربان كشاربي «باقي جواني». لكنه تمادى، في حالات اخرى، وفي وضح النهار، بأن يمرَّ من امام بوابة بيت «عفدي» وهو يفتِّل شاربيه، ليثبت أنّ في إمكانه التحديق في باب رجل لم يكن يحاذيه، من قبل، إلّا مطأطئاً. وذهب به وهمه الى درجة الغمز بعينه الى زوج «عفدي» مرة، وابنته مرة اخرى. ثم بات يثرثر بأنهما تبادلانه غمزاً بغمز، فحصل ما حصل، وسقط «باقي جواني» تحت كراسي المقهى، آخذاً معه حصيلة عمره التي لم تجاوز ستة ثقوب في جسده المستدير.

«أين نهاية هذا السباق؟» يكاد «الحيوان» السابح في الزلال الدّبق ان يصرخ. رأسه المستدير يصطدم، في تقدُّمه، برؤوس أخرى، وذيله يلامس الذين تخلَّفوا عنه. تعتريه شفقة ما على جنسه الاعمى هذا، المحكوم ببحثه عن مصير محسوم كأي نتيجة حسابية في دفتر بقّال؛ المحكوم بالخروج من النفق، والعودة اليه، اكثر هذياناً من أثر الكمال الذي يجنيه بعد كل دورة. لكن العودة عودةٌ وحسب، والظلام ظلامٌ، لا يقلّ مقداره أو يزيد بزيادة في الكمال او بنقصانٍ فيه. ما من إغراء، إذاً، وراء هذيان جسده المندفع، إلّا أن يكون حلقة في الدورة، لا اكثر. على ان هذا يبدو كافياً، كاكتفاء كل شيء بخطوة واحدة، خجولة او واثقة، صوب النزيف العظيم للمعرفة.

«لا، فلأكن صدى ما لا أعرفه، لا صوت ما اعرفه»، ورمى بِنَرد ذاكرته مرة ثانية؛ النَّرد الأوحد المضيء في ذلك الظلام الصلب كحمى صلبة، هامساً: «اين حريتي؟»، غير أنه رآها، أو رأى رمادها الذهبي العالق بأوراق النبتة، التي اجتثّها الحيوان ذو القوائم الأربع بقضمة واحدة.

«هاي. لم أكن نَبْتة إذاً. كانت النبتة صدى شيء آخر». واستحثَّ النَّرْدَ المضيء، قاذفاً به على وجوه كثيرة فوق مساحة أعماقه. «هنا» هتف، «هنا». كان يرى ثآليل جذر النبتة مسترسلة برخاء في المياه، تحت الطبقة المتراصَّة من جذور العشب الهيِّنة والتراب الرطب. أكل الحيوان ذو القوائم الأربع تلك النَّبتة، لكن المياه ظلّت هناك. يتنفّس السابح في الزلال الدبق باطمئنان مَنْ عثر على طريدة سقطت بعد فرٍّ.

المياه، المياه. تلك الدّعامة الشفيفة التي تسند هيكل الحياة المائل،

تسنـد ذاكرة «الحيوان» المتسابق ايضاً. «مياهٌ أنا» يقولها في اغتباط، متلمساً بحساسيته الحيوانية صيغة هذا السائل المتهتّك، الذي يصهر في مزيجه كل مزيج، والقـابض بشهوته على كل انحلال فلا يستقرُّ إلاّ فيه: ذُرُوْرٌ آحيَّةٌ. ثآليل تتفجّـر تبـاعـاً، كاشفـة عن حيوات ترقـد وادعة في أسرارها. خلايا وأشباهها. يرقاتٌ اكثر تواضعاً من ان تُرى. شباكٌ ذائبةٌ مـمّـا يذوب، وصلبةٌ مـمّـا لا يذوب. حنـينٌ هواء الى الهـواء، وصـدامـاتٌ صامتـة بين خلائق تستعجل ظهورها على هذا النحو أو ذاك. «مياهٌ أنا» يردّد «الحيوان» صورة اكتشـافه، «فضيحةٌ عذبة أنا، أكثر اتساعاً من أن تحدّدها مشاغل نباتٍ أو جسارةُ حيوان».

إنه بهيٌّ في اندفاعه الآن، ذلك «الحيوان» السابح في الزلال، بنعمة الصورة التي تترقرق في فضاء جمجمته الصغيرة جداً. حّمى سباق وحّمى ذاكرة. حّمى من متواليات كشوفٍ تختفي في كشوفٍ أخرى. يقول: «المياه. المياه» في كل خفقة من ذيله، واذ يدركه التعب بعد شوط لم يبلغه شركاؤه، يهدأ قليلاً، بل تهدأ كلمة «المياه» في اعماقه، ايضاً، كأنما يراجع اكتشافه بشيء من الريبة، بعد كل ذلك التألُّق.

إنه يتبع المشهد من آخره الى أوّله، صعوداً من البحيرات الى الجداول، ومن الآبار الى المسارب الباطنية، ومن الينابيع الى العروق الضيّقة بين الصخر والحصى: المطر ماء. الثلج ماء. الغيوم ماء. شمس تأخذ البخار في سلالها، وعتمات باردة تُرْجِعُ البخار، ثانيةً، الى المكان. نواعير شفيفة عملاقة تسرق الشكـل بمغـارفها، وتعيده، من ثمَّ، كمثل ما كان. تآكلٌ طفيف يعتري المشهد، بعد كلِ دورة، تماماً كاستعمال ملعقة، لا أكثر.

المياه، إذاً، ميثـاق شرف بين الليل والنهـار، و«الحيوان» السـابح في الزلال الدبق يحاول صياغة أعماقه من جديد، بعد اطمئنان عابر لم يُفْضِ به الى يقين.

«انـزلوا» قالها الرقيب لعائلة «عقدي»، فنزل الأب، وأولاده الستة، وزوجه، من «بيك آب» الشرطة المغطى بسقف من الشادر. فكّ الرقيب أزرار سترتـه وهـو يتقدم العائلة نحو باب المخفر، وإذ دخل الغرفة جلس خلف طاولته، وأشار الى الآخرين بالجلوس، فجلس الأب على الكرسي الوحيد، الذي تدلَّت لوالبه المعدنية من الاسفل، بينما قرفص الاولاد، والأم على بلاط الغرفة العاري.

وضـع الـرقيب قبّعتـه أمامه. أخرج لُفافة وأشعلها فدمعت عينه من الدخان الذي غطاها. تراجع الى الوراء في مقعده، وصرخ: «يا بلوط، يا لصوص»، فردّ عليه صوت من الخارج، اكثر صراخاً: «نعم سيدي الرقيب». «هات ورقة بحقّ الله. من يسرق الورق عن طاولتي؟»، فردّ الصوت الاخر: «حـاضر». «حـاضر» ردّد الـرقيب بـدَهَـشٍ، موجهاً كلمته الى «عفدي»: «يقـولون حاضر ويسرقون الورق. ألا ترى كروشهم الكبيرة؟ إنهم يأكلون دجـاج السجنـاء مقابل تسريب الخناجر الى السجن. والله، والله يا. . . شيخنـا، هنـاك بنـادق داخل هذا السجن الصغير. بنادق تحت الأغطية. أفتشهم فأصادرها، وتعود في اليوم الثاني اليهم بقدرة قادر. لو أراد السجناء اعتقـالنـا لاعتقلونا بدلاً منهم. لكنهم طيبون تجاه الشرطة، ويكتفون بقتل بعضهم البعض في الداخل. الغرفة، هنا، هذه الغرفة يا. . شيخنا، ينام فيها بعض الخائفين ممن يستنجدون بنا. من يقول انه سيُقْتَل فسيُقْتَلٍ. ذلك أمـر لا مفرّ منه. وقد ذهبنا الى القائمقام نشكو اليه هذه الحال، علّه يوزّع السجنـاء على. . على جهنم، فردّ علينـا: أكـراد، فليتـذابحـوا. قلنا له: سيدي، كلّما قُتِلَ شخص في السجن حلّ عشرة أشخاص فيه، ممن انتقموا للقتيل. سيتحـول سكـان المـدينـة، والضـواحي، والقرى من حولنا، الى سجنـاء. ويقيناً أنهم لن يطعمونا دجاجاً أو بيضاً مما يصطحبونه الى أهلهم هنا. سنأكل الكراسي، أو قبّعاتنا. فردّ القائمقام ـ بالله عليك أهذا ردّ؟ ـ قال: كلوا البيك آب، لقد نسيتم البيك آب. وقد خرجنا من عنده ونحن نكاد نبول على الورد في حديقة مسكنه الفخم».

كان «عفـدي» يصغي في وجوم الى ما يقوله الرقيب. وكأنما استدرك الأخير سؤالاً لم يوجهه الرجل الماثل امامه، فردّ: «أتظنني أخاف؟. من سيصل الى القـائمقـام ليشي بي؟ هؤلاء الحثالة هنا؟ يلزمهم ها: «اغتسلي هناك»»، وأشار الى زاوية الباب. تناولت البلهاء الابريق ومضت إلى الدائرة الاسمنتية. رفعت ثوبهـا حتى الخـاصرة ثم قرفصت، وجعلت تغسـل نفسهـا، تركت الابريق هناك فمضى إليه «بيكاس»، وفعل ما فعلته، مجفّفاً ما بين فخذيه بجلبابه كما جفّفت الفتاة نفسها.

أعـرف طريقتكم في صنـع اللّفـافـات. لُفّ، أنت، لي واحـدة». فاشتغلت أنامل «عفْدي» حتى اكتملت اللّفافة. قدّمها للرقيب الذي أشعلها في ارتياح، هامسـاً: «اللعنة على تبغ الجيش». ثم ارتفع صراخه على نحو

فجائي : «يا لصوص، أين الورق؟»، ولم ينتظر الجواب، بل استرسل في شكواه، التي رآها «عقدي» غريبة، فأنصت بكل شيء فيه، وكذلك عائلته المقرفصة، التي بدا أن الأم، وحدها، لا تفقه كلمة مما يقوله ممثل الحكومة : «فلنفترض أن القائمقام سمع بـ . . . اعذرني يا شيخنا . . سمع بجَحْشَنَتي، فماذا سيفعل؟ ها؟ قل بربك ماذا سيفعل؟ . سيقول إنني غير مرغوب فيه هنا، وسيردّني الى دائرة المحافظة. في المحافظة لي أقارب، وسيعيدونني بدورهم الى هيئة مركز المدينة التي جئت منها. لا أريد البقاء هنا. هذا الشمال يزهق الروح. الجنود الأتراك يطلقون النار، عبر الحدود، على الحمام البرّيّ، فيصيبون جنود ثكنتنا. لماذا لا ينقلون الثكنة عن هذه الهضبة العالية كدريئة للتدريب؟ . يتصيدون الحمام، ثم يعبرون الأسلاك فيأخذونه، وهم يمدّون ألسنتهم للجيش. ما من شرطي يجرؤ على العبور قرب الحدود. قال لي فلّاح، ممن لهم حقول قرب الاسلاك الشائكة، ان جندياً تركياً اتّهمنا بأننا كُفّار. لماذا نحن كفّار؟ . سيأخذون هذه المدينة ذات يوم، دون أن يكون لأحد حقّ الرد على النار. انهم يعبرون الحدود الى قرية الهلالية، ويأخذون أي رجل يختارونه، ثم يبصقون على باب المخفر. وأنتم . . من أنتم؟»، ثم صرخ من جديد : «الورق، الورق»، فدخل عليه شرطي حاملاً مغلّفاً مهترئاً : «حاضر يا سيدي»، ووضعه بين يديه.

سحب الرقيب، الذي تورّدت وجنتاه من الانفعال، درجاً من ادراج طاولته، ثم تناول قلم حبر بلّل أصابعه بلون أزرق على الفور. «تفو» همس لنفسه. لفّ وسط القلم بورقة نشّافٍ ليمنع تسرُّب السائل، ومال على الاوراق التي أخرجها من المغلَّف، متمتماً بصوت مسموعٍ : «اليوم . . التاريخ . . المَحْضَر». كان يردد الكلمات دون ان يكتب شيئاً. رفع بصره الى «عفدي» واولاده، قائلاً : «من منكم يتقن الكتابة؟»، فرد الاولاد انهم يتقنونها. زمّ الرقيب شفتيه، وأومأ بقلمه الى أحدهم : «تعال». قام الشاب الذي يبلغ التاسعة عشرة، واقترب منه. «اجلس مكاني» أمره الرقيب وهو ينهض عن كرسيه، فامتثل ابن «عقدي». مشى الشرطي حتى بلغ الباب. ردّه بحركة من حذائه السميك، ثم اتّكأ عليه بكتفه : «لا أريد لهذا الأفّاق ان يدوّن المحضر»، وكان يشير برأسه الى الخارج، بما يعني انه لا يريد مساعدة احد من الشرطيين. «انه يستوقفني كثيراً ليسجل الكلمات بحذافيرها، وهو يتعمد ذلك مستغلاً ضعفي في الكتابة. ابن الجحش. لا ينفع الا لهذا

العمل، لذلك يطيل حتى يقضي نهاره في تعذيبي». ثم توقف الرقيب برهة، قائلاً للشاب الجالس وراء طاولته: «لا ترفع القلم كثيراً، وإلّا اضطررنا الى كتابة المحضر من جديد».

رفع كتفه عن الباب. نظر الى حذائه قليلاً، ثم الى «عقدي»: «سجّل»، قالها من غير ان ينظر الى الشاب. «اليوم كيت.. التاريخ كيت.. المحضر»، واتجه الى «عقدي» بسؤاله: «لماذا قتلوا ابنك؟». رفع «عقدي» حاجبيه في دهش، هامساً: «ابني؟». قال الرقيب: «عمتك.. اختك.. خالتك، جدك، ابوك، من قتلهم؟». ازداد دَهَشُ الرجل، ثم تحوّل الدهش الى غضب: «سيدي الرقيب، من قتل حكومتك، وحكومة أبي أبيك؟»، فأجفل الشرطي كمن كان شارداً، وقال في جفاف: «ماذا تقصد؟»، فرد الرجل: «إذا أردت أن تنتهي من المسألة سريعاً، فقل لابني ماذا عليه أن يكتب في أوراقكم». «أجبني، إذاً، ليكتب ابنك ما تقول»، ردّ الرقيب بدوره.

همهمت الأم الجالسة على بلاط الغرفة بكلمات مشوبة بشيء من القرف، فنظر اليها أولادها متوسّلين، فسكتت. نظر اليها الرقيب فلم تطرف عينها الغاضبة. «واوو» تمتم الشرطي، ثم تحول بعينيه عنها كمن يتلافى موقفاً حرجاً: «ما القضية إذاً؟» سأل الرقيب الرجل، فرد الاخير: «أنت أخْبَر». قال الرقيب: «أتيت بكم لأن هناك جريمة قتل»، فردّ «عقدي»: «جريمة قتل، أو انقلاب... ما الذي يعنينا في ذلك؟». رفع الرقيب كتفيه في تساؤل: «أليست لكم علاقة بجريمة قتل، أو بسرقة، أو بتهريب، أو بمسجون هنا؟». صمت «عقدي» ولم يجبه. رفع ابن «عقدي»، الجالس وراء الطاولة، رأسه قليلاً، سائلاً في حياء: «ماذا اكتب يا سيدي؟»، فأجابه الرقيب: «القضية عويصة. يلزمنا شاهد. أين الشاهد؟»، ثم صرخ ملء فمه عبر الباب المغلق، فركض شرطي من الخارج، مُطلاً برأسه فقط: «نعم سيدي». سأله الرقيب: «لماذا جئنا بهؤلاء الناس؟»، فأجابه الشرطي الذي لم يتقدّم أو يتأخر: «جريمة قتل». سأله الرقيب ثانية: «مَنْ قتل مَنْ؟»، فطأطأ الشرطي برأسه، هامساً: «هرب الشاهد يا سيدي. لكنني اعتقد ان هناك جريمة قتل». فاحتدّ الرقيب، متوجهاً بكلامه الى ابن «عقدي» الجالس وراء طاولته: «الحكومة لا تعرف ماذا يجري، فلماذا عليَّ أن أعرف؟. سجّل يا بُني: قُتِلَ حمار. دعوى ضد مجهول. انتهى. التوقيع حذاء بن حذاء. الشاهد حذاء».

فردّ الشاب: «أعليَّ أن أوقّع في مكان ما على الورقة؟». نفخ الرقيب صدره الممتلىء غيظاً ومللاً: «نعم. وقّع على مؤخّرة الرئيس»، وأشار بيده الى صورة معلّقة فوق أحد الجدران.

«الحيوان» السابح في الزلال الدبق يستحثّ قواه وأعماقه معاً. حركة الذيل تدفع الرأس الكرويّ أماماً، والذاكرة تحاصر المشهد بكل آلاتها. «الحرية هي صيغة الشكل». انه يمهّد بهذه الكلمات ضرباته الجديدة، بعدما أخفق في أن يجد الماء منطلقاً لصيرورته. ويردّد كالهاذي: «الشكل الشكل. الذرة الاولى، الخلية، الجذر الذي لا ينقسم، هو الحرية. البداية... وأنا لست ماءً».

كان «الحيوان» قد انتهى، توّاً، من اشتغاله على فكرة السائل؛ الفكرة التي تتأرجح كنوّاس الساعة بين تعاقبات الطقس: بخار. ماء. بخار. ماء.. الخ. «أنا أحدهما» أسرّ لنفسهُ، «أنا جُسَيْمٌ بارد أو ساخن، لا أكثر»، ثم استدرك: «لكن أيّهما أنا؟. السخونة؟ نعم، السخونة هي طبيعتي. الزلال الذي أسبح فيه، وكذلك النفق المظلم هذا، كلاهما ساخنان. جسمي ساخن، هذا ما أحسّه. بيد أن عليَّ معرفة ما هو الساخن. الحرارة. واوو. من سيؤكد المسألة؟ عليَّ التفكير أبعد. نعم. الساخن يصبح بارداً بعد قليل. البارد، نعم. من سيؤكد المسألة؟».

بات «الحيوان» يحسّ بسذاجة أسئلته في حّمى السباق، الذي سيجعل وجوده متّصلاً أو منقطعاً، لذلك ينبغي اعتبار السباق، وحده، حقيقةَ وجوده. حاول أن يصرف أعماقه الى الراهن فقط، فأخفق. ثم استبدَّ به غضبُ مَنْ يخذله جوابه، فصرخ: «أنا الحرية. وحدي أنا. لست أسمع أحداً من كائنات هذا السباق. ألا تتساءل لماذا اللعبة كلّها؟. تتعب فتستسلم للموت. حيوانات. لديّ ذاكرتي واندفاعي، فأنا الحرية. أعبر الجثث بحمّى لا قانون فيها. الحمّى هي الحرية. أنا الشكل الآن، وصورةُ كَمَالِهِ حين أصل. أللشكل كمال؟ هااااي. الحمّى هي الحرية»، ثم ضرب بذيله الزلال فاندفع مسافةً الى أمام.

الحيرة تتجذّر. لماذا عليه أن يصوغ نفسه على شكلٍ وهو على شكلٍ آخر؟ لا يهمّ، على كل حال، تعاقباته، وتحوّلاته، التي أفضت به الى هذه الصورة. عليه الوصول الى آخر النفق. تلك مهمّته، لا أكثر. وسيكون ما سيكونه، لا بتصميم منه، بل بتصميم من الحمّى التي يحسّها منفصلة،

أحياناً، عن رغبته وحماسته. «أنا سرُّ الحرية» يقولها لنفسه بإذعان لا غضب فيه، «أنـا سرُّها، أما هي . . .»، ويرجع الى استثارة ذاكرته، صارخاً تحت وطأة ذلك من جديد: «الذاكرة هي الحرية. الحرية؟ لِمَ الهمّ؟ الحرية ذاتها لن تكون حرّة مثلي حين أصل». لكن الحاح البحث عن جذر ما ظلّ هاجساً. وقد انصرف «الحيوان، السابح في الزلال الدبق، بتساؤلاته الساذجة الى هاوية أخرى.

ضوء صباح رخيٍّ يغمر المسافة المنبسطة التي تحدّها تلال في آخرها. ظلال الاحجار الصغيرة لم تزل مديدة، وهي تُغوي بغفوة ما، قبل ان تنحسر من صعـود الشمس. نبـات بنفسجي، من فصيلة السرخسيات، يكسـو الارض بتنافر. هدوء لا يقطعه الا طقطقة خفيفة للخمائر الدفينة في التراب العاري بين نبتة واخرى. المكان يزن نفسه بميزان البهاء الصامت. ما من شيء سيحصل قطعاً، وما من جماد ينتظر حدوث ما يوقظه. غيبوبة منبسطة، سميكة كجلد وحيد القرن: هذا هو المشهد الذي يطفو على ذاكرة «الحيوان» النَّزقة.

«من اين ستنبثق الـنَّـتْـشَـةُ الآن؟» يسأل نفسه، «الآن، أو بعد قليل، أو أبعد مما بعد». إنه يتلمس المسافة المنبسطة بوصة بوصة، ويتشمَّم الهواء كعقرب. يده يد أنثى القردة، التي تلتقط البراغيث والقمل من فراء ذكورها، وله خرطوم آكل النَّمل، الذي لا يخطيء الجحور. «بذرةٌ ستتفتّح. بذرةٌ ما: غلاف وفلقتـان، ونُتَيْشٌ سيطفـرُ عالياً من ظلام الاعماق. وريقات كقرنية الـظِّربـاء ستستـطلع المكـان بحـركات مفصلية. كل ورقة سترصد احدى الجهات، وكل جهة ستزاحم الاخرى في تقديم هباتها الى هذا الحيِّ المؤنس الوافد بِعُرْيِهِ. للجهاتِ أمومتها وأثداؤها. لقد تهيّأت، مُذْ كانت، لوافدٍ ما: هذه بسرير، وتلك بظلٍّ. هذه برياحٍ، وتلك بطبولٍ. هذه بفضيحةٍ، وتلك بانتصار. هذه بهذيانٍ، وتلك بأنينٍ عظيم».

أعدّت الجهات عُدَّتها إذاً، ولم يبق إلاّ أن يرتفع الصخب العذب لوليدٍ ما.

صمتٌ يلفّ ذاكـرة «الحيوان». مرصـدٌ كبـير يحصر المكان في أعماقه بعدسات من الفضول والحمّى. إنه ساكنٌ من الداخل سكون القنّاص، لكن ذيله النحيل، الذي لم ينس المهمة بعد، يدفع الرأس أماماً، بحركات متَّزنة، في الزلال الدّبق.

عائلة «عفدي» تمضي الى البيت راجلة، بعدما جاءت الى المخفر محمولة في سيارة الشرطة. كل فرد يلتفت الى الآخر، عبر المسلك الترابي، في نقاش عالٍ يدور حول المسألة برمّتها.

في تلك الاثناء، كان ابن «عفدي» السابع، الشاب الذي قتل «باقي جواني»، والمغطّي وجهه بحطته البيضاء تمويهاً، مبقياً فسحة لعينيه، يعبر البيوت الخلفية من جهة الشمال، التي تعقبها بساتين الحلبيين بباذنجانها، وفلفلها الاخضر، وقُنّبيطها، وخسِّها. فلّاحون وفدوا من «حلب»، يتعهّدون هذه الارض المنبسطة ذات الجداول. يبنون بيوتهم وسط آجام الشجر، ويربّون كلاباً ضخمة. والمسافة بين تلك البيوت، والحدود التركية المسيّجة بالأسلاك، لا تجاوز بضع مئات من الأمتار.

كان الوقت يقارب الظُّهر حين أطلق النار على «باقي جواني»، وهاهو العصر بهزيعه الاخير يغطي المدينة. قضى ساعات متنقّلاً بين الحي اليهودي، وحي الأرمن، على غير هدى، متفكراً في الطرق التي ينبغي عليه أن يسلكها قبل أن تصبح مطاردة الشرطة جدّيّة. المدينة صغيرة، وأي ملجأ فيها لن يستره اكثر من ساعتين. عليه ان يجري اتصالاً ضرورياً، على كل حال، بأهله، أو بأقربائه، من أجل تدبير دليل يعبر به حدود تركيا. سيصبح في مأمن هناك حتى ترتيب الأمور، أو بلوغها حدّها الأقصى. لكن أين يتصل بهم؟ ومن أيّ زقاق يدخل الحيَّ الذي يترصّد أناسُه ودجاجهُ كلَّ عابر؟. لابد أن الخبر ملأ البيوت، والتكهّنات بما سيجري تتأجّج كرؤوس لُفافات التبغ في الأفواه الشرهة.

يميل الشاب صوب البساتين، في محاولة لإعطاء نفسه فرصة تفكير صائب. وإذ يصل الى أوّل جدول حفرت مجراه معاول الفلاحين من أجل السقي، يرفع الحطّة عن رأسه، ثم يغرف الماء ملء يديه، ويغسل وجهه ورقبته، ممسّداً شعره القصير بما تبقى من قطرات عالقة بأصابعه. إنه بكر إخوته الذكور، وتكبره اخته «برينا» وحدها، التي تزوّجت الملا «بيناف» بعد موت زوج الاخير بستة اشهر. ثمت تفاوت في العمر، لكن الملّا كان حكيمًا، برغم العُهْدة التي أورثها لعروسه، والتي تبلغ أربعة أولاد. فقد خفّف الامر عليها، وهي الغريبة عن بيت لم يكن لها يدُ في تجهيزه، حتى غدت جزءاً منه، وغدا الأولادُ أولادَها.

«إيـ يـ يه» يتنفّس الشاب المقبل على سنته الثانية في الثانوية، وهي سنة

ستطول لتشمل سنين من عمر العائلة، من غير أن ينال شهادتها الدراسية قط.

ينظر في اتجاه الحدود، وقطرات الماء تنزلق في رفق فوق أنفه المحدَّب قليلاً، ثم ينظر الى يديه المغمورتين بالماء الشفيف. يحرك أصابعه فوق القاع الطينيّ للجدول فتنبعث غمامات صغيرة كَدِرَة، ما تلبث أن تستقر على القاع، ثانية، بثِقَل، ويعود للماء صفاؤه.

فَكرة الفَرار تتلاشى رويداً رويداً، ورهبة الجريمة تشفُّ حتى تغدو استسلاماً لمصير يرى الشاب أن يدفع به الى منتهاه. فهو يعرف، مُسبقاً، بحكمة الشماليِّ الذي لا يرى إلّا المرَّ حتى الموت، أو الحلو حتى الضجر، ما ستؤول اليه الانتقامات. لكنه يستشعر في نفسه، إضافة الى هذه الفراسة، رغبة في اختصار المسألة؛ رغبة في جعل الهول شديداً الى درجة تشلُّ مَنْ يفكر في أمرٍ آخر.

سينفذ بجلده إذا عبر الحدود، غير أن الجهة التي سيصلها لن تخفي حقيقة ما سيجري في الجهة الأخرى من الأسلاك: أبواب ستوصد على الخوف، ومزاليج حديدية ستحل محلّ المزاليج الخشبية خلف البوابات. دجاج سيختفي اذا عبر باحة مالكيه، هنا وهناك. أعواد ثقاب مشتعلة، وخِرَق مبلَّلة بالكيروسين ستعبر أسوار الباحات، علّها تصادف ما يشتعل فيشتعل المكان برمَّته. قهقهات استفزاز ستعبر الأزقَّة كفخاخ مهيَّأة للقنص. أطفال سيعودون الى بيوتهم مُهشَّمي الجماجم والأعضاء، ومثلهم النساء والبنات مشعَّثات الشعور، ممزّقات المناديل. مقاهٍ وأرصفة كثيرة يرتادها المتخاصمون ستخلو للقويّ وحده، والآخرون سينزوون.

«لا» ينتفض الشاب. «فعلتها ولن أختفيَ. سأقول للكلاب إن لها أذيالاً إذا نَسيتْ ذلك. متى كان على أولاد «عقدي» ان يختفوا؟». ثم نهض، وقد أخفى وجهه بحطّته من جديد.

الشمس في مغيبها، وابن «عقدي» يعبر فرعاً غربيّاً من نهر «جغجغ» في اتجاه قرية الهلالية. لوالده اصدقاء حميمون في المهنة هناك، والايام السيئة لا تحيل السيد الكريم الى عبد منبوذ بين عشياتها وأضاحيها. يقول لنفسه: «فلأتَّجه الى بيت سُمُّو الميرسيني، فهو الأقل حكمة، والأشدّ فظاظة. لا أريد حكيمًا من هؤلاء ينصحني بغير ما أريد. لا أريد مداورات الطيبين البُلهاء».

يجاوز ابن «عقْدي» الهضبة العالية التي يجري في سهلها ذلك النُّهَيْر، مخترقاً دغلاً صغيراً هو آخر امتداد لما يشبه الغابة من جهة الجنوب. ذيل من الشجر في ذلك الجسم الكثيف، لا يلبث أن يتّسع على شكل مساحات هائلة من العُلَّيق النّهريّ، والصفصاف، قبل أن يغيب في ما وراء الحدود التركية.

نقيق صاخب للضفادع يغيب عنه في عبوره، وكذلك الخفقات الكثيرة لأجنحة الشّقراق وأذيالها المنبسطة كراحة اليد. المخفر الصغير المبنّي من اللَّبِن يلوح على المشارف الشمالية للقرية، التي لن تكون إلّا ضاحية، في ما بعد، من مدينة «قامشلو». وفي المخفر، عادة، بضع دركيِّين لا يؤبه لهم، لكنهم خطرون كسُعاةٍ لطلب النجدة من المدينة.

المسافة بينه وبين المخفر مديدة، لذلك لا يحسّ بوجلٍ ما. يمضي على شكل قوس من الهضبة في اتجاه الجزء الجنوبي الشرقي. بيت «سُمُّو» منعزل عن البيوت الاخـرى قليلاً. السراج مضـاء برغم بقايا ضوء نسيها المغيب على الأسطحة، والنتوءات الترابية المبثوثة كجدريٍّ على تخوم القرية. الباب نصف مفتوح. يدفعه ابن «عقْدي» بيده دون استئذان، فيرى العائلة مجتمعة حول صحفـةٍ من الـبرغل الذي يتصاعد بخاره. يومىء الشاب للرجل متجاهلاً العيون الفضولية، فينهض «سمُّو» مقطّباً، ويتجه الى الوافد الغريب، قائلاً لأولاده، من غير أن يلتفت: «أكملوا طعامكم». وحين صار في مواجهة الباب تنحّى الشـاب خارجـاً فخـرج الرجل خلفه. نزع ابن «عقْدي» حطّته عن وجهه، فاتسعت عينا «سمُّو»: «مجيدو لاوي عفدي؟!»، فردّ الشاب: «نعم. اسمـع يا سمُّـو ليس لديّ وقت للشرح. انا في حاجة الى بندقيتك وحزام الـطلقات». رفع الرجل حاجبيه: «بيتكم مليء بالبنادق والطلقات؟»، فردّ الشاب مخفياً تذمّره: «قصدتك لأنك لا تكثر من الأسئلة يا سُمُّو».

كان ردّ الشـاب كافياً ليتّجـه الـرجل الى الداخل، ثم يرجع ببندقية وحزامين من الطلقات. نظر ابن «عفدي» اليه، وهو يتناول ما طلبه، دون ان يتفوّه، قبل أن يستدير على عقبيه، ويعود من حيث أتى.

الهواء يغدو ثقيلاً من الطقطقات الخفيفة التي يحملها في عبوره. هذا ما يحسّـه «الحيوان» السـابـح في الـزلال الدبق بذاكرته. أشياء تتعرى لتندفع أسرارهـا من ظلام الجـوهـر. أرض تتعـرّى في حياء كجوزة القطن. عراءٌ يتعرى. «العُرْيُ هو الطَّرْقةُ الاولى على الباب الذي سيظل موصداً»، يقول «الحيوان»، ثم يحصر المشهد بمرصده من جديد. «إبدأي. ابدأي»: همسة

الاثارة في انتظار الطَّفرة الحيَّة. «هاا!» : رجفة ذهول ترافق صوت «الحيوان».
«هاا!!» يُطلقها مديدةً من اعماقه وهو يرى النَّرْدَ الساحر للحياة متدحرجاً في السكون: شعاع لولبي يكسر القشرة الرطبة تحت ظل النبات الذي لم يكن نباتاً قط، بل أشكال حجر بنفسجي تكاد تكون صورة من صور السّرخسيّات. الشعاع يتكوّم كأخطبوط في كتلة واحدة، ثم يتهدَّل مترجرجاً. ما من شكلٍ له، لكنه حيّ. خليط من اللون يتخثّر تارةً، ويميع تارةً اخرى. يلمس الارض ثم ينفصل عنها ثانية، كأنما يدُ تجسُّ يداً في حياء. يتمدّد منتشراً كالريش، ساقطاً في تمايل، ثم يلتقي ليصعد خفيفاً. حركة رشيقة تصحبها همهمات صادرة من لا مكان.

يكاد «الحيوان» أن يتوقّف من ثقل ذهوله، لكن الأذيال التي ترتطم بجنبيه، من حركة الحيوانات المتسابقة مثله، توقظه، فيمضي محموماً في ظلام النفق.

إنه يصغي بذاكرته الى الإشراقة الحية؛ بذاكرته المعتمة التي يضيئُها ماضٍ ممتدّ الى الأقصى الغامض، وها هي تمتلىء بالخليط اللونيّ، المنبثق من ذاته، بطفرةٍ تلقائية، كأنما إرادةٌ كامنةٌ، خارج أية ضرورة أو سبب، تفجّرت بتركيز خارق منها على أن تكون ذا ذاتٍ، فكانت؛ بل عدمٌ ألقى بنفسه الى الملهاة، ساخراً من سلطانه الصارم المديد، خارجاً على قانون صمته وثقله.

الخليط اللوني يدور على نفسه كزوبعة صغيرة، وإذ يصير مدوّراً كقُرص، يهبط حتى يستقر على الأرض الرطبة. وشيئاً فشيئاً يتجمّد مثل خثارة اللبن. المتعرجّات اللونية الصافية تأخذ هيئة نقوش صلبة، وما تبقّى من أمزجة رمادية، أو خضراء مسودَّة، يصير الى معدنٍ متين.

يفتح «الحيوان» دَهَشَةُ على مصراعيه: «هذا درع!!».

درع معدني كأكمل ما يكون، مزخرف في فوضى تقارب الاتقان الصارم. ولو رفعتْهُ يدُ عن الارض قليلاً لبانَ في تجويفه مقبضان، مما يجعلهما المحارب في ذراعه فيُحْكم الامساك به.

درعٌ إذاً. أنجزت الأشراقة درعاً!!. «وَيْحي» يهمس «الحيوان»، «أهذا بدء المشهد؟».

المغيب يستكمل جمع الشارد من ألوانه كما يجمع الراعي غنمه الشارد، ثم يوصد الباب خلفه، في الجهة الغربية من قرية الهلالية. وابن «عفدي» يرجع من المسالك ذاتها التي جاء منها، مروراً بدغل الصفصاف، وانتهاءً

بساتين الحلبيِّين. البندقية العجمية مُلقَّمة. حزام طلقات على وسطه، وآخر على الكتف. ما من رهبةٍ تسوقه الآن الى الأزقة المظلمة، من جهة الشمال، بل استسلام عذب لسحر المأساة. وهو يحاذر، في عبوره، أن يرى شبحٌ ما شكل البندقية، لذلك يرخي فوّهتها إلى الارض، في موازاة جسده الخفيف.

ساحة بيت «باقي جواني» مكتظَّة بالنادبين الباكين والصامتين. زوجه جالسة لصق حائط، مشعّثة الشَّعر، واجمة، يحف بها أولادها الصغار كقطط مبتلَّة. بعضهم يلتصق بها، وبعضهم يحوم ناظراً اليها كَمَنْ ينتظر لعبة مرحة. النساء الواقفات حلقةً من حولها يتأوّهن، ويعتصرن أحداقهن أسفاً. وقد تبادر إحداهن فتلطم صدرها مرّة أو مرّتين، بانتظام، هامسة: «وا.. باقي جواني».

كان واضحاً أن الباكين استنفدوا بكاءهم، فباتت التأوّهات الجافّة، واللطمات الخفيفة، بين حين وآخر على الخدود والصدور، هي كل ما يمكن تقديمه من مظاهر الأسى لزوج القتيل. أما الرجال، الذين تجمهروا مقرفصين، على مبعدة من النساء، فكان أساهم صارماً ووقوراً. إخوة «باقي جواني»، وأعمامه، وأولاد أعمامه، مطرقون. «سطّامو لاوي حجّي عباس» ينظر اليهم فرداً فرداً بتحريض واضح. القتيل أحد رجاله، لكن لا صلة قربى بينهما، لذلك هو مُعْفى، بالطبع، من دفع أية ضريبة للنزاع الذي سينفجر. أعليه أن يطلق قهقهةً ما، وهو يرى ببصيرته الخبيثة، ما سيجر التناحر عليه من مجدٍ؟. لا. سيكتم القهقهة، والوقت سيتكفّل بإزاحة عائلة «عفدي ساري» من طريقة الى الأبد، بأيدٍ لن يدفع لها قرشاً، ودمٍ لا شأن له به.

«كيف يتجاسر ابن عفدي؟» قالها «سطّامو» دون أن يرفع نظره عن كرشه المندلق بين فخذيه القصيرتين. بعض الرجال وافقه بهزّ من الرؤوس، وآخرون لم يَخْفَ عليهم التحريض البينُ في سؤاله، فألقوا عليه نظرة تَزِنُهُ بلحمه، وشحمه، وعقله الباهت كضوء القنديل الذي بات يضيء الساحةَ.

جثة القتيل في الداخل المعتم للبيت، ملفوفة بكفن أبيض ذي بُقع تميل الى البرتقالي، وهي ما تبقّى من سائل ينزفه الجسد حين يستنفد الدم. لن يرى أحد تلك البُقع، بالطبع، في ذلك الظلام، لكن للجثّة رائحة تشي بما أصابها، حتى لو كانت طازجة بنت دقيقتها. تلك مسألة لا تخطئها أنف من يرى جثّة عادية أوّل مرّة، فكيف بهذه، وهي تحمل ستة ثقوب، ولها رهبة القتل الجاثم كديك الحبش على بيضٍ لن يفقس غير القتل؟.

الجثـة في الـداخـل، نضرةٌ بصمتهـا الذي يعقب الغَسْل والصلاة، وستكتمـل تلك النضـارة حين تنبت اول عشبـة فوق التراب الطري الذي سيغطيها. لكن الواضح ان لا احد في عجلة من امر التراب. قد ينتظرون الى الغـد، وقـد يدفنـونها الليلة، وهم يحملون مصـابيحهم الصامتة الى مقبرة الهلالية. من سيتكهّن بهذا او بذاك؟. رؤوس الأقرباء مشتغلة بالغضب لا بالجثّة، ورؤوس المعزّين الجيران مشتغلة بالعودة الى منازلهم، لتناول العشاء، والحديث عن المسألة صراحةً، دون رقيب أو مجاملة.

ابن «عقدي» يحاذي سور بيت «باقي جواني». يسند ظهره الى الحائط، ويستطلع الزقاق من أوّله المعتم الى آخره المعتم. انه يسمع، واضحاً، همس الـرجـال في السـاحـة، وتـأوّهات النساء المكتومة، وكذلك ركض الاطفال الـلاهين وزجر الكبار لهم. باب السور مفتوح كالرّهبة، لكن ذلك لا يفي بالأمر. عليه اختيار الزاوية التي تصل ركن السور بالحائط الخارجي، حيث ثمت فسحة مربّعة يمكن حصر الساحة منها، والاحتماء بالجدار، أيضاً، إذا لزم الأمر. يرجع الشاب مبتعداً عن البوابة، وإذ يدرك ذلك الركن يعلوه في خفّـة لضآلة علوّه، ثم يتفرّس في الاشكال بتمهّل، وقد وضع البندقية بين ساقيه المنحنيتين فيما يشبه القرفصاء.

بيت «عقدي ساري»، الذي يقع في بداية الزقاق ذاته، يشهد حشداً خفيفاً بدوره، دون ضجّة. بوّابته موصدة، وفي الداخل أولاده، وبعض أبناء إخوته، ممن حضروا تحسُّباً. بنادق مُسندة الى الجدار من الداخل، ملقّمة كما ينبغي. لُفـافـات صامتـة تومض في خجـل. لم يشعـل احد سراجاً، كأنما سيخفّف الظلام، الذي يخبّىء قسمات الوجوه، بعضاً من ثقل الكابوس. لقد اختـار «عقـدي» هذا النّقـر على مصـير عائلة حين دفـع بالمسدس الى ابنه «مجيدو»، لكن الحياء من الموتى يدفعه الى الحياء من المسّ بأحزان أحيائهم. كان عليه ان يبدو اكثر فخراً وقد أُنجزت المهمة. كان عليه أن يضيء مصباحين بدلاً من مصباح واحد، وان ترتفع قهقهته القوية كمن يبلّغ أمراً الى الحارة كلّها، وفي ذلك ما فيه من إنذار القوي باستعداده للمضي أبعد مما جرى: إنها لعبة الجسارة، والثمن محسوب سلفاً. بيد أن «عقدي»، الذي فَقَدَ الكثير من سطوته، ارتأى منحىً هادئاً، بالرغم من الحاح أولاده، وأولاد إخوته، على إضاءة المصباح، والسلوك مسلك غير العابىء، وليكن ما يكون.

اقتربت زوج «عقدي» سائلة ذلك اللفيف ان كانوا جائعين، فهَمْهَموا:

«لا». اللُّفافات المشتعلة، والترقّب، يكفيان. لا كلام، والآذان تترصّد الهمهمة البعيدة الصادرة عن بيت «باقي جواني». وعلى حين بغتة نهض الجميع متحفّزين. بل همّت الأم وابنتها أن تركضا الى الداخل لجلب البنادق، لكنّ ما جمّدهم على حالهم تلك أن الأصوات ظلّت بعيدة، وكذلك الصخب العارم الذي يستشعره الانسان في حركة جَمْع مُجْفل داهمه الذهول والرعب. والكلمة الوحيدة التي صدرت من ذلك الظلام هو ما همس به «عفدي»: «ماذا جرى؟».

طلقات بدّدت انتظار الزقاق. طلقات عَجولةٌ تسبق في سرعتها ما تحتاجها يدٌ الى التلقيم والإطلاق.

من فوق الركن المربّع للسور كان ابن «عفْدي» يختار ضحاياه الجالسين حول السراج. إخوة «باقي جواني» الاربعة تهاووا. كان حين يسقط احدهم يتسمّر الآخرون وقد جمّدهم التخبُّط والحشرجة. لم يبارحوا مكانهم أبعد من متر. أما بقية الحاضرين فتناثروا كبطيخة حمراء تسقط من أعلى على أرض صلبة. أولاد أعمام القتيل هرعوا الى داخل الغرف يحتمون، والجيران الى البوّابة.

ابن «عفْدي» يميزّهم في الظلام، وقد وضع طلقات اضافية بين اسنانه ليسهل عليه تلقيم البندقية، إذ أن سحب الطلقة من الحزام الجلدي يأخذ وقتاً. عينه تتحوّل الى مرصد للموت، وفي إمكانه أن يرى على رأس الضحية المُخْتارة هالة من الحباحب المضيئة تحدد الهدف بقدرة قادر. وهكذا لم يخطىء اختيار احد اولاد الاعمام ايضاً، إذ حاول الانسلال مع الجيران الهاربين عبر البوابة: سقط في صخب فداسته الأقدام.

حين خلت الساحة، ولم يبق إلاّ عويل نساء، وبكاء أطفال يتناهى من الغرف الموصدة باختناق، اتّكأ ابن «عفدي» على الحائط الذي يعلو السور، ملتقطاً أنفاسه العابقة برائحة البارود وسخونة السَّبطانة. لقد خطّط للدخول في هذه الحمّى من غير أن يفكر بالخروج قط، والبقاء حيث هو اختيارٌ أخير: النهاية ستستكمل ذاتها بشكل أو بآخر، والنهاية مَخْرجٌ على كل حال.

دقائق ثقيلة تضرب بمطرقتها أرض الساحة. أبواب الغرف تُفْتَحُ في وَجَلٍ لتطلّ منها أنصاف رؤوس تستطلع الهول الحائم فوق خمس جثث. العويلُ يتصاعد تدريجاً، وكان قد احتبس بفعل الرعب. رجال يلكزون الرجال

ليتجاسروا على الخروج، وفي اعتقادهم ان من فعل الأمر لن يظلّ قابعاً في مكانه.

خرج المتجاسر الاول فتبعه الثاني. اطمأنّ الاربعة الآخرون فاندفعوا بدورهم. كانوا يتلفتون كالقردة، ناقلين أبصارهم بين السور وسطح البيت. النساء تقدَّمن أيضاً، أيديهنّ الى الاعلى في ضراعة يائسة، وقد تعلّق الاطفال بأذيال أثـوابهنّ الطويلة. وإذ اكتملت حلقة المذعورين تحت ضوء القنديل الذي كان يضيء، في مامضى، مجلس الرجال، دوَّت طلقات أخرى.

خانت الـرُّكَب حامليهـا، لذلك تلقَّفت بندقية ابن «عفدي» رجلين آخرين، بعد سقوط المرأة التي سدّت مرماه في اول طلقة. زحف الهاربون على بطونهم زحفاً، وقد انطفأ السراج من سقوطهم عليه. سراج آخر، بعيد قليلاً، في الجهـة التي كانت النسـاء يجتمعن فيها، من قبل، أضفى على الزاحفين شكلاً مضحكاً. وهنا اخطأهم القنّاص بطلقتين، لكنهما كانتا كافيتين لرجّ أعماق أقرباء «باقي جواني» مدى ثلاثين سنة.

تراجـع شبـح ابن «عفْدي» الى الوراء ثانيةً، مغمض العينين، كأنما يحاول ان يستوعب المشهد من الرنين الذي يملأ أذنيه. صدغاه ينبضان مع كل ضربة من ضربات قلبه، وومضات خاطفة من ضوء باهر يـشـرّد الذاكرة فلا تقع إلاّ على الفراغ الأعمى. الجدار يتمايل. لا، جسده هو الذي يتمايل، وشخص ما، من أسفل، يشدّه من طرف قفطانه. سدّد البندقية وقد انخلعت رئتاه من المفاجأة، فبادره الشخص، من الظلام: «أنا عمّك جَهْوَرْ يا مجيدو»، وقبـل أن يستدرك الشاب المُباغَت معنى الكلام، جرّه عمُّه بقوة، هامساً: «إنزل، والحق بي».

طوال يومـين لم يخرج أي فرد من أقرباء «باقي جواني» وعائلته. ظلَّت أبواب الغرف موصدة من الداخل برغم القرع العنيف للشرطة عليها، طالبين منهم الخروج، مؤكدين أنّ ما من شبح يترصَّدهم الآن، وهم في أمان حقيقي. ولم يرجع اليهم رشدهم إلاّ بعد اخلِعت الأبواب بركائزها، وبانت لأعينهم ثياب عسكرية توحي بهيبة مفقودة.

«درع؟» يردّد «الحيوان» السـابـح في الـزلال الدبق. «درع. درع. فكاهة. ذاكرتي ملأى بالفكاهات. أنا فكاهة. هذا السباق كلّه فكاهة. لابد أن قهقهـة ما تنتظرني، حين اصل. وهذه الجثث كلها.. هذه الجثث التي ارتطم بها في ظلام النفق هي دغدغة الموت على خاصرتي. لو ان لي فمًا لالتفت

اليهم صارخاً: إنها مهزلة. وماذا لو كانت لهم افواه، هم، ايضاً؟ انهم ليسو أقلّ معرفة مني. كان عليّ أن أشعر بذلك منذ البداية، لكن لا فم لأحدٍ ليخبر الآخر. فكاهة. . فكاهة» وتوقّف ليلتقط نفساً فتذكّر أن لا رئة له.

كان أشدّ يأساً من ان يتابع السباق. حاول التماس جسد ما في ذلك الظلام، فلم يقع على شيء. دار بذيله يمنة ويسرة من غير أن يصطدم بجثّة حتى بدا مُباغَتاً من صمت الزلال الدبق، وفراغ الممر أمامه، ومن حوله. لقد جرت العادة، كل لحظة، أن يزاحمه أحدُ، أو يزاحم أحداً؛ أن يلامس ذيله عابـِـراً ما، أو يلامس جسـدَهُ ذيلُ عابرٍ ما؛ أن يُجاوز البعضَ وان يجاوزه البعضُ، حتى بدا له وكأن السباق انتهى. «لا» قالها لنفسه، «ليس هكذا تنتهي المهازل عادةً»، ثم تفكّر قليلاً قبيل أن يهمس، كمن أدرك سرّاً غير مُقْنع: «أتُراهم تبصَّروا، مثلي، في أمر الدرع؟ أتُراهم قهقهوا حتى انفجرت أحشاؤهم سخرية مـمّا وجدوه بعد كل ذلك العناء؟».

كان خالياً من أية رغبة إثر تساؤلاته. حـمّـى السباق لم تعد حّمى، وما من شيء يعزّي الذاكرة، التي استنفرت ماضيها الغامض لتصطدم بدرع.

تكـوَّم «الحيوان» على شكل حلقة تصل الرأس بالذيل، كأنما يودّ أن يغدو نقطة فحسب، لينتقم من الشكل الذي حاول، جاهداً، ملامسة جذرٍ من جذور حريته، هناك، في الأبعد القابضِ على مأساة الأشكال.

«عفدي ساري» يرجع بعائلته، ثانيةً، من التحقيقات التي استمرت يومين، في المخفر ذاته. وكان الفرق الوحيد، هذه المرة، في كل ما جرى، أن الرقيب العسكري بدا اكثر احتداداً بسترته المفكّكة الأزرار.

لفيف من الرجال والنساء كانوا ينتظرون العائلة في ساحة دارهم. وأوّل مرحّب بعودتهم كان الملاّ «بيناف»، زوج ابنته «برينا». وقد بدا «عفْدي» اكثر انشراحاً، كأنما استشعر ان المأساة، بهولها، استنفدت ذاتها تماماً، ثم مسَّت العدوى الخفيّة الآخرين فدار بينهم كلام فَكهُ لا وجوم فيه.

كانت ضربة ابن «عفدي» ضربة معلّم، إذ ما من أحد يصل بقرابة الى «باقي جواني» فكّر، أو هَمَّ بالتفكير في ردّها. فالألم الذي استفحل كان كفيلاً بشلّ جيل برمَّته، حتى ان عائلة القتيل انتقلت من بيتها الذي يقع في آخر الزقاق الى جهة مجهولة، خوفاً من أن يستفزّ وجودها غضب البيت الذي يقع في الجهة المعاكسة من الزقاق ذاته. ولقد أحسّ «عفْدي ساري» بهبوب نسمة رخيَّة من الحظ، بعد تلك المأساة، قد تفتح أمامه، من جديد، ذلك الباب

الـذي أُغْلقَ إثر دسائس لم يعرف مصدرها. فالأقوياء، الذين تجاهلوه بعد محنته، عادون يمدّون جسورهم اليه في خجل، بل بات بعضهم يسأله المشورة في هذه الصفقة، أو في تلك، ملمّحين الى رغبتهم في اشراكه معهم كسيِّد. غير أنه كان يخفي رغبته في معاودة المهنة، خوفاً من ضربة جديدة.

إزاء ذلـك الانفـراج الُمباغِت قرّر «عقْدي» البحث جدّياً عن مصدر الوقيعة التي أخذت بالكثير من ماله وهيبته، فإن ظفر بالأمر فإنها ستكون عودته عودة محمودة العاقبة. وتحرّي المسألة، على كل حال، سيغدو سهلاً بدوره، فللأقوياء عيون بين الأقوياء.

«سـطّامـو لاوي حجّي عبـاس» فكـر بنقل بيته من تلك المدينة الى «ترْبَسْبي»، وهي قرية كبيرة تقع الى الشمال الشرقي، على مبعدة ما يقلّ عن مائتي كلم، حيث الامتـدادات الشرقية لجبال طوروس، والقاطع الحدودي الذي ترسمه مياه دجلة مع العراق. فكر «سطّامو» ليل نهار، ليبتعد بما حصل عليه من مجد صغير قبل أن تُودي به طلقة مباغتة.

كان يفكر وهو يشمّ الدَّويَّ من ثيابه وجلده. لقد سقط قتيلان ببندقية ابن «عقْـدي» فوق صدره، قبـل ان يستـطيع زحـزحـة جسمه الثقيل عن الأرض، ليهـرب ككرة متدحرجة من بوّابة «بافي جواني». وهو لا ينسى ما رأى، أو توهّم انه رأى، في ذلك الضوء الخافت للسراج: يد إحدى الضحيتين تشبّثت بحـطتـه فانزلقت الحطّة مع الجسد المتهاوي. فم الضحية الاخرى همهم بكـلام قرب وجهه فانبثق منه الدم. وقد انتظر «سطّامو» شهراً لتهدأ الأمور، وحتى لا يغدو انتقاله موضع شبهة، ثم انتقل فعلاً، ليلحق به من يكمل المشهد الذي لم تكمله ذاكراته هو، بعد ستة اشهر من ذلك التاريخ.

كان «عقْدي ساري» ينظر الى احوال الملاّ «بيناف»، زوج ابنته «برينا»، بإشفاق، فلو تمكّن من اشراكه بقليل، او بكثير، في أعماله القادمة، لأمكن للأخير أن ينهض قليلاً من مكيدة الـقـمـح الذي عاكسه، لكن الملاّ صعب ونـظيف، وهذه عقبات تقتل المجد عادةً. وقد ارتأى ألاّ يخوض الامر معه مباشرة، بل ان يكلّف ابنته ذاتها بجسّ نبض هذا الرجل الذي لا يبتسم إلاّ لِـماماً. وإذ حاولت المرأة إقناع الرجل ردّها في غضب: «مضاربات يستخفّ التجـار فيهـا بـأرواح من يرسلونهم عبر الحدود. مشتريات بقروش تردّ من المبـالـغ ما لا يحصيها إلاّ الله. يقتل بعضهم البعض ليستأثر بالمهنة. وهم يتعدّون ذلك يا امرأة. يتعدّون الحدود. ينتقلون من التبغ الى الأفيون. ما

هو الأفيون؟ سمعنا الكثير عن أهواله، جارنا «محمد حُسُّو» يقضي عشرين عاماً في السجن على نقله الأفيون في الجوارب المبطنة الى العاصمة. أتريدين لي مصيراً كهذا؟ ليس حلالاً هذا، ولن أُطعم أولادي طعاماً من نار. . ». وإذ أخبرت الابنة أباها صرف الرجل النظر مؤقتاً عن إقناع صهره.

لم يكن خافياً على أحد أن «مجيدو عڤدي ساري» قد عبر الحدود الى تركيا، وأنه صار واسطة أبيه هناك، من «نصيبين» الى «ديار بكر»، المدينتين التركيتين. فهو يواكب البغال المحمَّلة بالتبغ الذهبي حتى الأسلاك، ليسلِّمها لمن يتولّى الجانب الآخر، واسمه اسم شبح يرفرف فوق الرؤوس، من «أضنة» إلى «درباسية». هذه منطقة نفوذ التبغ، اما «تِرْبَسْبِي» وما يجاورها من القرى فنصيبها خيرات العراق من التمر، والمناديل الموصِلِّيَّة، والحناء.

لقد وجد ابن «عڤدي» لفيفاً ممن كانوا عملاء أبيه، في ما مضى، في «ديار بكر»، حين عبر الحدود، بعد ليلة المجزرة، مع عمّه «جَهْوَرْ»، فأحسنوا وفادته، بتوصية من «جَهْوَرْ» ذاته، الذي لن يتوانى عن أكل زوجته إذا جاع. وقد كان رقيب أخيه في الصفقات، قبل دسائس «سطّامو». فما من وكيل يستطيع اخفاء كيس واحد من التبغ بدعوى القائه في النهر، أوتركه خلفه، إثر مداهمات حرس الحدود بعض الاحيان، سواء أكان صادقاً أم كاذباً، وسيأتي بالكيس، أو بثمنه، من ماله أو من مال الشيطان. اكثر من وكيل اختفى بعد تلاعبات من هذا النوع، وكان في استطاعة المهرّبين أن يروا جثثهم أشلاء بين الألغام التي يعرفون مواقعها. فممرّات العبور السّرية ملأى بالألغام عادةً. الجيش التركي يتولّى ذلك، والمهرّبون يتحدّونهم في تلك الممرات. وهم يسمّون اللغم باسم «الابريق». ألغام بدائية ضد الأفراد، لها جسم متطاول. وطريقتها أن توضع في حُفر متقاربة ثم تُغطّى بالتراب، فإن وطأها حيوان، أو إنسان، انفصل الطارق عن أمانه، وإذا ما ارتفع الثقل عنها اشتعل الصاعق وتفجّر الجسم المعدني. المهرّبون يعرفون ذلك. ولّما لم يكونوا يملكون خبراء في تعطيلها، فقد عمدوا الى وضع ألواح ثقيلة من الخشب فوقها. ولأن الألواح لن تتحرك بالطبع، فالفتيل القاتل لن يشتعل إذاً.

يأتون ويمضون و «الأباريق» على حالها. و «جَهْوَرْ»، الذي يعرف ما يعرفه الآخرون، كان ينقل الوكيل الغشاش مقيّد اليدين، مكمّم الفم، جرّاً بحصانه، ثم يمدّده فوق لغم ويبتعد، بعد ربط الجسم بحبل طويل. بعد ذلك يسحب الحبل فينزاح الثقل عن اللغم فينفجر.

«جَهْوَرْ» توصيته التي لا تُرَدُّ. وبعد عودة الإشراقة الى اسم «عِقْدي» بات الابن موضع احترام جمٍّ، إضافة الى توصية عمّه.

ثمة نول خفيّ يغزل الامور كلّها بإتقان. «سطّامو» صرخ «عِقْدي»، مضيفاً بلهجة من أعياه صبره: «سطّامو آه». لقد أدرك رأس الحربة في مأساته من ثِقات لا يكذبون. هذيانه يعلو، و«جهور» يخفّف عنه: «الليلة سينتهي سطّامو يا أخي، فاهدأ». و«عفدي» لا يهدأ: «سطّاموا!! ماذا فعلت بسطّامو؟ أنا مَنْ زوّج سطّامو، ومَنْ بني بيت سطّامو»، فردّ أخوه: «لا يا عفدي. لا علاقة لنا بسطّامو. كان نذلاً بنْتُهُ النذالة»، فهمهم «عفدي»: «ذلك أفضل. لماذا ظننتُ أنني كنت وراء مجده؟»، فأجابه أخوه: «لأنه كان يتردّد عليك، لا أكثر ولا أقل. من يمنع طارقاً يطرق بابه؟»، ألقى كلمته تلك للتخفيف من احتداد أخيه «عِقْدي».

قال «عِقْدي» بنوع من الهذيان: «أبلغه يا جهور أنه مطرود». جحظت عينا «جهور» قبل أن يسأله: «مطرود؟ إنه لا يشتغل عندك»، فتمتم «عفدي» دَهِشاً: «لا يشتغل عندنا؟».

إن «عِقْدي» يسرع بمخيّلته أكثر من الواقع، كأنما يستعيد مجده الذي كان دفعة واحدة. وفي ظل ذلك المجد لابدّ لـ «سطّامو» أن يكون وكيلاً من وكلائه. وقد أفاق على كلمة «لا يشتغل عندنا»، فصرخ: «عند مَنْ يشتغل إذاً؟»، فأجابه أخوه: «مهنته على حسابه». «على حسابه!! على حسابه!!» ردّد «عِقْدي»، مضيفاً وهو يصرّ على أسنانه: «حسابه عندي»، فبادره أخوه: «لا. حسابه عندي. اهدأ يا عِقْدي».

كان هذا الحوار يشتعل كلفافة «سطّامو» المتمدّد على مسطبة واطئة لصق بيته. مضت ستة أشهر التقط فيها الرجل أنفاسه، وكاد أن ينسى أمر «عِقْدي». له بضعة رجال يحملون أشياء خفيفة، لكنها تفي بحاجات وجاهته المتوسطة. وهو ينتظر الآن استلامهم لمجموعة من بنادق الصيد، والأحزمة النسائية ذات الشناشيل. سيعبرون بها جسر الرومان، القريب من دجلة، بعد أن يتسلّموها من وسطاء يعرفون ثغرات النهر كراحات ايديهم. لكنه يحسّ بكرب ما، غامض، كأنما للحوار الذي يجري بين «عِقْدي» وأخيه، على مبعدة ما يقارب مائتي كلم، أيدٍ خفيّة تتقرّى جسد «سطّامو» ضاغطة بأناملها على أجزاء ستغدو ثقوباً في ما بعد.

وصل «جهور» الى «تربسبي»، القرية ـ الناحية. ويطلقون اسم

«الناحية» على تجمعات اكبر من القرى، واصغر من المدن. فيها حامية من العسكر عادةً، بقيادة ملازم، لا تتعدى مهمتها اكل الدجاج. لن يعرف احد، مدى الف سنة، لماذا كان درك الشمال، وعسكره، يحبون الدجاج. لابد ان طباعاً مشتركة تجمع بين الاثنين. دجاج وعسكر. ومن يتودّد الى خفير يتودد اليه بدجاجة، ومَنْ يتودد الى ذوي الرُّتب يُكثر من ذبح الدجاج. والدرك الجوّالة على خيولهم، في القرى، يطلبون، أول ما يطلبون، الدجاج. لو رصفوا شارعاً بعرض متر، من دجلة الى اسكندرونة بعظام الدجاج لما نفد. القمح الذي ينمو في تلك السهول له طعم الدجاج. مياه الآبار لها طعم الدجاج. الرياح تهب ممتزجة بالريش، وأُولى قطرات المطر لا تلامس الارض بل تلامس الريش. الوسائد من ريش الدجاج، وكذلك المراوح. الأطفال يلصقون كرات صغيرة من الطين بأطراف الريش ثم يقذفونها كالسهام فتلتصق بالجدران. الغضاريف التي تتوسط الريش تستخدم كمكاحل للنساء، والطويل منها لتنظيف البنادق. اذا وفد ضيف على احد ولم تُذْبح له دجاجة، ففي ذلك انتقاص من قدره. تلك مناسباتُ عادةً، لكن اعجاب العسكر، الذين يقضون مأموريّاتهم في الشمال، بالدجاج، بمناسبة وبغير مناسبة، له تصنيف آخر، غيبيّ، اكثر غموضاً من قراءة آية الكرسي.

كان الوقت مساءً شديد الهشاشة تحت المظلة القمرية، حين عبرت سيارة «البيك آب» أزقة «تربسبي». ولم يكن الاهتداء الى بيت «سطّامو» عسيراً، في هذه ا لناحية التي يعرف حتى الاطفال من دخلها، ومن غادرها. توقفت السيارة مثيرة سحابة من الغبار، ثم ترجّل منها «جهور» واثنان آخران. طرقوا بوابة السور ـ ومعظم بيوت الشمال ذات ساحات مسوّرة ـ ففتحتهُ لهم فتاة ذات خفر، ربما كانت ابنة احد الجيران، لأن «جهور» يعرف اولاد «سطّامو». القى الرجل التحية تمتمةً، سائلاً عن صاحب البيت، فأومأت: «نعم، انه هنا». نظر اليها وهو يدلف بالرجلين داخلاً، كأنما يتفحّص وجه الشاهد الاول، الذي سيدلي باوصافه الى الشرطة، وكان وجهاً خجولاً لا جمال فيه، لكن في العينين انكساراً غامضاً لا يمكن للناظر عبوره دون أن يهمّ بسؤالها عن الامر. و «جهور» لن يسألها بالطبع عن انكسارها هذا، بل عن الغرفة التي سيكون «سطّامو» فيها. ففي الساحة اربعة ابواب تفضي الى اربع غرف. وإذ دلّته الفتاة بإشارة من يدها، خطا خطوات واثقة في اتجاه هدفه.

دفع «جهور» الباب الذي لم يكن موصداً، فارتطمت دفّته بالحائط.

نهض خمسة رجال واقفين على أقدامهم من المباغتة، ولم يُبْدِ أحد منهم حركة لرد القضاء المستدير، الصامت، في فوهة البنادق التي توجهت الى رؤوسهم. «لماذا يا سطّامو؟» همس «جهور»، فرنّ الهمس في الآذان، بل جاوز الغرف الى الساحة فصرَّت عتلة البئر الرطبة بفعل الحبل الرطب. «ماذا تريدون؟» ردّ «سطّامو» مرتعشاً. «أتريدني ان اجمع حولك اولادك ليروا رأسك الذي سيتهشم؟» قال «جهور»، فتمتم «سطّامو» في توسُّل: «كان اخوك ظالماً يا جهور، ولم يترك لنا إلاّ الفُتات. ظلمنا فظلمناه. تعادلنا إذاً»، ثم أطرق خجلاً من هيبته المُهْرَقَةِ أمامِ ضيوفه، مكملاً: «نفيت نفسي عنكم، ألا يكفيكم هذا؟».

دفع «جهور» بفوّهة البندقية في كرش «سطّامو» حيث تأوّه، صارخاً: «سأحفظ لك كرامتك أمام هؤلاء. تعال معي»، ثم التفت الى ضيوف «سطّامو» قائلاً: «لم تروا شيئاً. قولوا للشرطة إننا من لا مكان. اولادكم ينتظرون أن تأتوهم برزقهم. لا تحرموهم بالله عليكم»، ودفع «سطامو» أمامه، حتى إذا وصل إلى البئر بادره، «حفظت كرامتك. لن يروا فمك القبيح مفتوحاً، وعينيك جاحظتين»، ثم أومأ برأسه فاخترقت جسد «سطّامو» ثلاث رصاصات، فهوى. لقَّم الرجال بنادقهم من جديد، واطلقوا ثلاث طلقات اخرى على أعماق البئر، حيث يتخبّط الماء مذعوراً من الظلام والدم.

«الحيوان» السابح في الزلال الدبق لا يرى غير كآبة أعماقه الآن. إنه لا يتقدم، لكن ذيله يتحرك يمنة ويسرة بطريقة آلية من أثر السباق الطويل. يحاول أن يوقف الذيل فلا يجاريه الأمرُ الذي يصدره الدماغ، عادةً. الذيل مستقلّ عن الجملة العصبية لـ «الحيوان»، واستقلال ذيله يدفعه أماماً من غير أن يتقدم، هو، إرادياً. حُمّى جديدة تحلّ محلّ حمّى السباق: انقلابات الأعضاء.

ليس لـ «الحيوان» على كل حال، اعضاء كثيرة: رأس مستدير متصل بذيل، لا أكثر. ما من خيارات في هذه اللعبة. هاجس الدرع، وصورته، يسيطران على الرأس فيشلاّنه، والذيل لا ينصاع. على الدرع ان يحسم المسألة إذاً: أن يشلّ الرأس نهائياً ليتوقف الذيل، أو يخلق مبرّراً لاندفاع الذيل يقتنع به الرأس. «الدرع. الدرع» يتمتم «الحيوان». وكأنما باغتت الكلمة ذاكرته، فالكلمات المعهودة تباغت الذاكرة بتردادها، فإذا النقوش ترتسم في العراء من جديد، وإذا المعدن، الذي أعطى الدرع شكله الصّلب، ينحلّ

الى هلام، ثم يتناثـر كسقـوط قطرة سائل على حجر اللُّوينات تغذو أنفاقاً مظلمة، والأبخرة الخالية من اللون تتراصف كحجارة ملساء على أرض المعابر.

«الحيوان» يتـدحـرج في الزلال. ريح خفيّة تقذف به، سريعاً، عبر مجراها، ومنافذُ ما، كأفواه نهمة، تمدّ ألسنتها لتلتقطه.

ظلام النفق لم يعد ظلاماً، بل مِـحَـفَّـةً تحمل «الحيوان» الى سطوته التي تنتظره. شعاعات حامضة تتغلغل في ذاكرته لتعطيها طعمًا. كان يرى، من قبل، بأعماقه فحسب، لكن الطعم شيء آخر. الطعم هو الجوهر. الحامض العـــذب هو الجـوهـر. كل شيء حامض في النفق. الـظلام مضـاء بطعم حامض. الزلال حامض. الحمّى محضُ تذوُّقٍ للحامض. لماذا لم يعرف مذاق تلك الحمّى من قبل؟ الحمّى هي الحرية.

نشوة عارمة تجعل «الحيوان» مستسلمًا لتلك الدحرجة؛ مستسلمًا للظلام البهي الذي يرفع اليه أُبَّهة الإمارة، مرتعشاً بكلِّه، كالُمقْبِل على عذوبة لن تنتهي.

لا فم لـ «الحيوان» ليصرخ صرخـة الَمْتَـدِحِ للكُـلِّ، لكنـه يتشظّى ويلتـمُّ. سهام مريَّشة بمجرّات أعماقه تملأ النفق المتفتّح كَكَرَمٍ في يدٍ كريمة. دورع رقيقـة تتـمايل ساقـطة برخاء من شجراتها، والبرهة تلتقط الزمن كلَّه بمنقارها الأليف.

يتوقف «الحيوان» مرتطمًا بآخر النفق. كتلة ليِّنة تلتقطه التقاطاً وتنغلق عليه، فتأخذه غيبوبة لا تشبه إلّا التّرف: لقد وصل «الحيوان» المنوي، الآتي من صلب المـلاّ «بينـاف» الى بويضة «برينا»، أخيراً، والُمضْغَة التي الْتَأَمَتْ ستنسجُ، بآلاتها الحمراء، شخصاً يُدعى «بيكاس».

الفصل الثالث

بضعة زرازير حطت على السلك ذاته، الممتد فوق ساحة بيت الملا بيناف، باحثة من الأعلى بعيونها، في كسل، عن رزق دفين تحت الثلج النائم ذلك الصباح الذي اعقب ليلة زواج «بيكاس».

الغرف ما تزال غافية في الساحة. الصبي «كرزو»، وحده، كشبح، يحاذي السور وهو ينظر الى الزرازير، متئداً، خوف ان تجفل، ثم ينصب فخين ويخفيهما، عائداً أدراجه بالحذر ذاته الذي جاء فيه. يفتح الباب ويدخل. وبعد برهة يُزَاح جزءٌ من ستارة النافذة لتبدو عيناه المتلصّصتان على حركة الطرائد السوداء على السلك العالي.

يختفي وجه الصبي ليلوح وجه الملاّ من وراء الستارة بدوره، ناظراً لا الى الطرائد كإبنه، بل إلى غرفة «بيكاس» وعروسه «سينم». دخان خفيف يتماوج امام فوهة الماسورة الصفيحية للمدفأة. يبتسم الملاّ. ثمت دليل على ان الغرفة يقظى من الداخل. أمّا ان تكون «سينم» قد نسيت اغلاق خزان الوقود الكروي الصغير، الذي يزود الموقد بما يُبقي النار مشتعلة، فهذا ما لم يخطر ببال الاب.

يختفي الملاّ، فيرجع الصبي «كرزو» الى مرصده. يحط زرزور واحد، هابطاً من السلك، على الثلج ككشاف. ينط قليلا، مقترباً من الفخين، ثم يقف. تلحق به الزرازير الاخرى، بالهدوء ذاته، ثم تقف. قطعتا خبز صفراوان تسترعيان مدى عيونها المستديرة العجلى. يرتفع لهاث الصبي حتى يكاد البخار الشفيف ان يغطي الزجاج، فيمسحه براحته. ثم.. طرقات

عالية على بوابة السور. تجفل الزرازير، فتفرد اجنحتها راجعة الى مكانها العالي. يرتفع صراخ الصبي شاتماً من الداخل، وما يلبث ان يخرج مهرولاً ليفتح للطارق في غضب واضح. تدخل «خاتي» اخت الملاّ، فيبادرها كرزو باشارات عجولة غير متناسقة من يديه، هاتفا: «طارت طارت. افزعتِها»، فارتفع صوت خاتي ايضا: «لماذا انت محتد؟ ما الذي طار؟». «الزرازير. كادت تسقط في الفخ لولا..» همهم الصبي، فردت عمته: «لتذهب زرازيرك الى جهنم. منذ متى انت يقظان يا جرو؟»، «وانت يا بقرة ألا تنامين؟» رد كرزو. عندئذ تناهى صوت الملاّ من الداخل: «ما الذي يجري يا ديكة المزبلة؟»، واضعاً حدّاً لصراخ الصبي والمرأة، الذي كاد ان يتحول شجاراً بين الاثنين، فتوعّد الصبي عمته بصوت مختنق، ثم ركض الى فخيه فركلهما ركلة مزجت الطين بالثلج. بعد ذلك أسند ظهره الى السور وهو يكاد ينشج من غضبه.

فتحت خاتي الباب دون استئذان ودخلت. كانت العائلة، كعادتها في صباحات الشتاء، محيطة بصَحْفَة ملآى بالعدس المجروش الساخن. أفسحتْ اخت الملاّ مكاناً لها بين ولدين، ثم رشفت بملعقة احدهما، من الصَّحْفة، رشفة عالية. وإذ طلب الولد ملعقته اشارت عمته عليه بجلب اخرى، فنهض ممتعضاً. «كيف حال العريس؟» سألت دون ان تخصّ احداً بسؤالها، وهي ترفع الملعقة وتخفضها بحركة سريعة. ردت زوج الملاّ بسؤال على سؤال خاتي، ناظرة إلى الأب: «أليس عليهما ان يتناولا افطارا؟». همهم الأب من خلف شاربيه اللذين تبلّلت حوافهما: «فلنمهلهما قليلاً يا امرأة». ثم رفع عينيه الى احد اولاده: «انظر من النافذة يا زيوان، لعلهما استيقظا»، فنهض الولد الى النافذة، ثم استغرق هناك. وإذ تأخر في الرد تمتم الأب: «ها؟ زيوان»، كأنها يلفت انتباه ابنه إلى أنه ينتظر علامة منه، فقهقه الولد، هاتفاً: «كرزو ينثر رماد التنّور على ثلج الباحة كله»، فاحتد الاب: «قلنا ان تنظر إلى غرفة بيكاس، لا إلى كرزو»، فرد زيوان وقد اختفى مرحه: «لا ارى أحداً».

اكملت العائلة تناول إفطارها في صمت. رُفعت الصَّحْفة الفارغة وجيء بإبريق كبير أسود ليحط على فوهة الموقد. إنها ساعة الشاي، التي يتماوج فيها دخان التبغ المتسرب من الأنوف فوق السائل الاسود في الأكواب. علبة تبغ الملاّ الفضية تنزلق من يده إلى يد اخته فزوجه. لفافات ثخينة تستجمع

بدخانها فضول الجالسين عما يفعل بيكاس وسينم. وبغتة، بنفاد صبر، يقول الأب لاخته: «بالله قومي وانظري إن كانا على ما يرام»، فتقوم خاتي على عجل كمن ينتظر امراً كهذا: «سأرى. سأرى»، وهي تغمض إحدى عينيها حتى تقيها من دخان اللفافة التي لم تفارق شفتيها المضمومتين في صرامة. وإذ تصير إلى الساحة تلتقي عيناها بعيني كرزو، الذي بدا وقد فرغ من مهمته الغاضبة: الرماد الاسود في كل مكان.. حتى شجيرة الزيتون المتوحدة لم تسلم من نثار الرماد على أوراقها. انتقام أسود من الثلج المستسلم.

فكرت خاتي بالحكمة الشريرة في هذا الفعل فلم تقع على شيء. عبث صبي غاضب لا اكثر. مطت شفتها ومضت صوب باب غرفة بيكاس. ثلج رمادي يعلق بحواف حذائها، وآثار خطاها تبدو مضحكة من ورائها. قرعت الباب قرعاً عالياً ثم وضعت يديها تحت إبطيها لتقيهما من البرد. بعد خشخشة تناهت من الداخل، فتحت سينم الباب، مطلّة برأسها العاري ذي الجديلتين النحيلتين: «هأهأ»، فازدرت خاتي ذلك الرأس الأبله، منادية عبر الباب: «بيكاس.. ألست جائعا؟». «هأهأ» ردت البلهاء الواقفة في الباب. اشاحت اخت الملاّ بوجهها على اللاتعيين، منادية بتساؤل: «بيكاس؟ أما تزال نائما؟»، فتناهت الهأهأة اليها من فم سينم ثانية. رفعت خاتي يدها إلى وجه البلهاء دون أن تمسه: «هذه هأهأةُ الشيطان، فليأكل الدجاج لسانك. أين بيكاس»، ودفعتها من طريقها إلى الداخل. الغرفة فارغة، لم يبدُ على خاتي انفعال كبير، بل تساؤل عادي: «آه. أهو في بيت الخلاء؟»، وكأنها استدركت نفسها التي لن تجيبها سينم قط: «فلأنتظره.. اغلقي الباب يا واوي»، فامتثلت سينم، واغلقت الباب، راجعة إلى مجلسها قرب الموقد، حيث سبقتها اخت الملاّ.

كان التباين واضحاً في نظرات كل منهما إلى الاخرى. خاتي تسأل نفسها عما يمكن أن تعطي هذه البلهاء لرجل، والبلهاء غارقة في فضاء الوجه الجالس قبالها، لا سؤال عندها عن شيء، لا دَهَش، تسترعيها الحركة فقط، فتلمس الدغدغة الخفية اعماقها: «هأهأ. بيكاس ديك». فتحت خاتي فمها كأنها تهم بشتمها، لكنها احالت الشتيمة الى سخرية ساذجة: «وماذا أنت يا سينم؟» فردت البلهاء: «انا.. هأهأ. قالت امي إنني مطاط السروال». «مطاط السروال؟». تمتمت خاتي، واردفت: «هذا الاسم يليق بك. اتلبسين سروالا؟» قالتها في احتقار. فردت سينم: «نعم.. هأهأ»، وهمت برفع ثوبها

فأوقفتها أخت الملاّ بحركة ضجرة: «لا بد أنها المرة الاولى. اخيراً علّمتك امك كيف ترتدينه. . ها؟». ثم اكتسى وجهها بقليل من الخبث: «ماذا فعلتما في الليلة الماضية يا سينم؟»، فأجابتها سينم دون تردد: «للرجل خصيتان مثل الديك. قالت أمي سنذبح الديك لضيفنا ابن حَشْمَتْ. .» فأوقفتها خاتي: «لا اريد حكاية من حكاياتك»، لكن سينم استمرت في سردها دون أن تأبه للهجة الامر في صوت اخت الملاّ: «انا من قبض على الديك. . هأهأ». «قبضك الله» ردت خاتي، واضافت بتفكّه: «ورأيت خصيتي الديك بعد الذبح؟ أوه، انت ذكية يا سينم»، فاسترسلت البلهاء: «امي ستطعم الدجاجات اليوم. ألن تأتي امي الى هنا؟»، فردت خاتي: «ستأتي امك، وجدتك، وبقرتكم، ايضاً»، ثم التفتت من حولها لترى أثراً ما يدل على الرجل الذي كان في الغرفة، فلم تر شيئا: «اين بيكاس بالله عليك؟» همست خاتي بنفاد صبر. فتمتمت البلهاء والهأهأة تقطع الحروف: «خرج في الليل. سيبرد، انا لن اخرج في الليل».

زمّت خاتي ما بين حاجبيها، سائلة: «خرج في الليل؟ ألم يعد؟» فردت سينم: «لحيته باتت طويلة. لم أر عينيه. لماذا لم أر عينيه يا خاتي؟». فانتفضت اخت الملاّ: «متى ستقولين شيئاً افهم منه شيئا؟. أين بيكاس؟».

نهض الملاّ من مجلسه متّجهاً صوب النافذة. رفع الستارة الخشنة ذات الازاهير الصفراء، وتطلع نافثاً دخان لفافته من منخريه: «يا للكلب. سأضعه في التنور»، قالها وقد استرعى بصره منظر الرماد المنثور فوق ثلج الساحة، ثم انتقل بعينيه إلى باب غرفة بيكاس: «أماتت خاتي؟» تمتم غاضباً من تأخّرها. وإذ مرّت ثوان ثقيلة على اسئلة اعماقه، عاد الى مجلسه قرب الموقد. ازاح فوّهتها بطرف حطّته، ورمى لفافته الى النار. رفعت زوجه رأسها عن الوسادة سائلة في إعياء: «تأخرت خاتي. ألن يخبرنا احد بالذي يجري؟»، فرد الملاّ: «ليتنا نسينا البارحة وخبر البارحة. ليتنا لم نَفِق اليوم»، ثم ارتفع صوته مجنوناً: «يا كرزووو»، ولم ينتظر جواباً بالطبع، بَل أردف: «أما من شيطان يلحق بالشيطانة خاتي؟. بيكاااس»، ونهض الى الباب. فتحه وتخطاه حافياً.

كان كرزو ما يزال مستنداً بظهره الى السور، أزرق الشفتين من البرد والغضب، وقد أحنى جذعه قليلاً، ليتمكن من وضع يديه بين فخذيه. وإذ رأى أباه خارجاً من الباب دون حذاء، وعلى وجهه ما ينذر بعاصفة اين منها

البَرَد، استقام متأهّباً للفرار. عاين الجهات من حوله كيْربوع ليرى منفذاً، ثم تطلع، خلفه، الى السور، فألفاه اكثر علواً من قامته. لم يكُن قد فكر في علو السور من قبل قط، وهاهو يعاينه الآن، ويعاين المسافة بين فوهة التنور والسطح. حتى شجيرة الزيتون مرَّت بباله، فكانت اصغر بكثير من ان تخفيه عن بصر الأب الغاضب.

بقي كرزو في مكانه متأهباً لا اكثر، بل مُجمَّداً في تأهبه، لكن الأب لم يلتفت إليه، فاحتار الصبي، كان الرجل متوجّهاً بكله الى باب غرفة بيكاس، حافياً، تنطبع اصابع قدميه في المسافة الرمادية المضحكة. ولما أدرك كرزو انه لم يكن المقصود من فورة الأب، واتته شجاعة المتطفِّل فتبع الملاّ بحركات خفيفة حذرة.

دفع الملاّ الباب ودخل. نفض الثلج الرمادي عن قدميه بحركة عصبية قبل ان يطأ البساط: «ماذا يجري يا خاتي؟» قالها مُزْبداً. ثم التفت على انحاء الغرفة فانتاب صوته برود مفاجىء: «اين بيكاس؟»».

حاول كرزو ان يتنصّت الى ما يجري، من خلف الباب، فلم يسمع إلاّ تمتمات خفيضة، يعقبها وجوم يمكن اشتمامه كرائحة حساء ساخن. وقد دار في خَلَده، الذي اختلط فيه نذيرٌ ما بالسخرية، ان المسألة كلها فكاهة. ولّما همَّ، مراراً، ان يتذكر تفاصيل وجه أخيه الغريب «بيكاس»، تأبَّت الصورة عليه. ألم يمعن النظر فيه؟ بلى. لكن المشهد يتماوج كأنما في ماء رمى احدهم حجراً فيه. حتى الصوت تلاشت نبرته فبات مبهمًا، في ذاكرته، خليطاً من صوت ابيه وصوته هو. أهكذا كانت نبرة صوت بيكاس حقا؟. إنه يصغي إلى السكون في الداخل، فتزدحم اعماقه الساكنة كالغرفة برفيف اجنحة الزرازير، وطقطقات الفخاخ المعدنية، لذلك يكادُ يجاوز الباب بفضوله وتنصُّته، في محاولة للفصل بين سكون الداخل الصارم واعماقه الصاخبة حتى يسمع شيئاً.

برينا، زوج بيناڤ وأم طفله الغريب، 'تستوي جالسة في فراشها. جفناها ثقيلان من نوم الليلة الماضية المتقطع، ومن اسئلتها التي لم تواجه بها احداً. وكانت، كلما تفيق في الليل، ترى الملاّ منحنياً على دفاتره، ولفافته تحيط وجهه بهالات من دخان عصبي كقدمي طفل تخبطان في الهواء. ولقد بقي على حاله حتى الصباح، والدفاتر تنتقل بين يديه في حركة دائرية. لكنها تظن ان احدها، وهو دفتر بغلاف ازرق اللون، كان الُمفضّل لديه. إنها تعرفه

من رجوع الملاّ إليه ابداً، وإذ سألته ذات مرة، من سنوات، عن محتواه، رد أنه يخص اباه حسين، ابن «كُوْجَري». ولما سألته، ثانية، عن جدوى تنقيبه فيه، رفع رأسه في دَهَش، كأنما علَيها ان تفهم. وهي لم تفهم المغزى، حتى الآن، بالطبع، من كل ذلك التنقيب. لكن الدفتر ظل يروح ويجيء، من يده إلى الصندوق الخشبي تحت سريره، ومن الصندوق الى يده، في غناه وفي فقره سواء بسواء.

لم يخف عليها، بالطبع، أن الدفتر كان خاصاً بالفراسخ المزروعة قمحاً وبطيخاً في قرية موسيسانا، حيث التدوين يتم، هناك، بقلم «الكوبيا» الذي يُبَلَّلُ باللسان قبل الكتابة به. حسين كوچري، والد زوجها، امتلك دفتراً، ذلــك الــوقت، لحصر محاصيله، التي يعيا أكثـرهم جدارة في الحفظ عن حصرها. وكانت عائلة برينا تقطن القرية نفسها، قبل زواجها من الملاّ، وقبل أن ينتقلوا جميعــاً، هم وأقرباؤهم، منها، إثر السنوات التي اعقبت «المَحْل الكبـير»، حيث استعادت الارض بعض نضارتها، لكن الاغواءات الخفية للمـدينـة، المقتصرة على سحـر الكهرباء، ومدافىء المازوت، وشراء آلات حصـادٍ يتولى الأرمنيون صيانتها، دفعتهم الى الاتجاه إلى «القامشلي»، اكبر مدن الشمال، والتي تمتلك دور سينما ايضاً.

ولما لم يكن حسين كوچري، والد الملاّ، يفقه كثيراً في كتابة الحسابات، فقد استعان بمعلم أرسلته وزارة التربية والتعليم إليهم، لأول مرة في تاريخ القرية. هذا ما تذكره برينا بوضوح. وقد قيل، آنذاك، إن ابن كوجري يدفع بسخـاء للمعلم، لقـاء انكبـابه على دفتر أزرق كبير، يبلغ طوله خطوتين، بعرض خطوة واحدة من خطى رجل طويل. وكان واضحاً أن أبا زوجها قد استهـوتـه فكـرة استئجـار معلم، وشراء دفـتر، اكثـر من حساباته نفسها، فيستوضح المعلم، في المضافة عادةً، وعلى مرأى من الرجال المتطفلين، عن محتويات هذه الصفحة او تلك، كمن يمتحن معرفة صبيّ قاصر.

لقد ظل المعلم ذاك موفداً من قبل الوزارة الى القرية سنتين، وهي مدة خدمة الأغرار في مجال التعليم في المناطق النائية من أقاليم البلاد. وإذا نقضت المدة تلك، استقال الرجل من المهنة باغواء من حسين، ابن كوجري، ليستقر في القرية محاسباً، حتى اختفى، بعد ذلك بسنتين ايضاً.

كانت وزارة الـتربية والتعليم تستخـدم من يتقدم بطلب، بعد انهاء الدراسة الاعدادية، لهذه المهنة. تنفق، بنفسها، على تعليمهم سنتين، مع

دفـع مخصصات شهرية لهم، ثم تقتطع المبالغ تلك من اجورهم على مدى سنتين. اي انهم يصبحون، حكمًا، اقناناً لدى الحكومة حتى تستوفي ما لها عليهم. وهم أحرار في البقاء في مهنتهم تلك، بعد المدة المعلومة، او المضي إلى أشغال اخرى. واسم «وزارة التربية والتعليم» ظل سائداً فترة طويلة، منذ استقـلال سورية وحتى الستينـات من التقويم الميلادي، ثم اختفت كلمة «التعليم» إثر اجتهاد المجتهدين في ظل الوحدة المصرية السورية، لأنهم ارتأوا ان مهمة البلاد تقوم على التربية فقط، وان كلمة «التعليم» تتضمن بعداً من العبودية والقسر. وقد ضاع «التعليم» فعلًا، في تعاقب الحكومات بعد ذلك، وانحصرت التربية في تلقين الطاعة بأساليب شتى.

على كل حال، استرسل المعلم ـ ذي ربطة العنق الحمراء خريفاً وشتاء، والمنديل الاحمر البارز من جيب القميص، بشكل مثلث، ربيعاً وصيفاً ـ في ترتيب عالم حسـين، ابن كوجـري، عبر سطور أفقية للإشـارة الى الأسـماء والأمكنـة، وسطور عمودية من أرقام مُنَضَّدة كَلَبِنَاتٍ في حائط، وبين تلك السطور، وهذه، ثغرات بيضاء يرى منها أبو الملاّ بيناف نهر قرية «عاكولة»، وهضبته «معيريكا»، وقبر «شمدين» في «موزان»، والحشود التي يهيئوها عباس البدوي على تخوم قرى الاكراد.

كان للمعلم لغة خاصّة إضافة إلى لغة الحساب، يستخدمها بطلاقة، راكناً الى احترام الرجال له. ورجال الشمال يحترمون المتعلمين، ذوي البناطيل بخاصَّة. وكانت كلمة «الجماعة» من الكلمات ذات السحر في الأسماع إذ ينطق بها. «الجـماعـة». . «الجماعة. . »، ولم يكن يفهمون الكثير مما يقوله، لكن ذلـك، تحديداً، كان سرّ اصغائهم، وافتتانهم به، وتنافسهم ايضاً في مدّه بالسمن والعسل، والبيض، والدجاج، مرسلينه مع اولادهم الى البيت الذي أسكنه فيه حسين كوجري.

مدى سنتـين كان المجلس في بيت أبي الملاّ يلتئم كل مساء، والمعلم يتحـدث عن الارض، وتـوزيعهـا، فيضحـك المالكون من الخفَّة في ذلك الكلام، ويصغي غيرهم فيؤكدون عليه حتى يحتدم نقاش لا يخرج فيه احد عن أدبه. ويتحدث عن النقابات فيصير الكلام غامضاً قليلاً، ثم يصير أشدّ غمـوضاً حين ينطق بكلمة «بلشفيك»، حتى لقد تصوّروا هؤلاء المدعوين «بلشفيك» كائنات تنبت كالحرشوف.

لقد صادق الرجال على كلامه عن العدل من ألفه الى يائه، حتى المُلكية

لم يكونوا ليختلفوا عليها كثيراً، مجروفين بنوع من السماحة كان لا يرى حتى الأغنياء معه ضيراً في أن يكون للكائن ما ينبغي ان يكون. وإذا استشعر المعلم طمأنينة من مجالسيه مدى ما يقارب العامين، صار ينادي احدهم باسم «الرفيق». ضحكوا، اول الامر، إذ رأوا في الكلمة رنيناً من ظَرْف المعلم. ثم انقلبت الضحكة ابتسامة، حين صارت شائعة في كل نداء يوجهه الرجل ذو البنطال اليهم. ثم تفكروا فيها إذ زاد ترددادها عن حدّه. وقد فاجأ احد الجالسين المجلس كله، ذات يوم، بالقول إنه سمع شيئاً ما من اولاده عن كلمة «الرفيق»، وانها تخصُّ الجماعة التي لا تؤمن بالله. إذ ذاك اتخذت الجلسات بين الرجال والمعلم منحىً آخر. ساد الدين باسئلته فضاع المعلم في زحمة ردود لم ترضِ هؤلاء، ثم اختفى.

الدفتر الازرَق يموج أمام عيني برينا، ثم يعلو متساقطاً ورقةً ورقةً، فيمتلىء البيت، حتى لأنّـها تسمعُ بدل النبض في صدرها خشخشة باردةً، فيرتفع صوتها: «أما من احد يرجع من تلك الغرفة اللعينة؟ بينااااف»، فيرد احد اولادها المتلصصين من النافذة على الساحة: «والدنا وعمتنا راجعان».

يدخل الملاّ ومن خلفه اخته واجمين. تبقى خاتي واقفة بينما يجلس الملاّ كمنهار قرب الموقد، ثم يأخذ وجهه بين يديه في استغراق ذي رهبة. تنتقل الام بنظراتها المتسائلة بين جسد زوجها المتكور ووجه أخته، فتغض خاتي ببصرها، حائرة بدورها.

تناهى صوت كرزو من الخارج صارخاً: «اين اخي؟»، وهو يضرب باب غرفة سينم بكرة من الثلج الرمادي. وكان الصبي الذي امضى فترة وجود ابيه وعمته، في الداخل، متنصّتاً، قد اشتد به الحنق من اجوبة البلهاء حول زوجها. يسألها الملاّ: «اين بيكاس؟» فترد: «بيكاس ديك». يعيد الرجل السؤال كاظمًا غضبه وتعبه: «بيكاس ديك. نعرف ذلك. لكن اين الديك؟» في محاولة لمجاراتها، فترد ثانية: «خرج بيكاس»، فيتمتم الملاّ من تحت شاربيه: «خرج إلى أين؟» فتجيبه البلهاء: «هأهأ. خرج لابساً عباءتك»، واذ يأخذ الملاّ رأسه بين يديه كمن يوشك على قتل أحد من ضيْقهِ، تتدخل اخته خاتي سائلةً: «كوني عاقلة يا سينم، أين..» فيقاطعها أخوها بصرخة ترن طويلاً في ماسورة المدفأة: «عاقلة؟ ها؟ أنت مجنونة يا خاتي لتسألي هذه المجنونة. والله، لولا الحياء لوضعت رأسيكما في هذا اللهب». ثم يتهالك نفسه متمتمًا، بالحنق ذاته: «منذ البارحة والله يلعب بنا كنعاج، بيكاس اختفى. بيكاس لم

يكن موجوداً. قومي يا خاتي لنتدبر شيئاً لحل هذه المهزلة». وإذ يهمّان بالخروج يبتعد كرزو، بخفّة، إلى ركنه لصق السور، حيث فخاخه الباردة مطبقة على الهواء البارد.

لقد فاق حقده الصبياني حقد أبيه على البلهاء. «لماذا لم يخنقها بجديلتيها اللتين تشبهان ذيل الفأر؟ لماذا لم يَقرِّب خدها من صاج المدفأة حتى يسمع جدُّها، في قبره، نشيش لحمها؟. لماذا لم يلق بها عارية إلى الثلج، وقد شدّ إلى عنقها، كالبقرة، حبلاً؟ تكلّمي. تكلّمي»، ولم يتمالك نفسه، فانقض على الباب بكرات من الثلج، صارخا: «اين بيكاس؟».

سمعت الأم صوت ابنها فردّت عن نفسها الغطاء السميك، زاحفة إلى حيث زوجها المختفي خلف يديه: «اين بيكاس؟» تمتمت وقد علا نبضها. ولّما لم يردّ الرجل، هزّته من كتفه في خشونة: «أين ابنك؟» فانتفض الملاّ واقفاً كسلطان في بلاط فارغ: «مات. هرب. ضاع»، كان يردّد كل كلمة مرتين، على نحوٍ فيه الكثير من الشرح الأخرس. وإذ استعصت الكلمات، برنينها الآتي من سقف الغرفة، على برينا، التفتت صوب خاتي تستنجد بها لفكّ اللغز، فتمتمت المرأة الواقفة: «يبدو أن ابنك قد خرج الليلة الماضية، ولم يعد».

كانت المسألة أكبر من أي شرح حتى لو وقف بيكاس في الباب، فجأة، في ذلك الصباح الأحمق. «نعم» يهمس الملاّ، ويضيف: «صباح احمق يتلو صباحاً أحمق. سنبدو حمقى إذا اسغفلْنا الناس بقصتنا». ثم يلتفت إلى أخته: «اقصدي أخي مَهْمَد. فليحضر الآن. سأحصر الحكاية بيننا، فلدي منفذ صغير للخروج من المهزلة كلها». وفي الحال ارتدت خاتي حذاءها البلاستيكي وجاوزت الباب، ثم اغلقته من خلفها مسرعةً قطقطقت عوارضه الخشبية. بعد ذلك علا صرير بوّابة السور، وكذلك صوت خطواتها العجلى في الثلج، كأنما تمضي في كل اتجاه، لا في اتجاه واحد.

كان الملاّ، واولاده، وزوجه، جالسين حول الموقد حين دخل أخوه مَهْمَد، والد سينم، وقد بوغت الرجل بهذا المشهد الواهن لأناس واهنين، حتى انه لم يسمع رد التحية منهم. الصغار بدوا مذعورين، لا من فهمهم لوطأة المسألة، بل من رؤيتهم لهذا التهدّل الفجائي الصامت على وجهي أبويهم. أما الأبوان فبانا ممسوخين، ليِّنَيْنِ ككرات عجين يمكن دَحْوُها قبل إلصاقها بباطن التنّور.

تقدم مهمد، فافسحت العائلة له، فجلس مثلهم. اخرج علبة تبغه فاستوقفه الملاّ مناولاً اياه علبته الفضية. وبعدما انتهى الرجل من عقد اللفافة وإشعالها، ألوى رأسه صوب اخيه الملاّ: «ما الأمر؟» بادر دون مقدمة. ولم يكن في حاجة اليها، على كل حال، فتنفس الملاّ عميقاً، ثم همس: «خاتي. خذي الأولاد الى الغرفة المجاورة»، فتقدمت خاتي، ذات الأرجل والأيدي الخفية الألف، آخذةً الاولاد كما تأخذ مكنسةُ الخرنوب الخشنة بعرَ النعاج في طريقها. وإذ اصطفق الباب من خلف الخارجين رفع الملاّ وجهه إلى السقف، قائلا: «اخي. قصدتك البارحة سائلاً يد ابنتك لابني بيكاس، ولم تسألني كثيراً في أمر طلبي الغريب، وأمر حكايتي الغريبة. . . اليس كذلك؟» فهز أخوه رأسه موافقاً، فأكمل الملاّ من غير أن يرفع عينيه عن فضاء السقف: «ولا أريدك ان تسألني الكثير الآن، بل استمع إليّ». صمت قليلاً، ثم أحنى رأسه ناظراً إلى النافذة الزجاجية الصغيرة في صفيح الموقد: «اختفى بيكاس. آه. تعبت من شروح لا ترضيني ولا ترضي غيري. تعبت يا أخي. بيكاس اختفى. سننتظره بعض الوقت، فإن لم يظهر. . .»، والتفت ليرى وجه اخيه فألفاه هادئاً تماماً، محدقاً مثله في اللهب عبر نافذة الموقد الصغيرة.

انتاب الملاّ غمّ من هدوء اخيه: «ألا يصدقني؟» قال في نفسه، «ولماذا يصدقني؟» اجاب. ثم استجمع اعماقه قائلاً: «المسألة. . يا اخي. .» فقاطعه مهمد: «فلننقل للآخرين ان الوليد قد مات. .». «يا إلهي» همس الملاّ، ثم امسك بكتف اخيه، وقد استوى جالساً على ركبتيه: «هذا ما فكرت به. مات. نعم مات».

اطرق مهمد قليلاً قبل ان يسأل أخاه: «لن ألحّ عليك، لكن ما الذي يجري؟»، فأفرغ الملاّ رئتيه من دخان لفافته عبر منخريه وفمه، مجيباً: «محنة. محنة». إذ ذاك مال مهمد عليه جانبياً: «وماذا عن أولادك؟ انهم يعرفون الحكاية، وكذلك خاتي»، فرد الملاّ بلهجة فيها بعض الجزم: «الاولاد أولاد. من سيصدقهم إذا رووا الحكاية؟ وأنا كفيل بصمت خاتي وبرينا».

لقد أسقطا سينم، امرأة بيكاس لنصف ليلة، من حسابهما، وكانا على حق. ستردد «ديك. ديك» إلى أن تمتلىء مسافة ذاكرتها الفارغة بأعرافٍ حمراء رخوة، وبمناقير ترتفع وتتنزل بحثاً عن نخالة ضائعة في أعماق البلهاء.

تمتمت برينا، التي كانت قد انسحبت الى فراشها: «ألا ينبغي ان ننتظره حتى المساء؟» فالتفت اليها الرجلان من خلف منكبيهما، ثم عادا فنظر

احـدهمـا إلى الآخـر، قبـل ان يجيبهـا الملاّ: «ولماذا ننتظر يا برينا؟ إذا عاد فسنختلق حكـاية أخـرى لوجوده بيننا. سنختلق حكاية معقولة في الأقل. أتصدقين كل ما جرى؟ لم نصدّق نحن بعد، فلنتحايل على هذه المحنة بحق الله علينـا». ثم قام من مجلسـه على نحو عصبي، واتجه إلى كوّة مربعة في الحائط، ذات ستارة، يحتفظون فيها عادة بمخدات إضافية. سحب واحدة صغيرة، وتناول غطاءً أبيض فلفّها: «مات. انظري. مات»، ورمى باللفافة قربهـا بتشنج. بعد ذلك نادى بصوت مشوب بعويل: «كرزو. كرزووو»، فتنـاهت خطى الصبي راكضـاً من الغـرفة المجاورة ذات الباب المطل على الساحة. فتح الباب على عجل، داخلاً بنصفه الأعلى فقط، بينما ظلت ساقاه خارجاً. نظر الملاّ إليه وكأنما لا يراه: «بلّغ جدك عَفْدِيْ سَارِيْ ان وليدنا قد مات». فوجم الصبي متمتمًا: «الوليد؟ أخي بيكاس؟».

اجفل الأب من نفسه. كانت كلماته تطرق صدغيه فيستيقظ: «مات؟» قالها في تساؤل وحيرة، ثم استدرك وقد اخذته عينا الصبي الدَّهشتان: «نعم مات. ولا تنس ان تعرّج على بيت جَهْوَرْ سارِيْ لتبلّغه أيضاً».

حين اغلق الصبي الباب خلفه في هدوء، كانت أمه تتلوى في فراشها وهي تئن باختناق. أسرع الرجلان إليها يستوضحانها الامر فلم تستطع ردّاً. أزاح الملاّ الغطاء عنها ليعاينها فاسترعته بقع دم طازج على ثيابها والفراش. كانت المـرأة تنزف بغزارة. رد زوجها الغطاء عليها، وهرول خارجاً. دخل الغرفة المجاورة حيث اولاده واخته، صائحاً: «خاتي. انظري اذا كان جارنا الأشوري مازال في البيت. فليوصل برينا بسيارته إلى المستشفى»، ثم خرج مهـرولاً كما دخل، فلحقت به أخته: «ماذا بها؟». رد: «تنزف»، فاكملت خاتي طريقها قفزاً صوب بوابة السور.

دخل الأشوري الى الغرفة بمنامته. لم يكن قد فهم كلمة من كلمات خاتي الكردية، لكن إشاراتها الفزعة اقلقته فتبعها، لفّ الرجال الثلاثة برينا بلحافها ثم نقلوها خارجاً إلى سيارة البيك آب. اسجوها على القاع الصفيحي البارد من الخلف، ثم صعدوا إلى مقدمتها محشورين بفعل عباءتي الزوج واخيه السميكتين. أدار الأشوري المحرك لأكثر من عشر دقائق قبل أن يستجيب، من برده، فينطلق.

بعد ثانية، او ثانيتين، من انطلاق السيارة أوقف الملاّ جاره السائق، محاولاً شرح أمر طارىء. أخرج رأسه من النافذة صائحاً: «خاتي»، فردت

خاتي الواقفة في البوابة: «نعم». «اللّفافة البيضاء. المخدة التي غطيتها هي بيكاس الذي مات». رفعت خاتي يديها في تساؤل: «المخدّة؟ مات؟». لم تستوعب كلمات اخيها. وإذ رأى الملاّ تلك الحيرة حاول الشرح بايجاز خشية أن يضيق جاره الأشـوري بهذه المحـاورة المتأخرة: «اختي. بيكاس مات. سيأتي عَفْدِي وجَهْوَر للتشييع. قولي إن هذه اللفّافة هي جثة الطفلِ الوليد. سأشرح لك الامر حين أرجع»، والتفت الى جاره الذي لا يفهم شيئاً من لغته الكردية مومئاً كأنما يخبره ان الحوار انتهى.

انطلقت السيارة مسرعة بحكم الأمر الطارىء، لكن رأس الملاّ انبثق خارج نافذتها من جديد، ملتفتاً الى اخته ليرى إن كانت قد فهمته، فرآها تومىء برأسها ايماءة غامضة.

هرول كرزو اول الامر، متوجهاً الى بيت جده عفدي ساري (ليس عفـدي جده، لكنه يناديه جدي احتراماً لزوج ابيه)، ثم تباطأ بعدما قطع نصف العراء الابيض في الجهة الشمالية من الحيِّ الغربي. وكان عليه ان يسير على خط منحنٍ ليدخل الأزقة، التي تتجاور فيها البيوت المتاخمة لذلك العراء الفسيح، ثم تتقـطّع شمالاً فتبـدو متناثرة، تحيط بها حقول الـحَلبِيِّيْنَ حتى أسلاك الحدود السورية التركية.

لم تبـدُ العجلة عليه، بحسب طلب أبيه، بعدما جاوز نصف المسافة. الـزرازير المتناثرة في ذلك البياض المخملي، مثنى مثنى، اخذت بعضه الى حُلُم الفخـاخ، وتـوزعت بعضَـهُ الآخر أفكارُه الصغيرة حول كلمات ابيه: «بيكاس مات». متى مات بيكاس؟ لقد سمع الحوار بين عمته وابيه والبلهاء برمّته، فلم يذكر أحدهم كلمة «مات»، بل «خرج في الليل». «لماذا يكذب أبي؟» ردّدها في نفسه. ولم يجد مخرجاً لسؤاله سوى ان اباه يكره «بيكاس». «لكن، ماذا فعـل بيكـاس ليكرهه ابوه؟»، سأل الصبي نفسه من جديد، متغافلاً، بقوة، عن المصير الأبكم لشخص لن يصدق حكاية وجوده احد. وقـد حاول ان يتـذكـر ملامح أخيه في عراء فكره المتصل بالعراء الثلجي، فاستعصى الأمر عليه. حركات الاخ الغريب، وحدها، حول الموقد، ملأت ناظريه: هدوؤه. إغضاضته. يداه الورديتان اللتان مدَّهما لإخوته. إجفالةُ اخيه الصغير من مداعبات اخيه الأصغر الغريب. حديثه عن الصيد. إنه يحس غرابةً ناعمة ذات دغدغة؛ غرابة كالرغبة التي تدفع بالزرازير الى فخاخه

غير المموَّهة أحياناً، وإذ يلتفت إلى الثلج الذي شَرَدَ عنه قليلاً من حوله، يرى الطيور السوداء الكسولة مُعَسْكِرَةً برفوف أكبر.

يكاد الصبي أن يضرب على صدره انتقاماً من أنه لم يجلب فخاخه. آه، ماذا لو كانت لديه فخاخٌ بحجم العراء كلّه؟ فخاخٌ في الثلج وأخرى في الهواء. سيحاصر الأجنحة، وسترتفع طقطقات المعدن الصّلب المنقضّ على الأعناق، أو الأرجل، أو المناقير. طيور ستتخبط على الثلج عاجزة عن تحرير جسومها، وطيور ستهوي من الأعلى مرفرفةً في ذعر، دون أن تطاوعها الأجنحة لترتفع.

حُمّى مجنّحة تستبد بالصبي فيفتح ذراعيه راكضاً في اتجاه الطيور، شمالاً مرةً، ويميناً أخرى. وشاحه الصُّوفي، الذي غطى به رأسه ووجهه، يَنْسلِتُ، ثم يسقط على الثلج. سترتـه المبـطنـة الطويلة، والفضفاضة جداً، ترفرف حواشيُّها كعَلَم من فوق جلبابه. حذاؤه البلاستيكي، السميك، يقـصّـر ما بين خطواته في ذلك الطيران الأرضي. إنه آتٍ بفخّ جسده؛ آتٍ بأعماقه التي تحمل آثار أرجل العصافير وبقايا أعشاشها المهجورة.

كان الـدَّهشُ يعلوه كلما طار سرب حاول الاقـتراب منـه بذراعيه المفتوحتين. «لا»، تخرج الكلمة مُـتْـرَفَـةً ببخار انفاسه، «لا تطيري». إنه يودّ ان يكون أليفاً لا قنّاصاً، ولقد حاول طوال صيده لها أن يقول ذلك فأجفلت منه. تصيَّدها ليحاورها عن قرب، فأرخت اعناقهابين يديه ثم ماتت. إلاَمَ سيستعصي حواره الحنون عليها؟ إلامَ ستجفل منه فيضطر الى نصب الفخاخ لها؟ «أنا كرزوووو»، أطلق الصرخة، تلك، مديدةً، لتتعرّف عليه فتستكين، لكنها كانت تطير.

بعد ساعة من ذلك الركض اللامُجدي، خرَّ «كرزو» راكعاً من التعب على ركبتيه، ناظراً إلى الفضاء حيث الزرازير البطيئة تعبر حقل يأسه المُحْكَم.

«كرزو. كرزو»، علا صوتٌ من مكمنٍ ما، فأصغى الصبي الى اعماقه ليحـدد مصـدر الصـوت. فكّر ان ما سمعهُ هو صدى صرخته في المملكة البيضاء الباردة على مدى بصره، لكن اسمه تكـرّر ثانية، على بعد خطوات منه، فأجفل واقفاً.

كانت حَدْبَةٌ من الثلج، تتقشر في بطء، وكائن ما ينتصب جالساً على ركبتيه كأنما كان ساجداً تحت الطبقة الثلجية. تراجع الصبي خطوتين ليحدّد ملامح الشكل الذي يراه، وقد غشى الذّعر عينيه بستار شفيف من بخاره الرمادي.

لم يبنْ من وجه الكائن سوى عينيه وأنفه، أوّل الأمر، لكن القناع الثلجي تفتت قليلاً قليلاً بفعل حركة فكّيه، وشفتيه، حين همهم، ثانية: «كرزو. اقترب»، فاقترب الصبي محدقاً، ثم ندّ عنه ما يشبه الصرخة المكتومة: «بيكاس. بيكاس!!!؟»، وجثى قرب اخيه.

رفع بيكاس يديه الرخوتين إلى وجهه فمسح عنه ما علق به من الثلج. وجهه كان رخواً ايضاً، أزرق وسط لحية لا لون لها. وقد ابتسم، أو خيّل للصبي أنه ابتسم، فتمالك نفسه قليلاً، سائلاً في همس: «ماذا تفعل هنا؟»، فرد بيكاس بصوت ذابل: «واين ينبغي ان اكون؟»، «في البيت» اجاب الصبي. «ولماذا ينبغي ان اكون في البيت؟» بادره اخوه، فلم يجد كرزو، بعد التفاتة حيرى إلى البياض المديد، سوى جواب بسيط: «ألست بردان؟».

كرزو بردان. اسنانه تصطك، بينما يخفي يديه تحت إبطيه ليدفئهما. بيكاس لا يحيد بعينيه الذابلتين عن وجه اخيه، كأنما ينتظر حكاية يحاول الصبي إخفاءها، لكن كرزو لا يتمكن من وصل الأمور بعضها ببعض، هذا كل ما في المسألة. وقد تذكر، فجاءةً، سبب وجوده هنا، فأطلق لسانه: «كنت قاصداً بيت عَفْدِي ساري لأخبره أنك مُتَّ». وإذ همّ بيكاس برفع حاجبيه استنكاراً، أردف الصبي: «قال أبي إنك مُت»، ثم ابتسم كمن حلّ لغزاً: «سنعود الى البيت. انت لم تمت». وبعد برهة من الصمت علا وجهَهُ تساؤل ملح: «لماذا يكذب ابي يا بيكاس؟». فمدّ بيكاس يده إلى ركبة اخيه الجالس مربتاً عليها: «ابي لا يكذب يا كرزو. بعد قليل عليك إبلاغ جدي عفدي ساري بذلك. لا تنسَ»، فتقلصت شفتا الصبي الزرقاوان: «وماذا أخبر عفدي؟»، فرد بيكاس: «مات. قل له: بيكاس مات»، فاحتدم صوت كرزو قليلاً: «انت تكذب مثل ابي».

احنى بيكاس رأسه، ثم رفعه من جديد. حدّق في أخيه مبتسمًا، ثم همس: «انظر»، وفتح العباءة المبطنة بالصوف ـ عباءة ابيه التي ارتداها ليلة زفافه ـ عن صدره، فارتفعت يدا الصبي، في اللحظة ذاتها، إلى وجهه ليحميه.

كانت عاصفة من الزرازير تنطلق من تحت عباءة بيكاس، فترتطم بالصبي الذي تكوّر على نفسه من المباغتة، وإذ هدأ رفيف الاجنحة الصاخب فتح كرزو عينيه على مهل، فلم يجد بيكاس، بل رأى، عالياً، سرباً اسود يمضي في اتجاه الشمال.

اتكأت برينا على كتف زوجها وهو يمضي بها على معبر اسمنتي ضيق وسط اشجار باحة المستشفى، بينما ظل اخو زوجها على مقربة منهما، ليسند المرأة بدوره إذا احتاج الامر. أما الأشوري فعاد على أدراجه بسيارته ليلحق بعمله في شركة تولّت، حديثاً، التنقيب عن النفط في حقول منطقة «رميلان». لقد شكره الملاّ طويلاً، وأقنعه ان في استطاعته تدبُّر أمره للعودة بزوجه من المستشفى، لأن الأشوري ألح على البقاء في انتظارهم بتعاطف أكيد.

كان باب مبنى المستشفى العالي جداً نصف مفتوح، في ذلك الصباح، مما اضطر الرجلين إلى دفع إحدى دفتيه بقوة، فصرّ صريراً بارداً. وإذ دخلا، والمرأة تستند عليهما معاً، لم يجدا أحداً، بل تناهى اليهما صخب غريب كأن كلبين يتشاجران. تقدّما وكل منهما ينظر إلى جهة معاكسة، حيث غرف صغيرة متقابلة، ذات أبواب مفتوحة، مخصصة للحالات الطارئة: لا أحد. اصوات رجال وحيوانات تختلط في منعطف الرواق الذي تضيئه مصابيح لا تكفي ليتبين الماشون أقدامهم. رائحة اليود والبنسلين تختلط ببرودة تنبض نبضاً في الجدران. قوارير زجاجية تتهشم في المنعطف، والملا ينظر الى اخيه في حيرة، لكنهما يتقدمان مطوّقين المرأة، كلٌّ بساعد، وحينما يجاوزان ذلك الرواق، ويصيران في مواجهة الرواق الآخر، المتعامد، يريان المشهد الُمقَهْقِه: كلبان أغبران، ينهش أحدهما الآخر في ضراوة، وهما يرتطمان بمناضد صغيرة عليها زجاجات وعقاقير، فتتناثر. ممرضان شابان، وممرضة ذات وجه مجدور، يحملون مكانس في ايديهم للفصل بين الحيوانين، بينما تكاد اصواتهم المختنقة المُحَشْرجةُ ان تعلو الهرير والنباح.

يتجمد الملاّ واخوه في مكانهما. من يناديان؟ يقيناً لن يلتفت أحد في هذا الموقف. «روح ابليس ترفرف على هذا المستشفى» تمتم الملاّ الذي لم يسمع نفسه وسط الصخب. رفع يده عالياً ليلفت نظر الممرضة، التي تراجعت قليلاً عن دائرة عراك الكلبين، فعلا صراخها في وجهه، وهي تهز المكنسة: «ألا ترى؟». لكنِ الحيوانين قطعا فورة الغضب التي كادت تستبد بالملاّ، إذ ركض أحدهما داخلاً احدى الغرف، فلحق به الآخر. آنئذ اشتعلت الجدران بأنين الاسلاك الصدئة الصادرة عن الأسِرَّةِ، وبالخطوات والاجساد العمياء للمرضى الذين تدافعوا خارجاً مُوَلْولين. ولما ايقن الممرضان الشابان ان الغرفة خلت، اوصدا الباب، ورجعا وسط المرضى المتكئين على الجدران، أو المقرفصين من بردهم في الرواق، وهما يتمتمان: «اهدأوا. اقفلنا عليهما الباب.

ألا ترون؟ سنتدبر الامر، اهدأوا». ولّما حاذيا الملاّ، الواقف مع اخيه وزوجه على مبعدة من ذلك الجمع المذعور، توقفا: «ما بها؟» سأله احدهما، فحاول الرجل إيجاد كلمة مناسبة بالعربية لحال زوجه فاستعصت الكلمة عليه. اومأ برأسه مشيراً إلى المرأة بتعبير فيه توسّل، ثم انطلق لسانه بعد حركة عصبية من يده: «تعبانه». «تعبانة» كرر الممّرض الكلمة وهو يتفحص المرأة، ومضى إثر إشارة من يده مفادها «اتبعوني»، فتبعه الرجلان اللذان تستند إليهما برينا مستعجلين.

«ما الذي حاول أخي أن يقوله؟» تساءلت خاتي وهي ترى لحية الملاّ المهتزة خارج نافذة سيارة الأشوري. لم تجد سبباً لإيمائها التي تدل على أنها فهمت ما يقول. لقد هزّت رأسها ايجاباً لتختصر المحاورة المختلطة بضجيج محرّك السيارة، لا غير. «مــات؟» رددت الكلمـة: «من مات؟» ردت على نفسها. سمعت من الملاّ شيئاً ما من هذا القبيل، اضافة الى كلمة «مخدة»، فرددت كلمة «مخدة؟» أيضاً، ثم تراجعت لتقفل بوابة السور من خلفها.

لم تُطق خاتي البقاء في البيت، بعد ليلة من الهواجس الملأى باطفال ذوي لحى، فافاقت فجراً بدافع الفضول. وضعت حلّة من العدس المجروش على موقد الكيروسين، ثم انتظرت، بفارغ الصبر، اول طقطقة للغطاء بفعل البخار، وإذ سمعت الطقطقة والصفير ايقظت اولادها وزوجها بصوت حاد. دلقت العدس الساخن فوق قصعة كبيرة، ودفعت إليهم بالملاعق التوتياء: «كلوا. كلوا».

اقترب الاولاد والزوج زحفاً على مؤخراتهم من فوق الفُرُش الـمُـمَـدَّة على الارض، وهم يدعكون اجفانهم بأيديهم. أحاطوا بالقصعة شِـبَـه نيام، وفي آلية مضحكة باتوا يغرفون بالملاعق من ذلك الحساء الخَثِـيْـر. وإذ رأت خاتي اول ملعقة تغيب في باطن القصعة نهضت من فورها. وقبَل ان تصير خارجـاً علت همهـات الاولاد والـزوج من خلفها، فالتفتت مستغربة: «ما بكم؟». فرددوا بصوت واحد: «لم ينضج العدس بعد»، ثم ارتخت ايديهم عن الملاعق فسقطت تباعاً على القصعة، محدثة رنيناً متناغمًا.

رجعت خاتي بعض الخطوات حتى صارت في مواجهتهم، ناظرة من الأعـلى إلى وجـوههم الـمُـخْـبَـطـة النـاعسة: «أأنتم أفضل من الدجاج؟ الدجاج يأكل العدس نيّـئاً، وما تأكلونه مسلوق في الاقل. لا، هذا كثير. هذا كثير عليكم»، واستدارت، من جديد، لتخرج، فتناهى إليها صوت زوجها

حشمو: «ستتكسر اسناننا»، فالتفتت غصبى: اطحنها يا جاروش. إطحنها يا خصية القنفــذ، ولا تحرّض الاولاد». قالت ذلـك وأسرعت الى البـاب ففتحتـه، ثم انسلّت خارجـاً. وبعـد برهـة فتـح زوجها الباب من بعد ما أوصدته، منادياً في صوت خجول: «خاتي»، فتوقفت المرأة: «ها؟»، فهمس الـرجل: «لا تقولي ذلك أمام الأولاد»، فرفعت خاتي حاجبيها: «ماذا؟»، فتمتم حشمـو، ثانية: « لاتقولي: خصية القنفذ». تفرست المرأة فيه قليلاً بعينين مستهزئتين، قبل أن تهمس بدورها: «وأبوك، ايضاً، خصية قنفذ»، فرد حشمو الباب مستسلمًا، بينما مضت خاتي عجلى. وهاهي تجلس، الآن، قرب الموقد، ومن حولها اولاد اخيها الثلاثة، منتظرة عودة الملاّ ليقول لها بشكل أوضح ما يريده من «المخدة» ومن كلمة «مات». ثم تبتسم ابتسامة خفية: «لكم يشبه اخوها أباها في عاداته».

كان ابوها حسين، ابن كوچري، ذو القرنين، لا يحلو له قول ما يريد قوله حقاً إلاّ حين يصير بعيداً عن الشخص الذي يحادثه، وقد تسبب ذلك في الكثير من سوء الفهم بينه وبين الآخرين، والخصام بينه وبين زوجه «كُوْليزَارْ». انه لا ينهي المحادثة عن قرب. يبتعد، ثم يلتفت صارخاً ليشرح: «كيت.. كيت..» فيضـطر الاشخاص إلى الصراخ بدورهـم: «نعم؟ ماذا؟ ها؟». وكانت زوجه تلقى النصيب الاكبر من هذا اللاتكافؤ في السؤال وفي الاجابة. «لا تخضّي اللبن كثيراً، أريده مع زبدته»، يقولها وهو على بعد مائة متر، متجهاً الى مضافة عمه، فتضع زوجه يدها خلف أذنها لتلتقط الصوت، صارخة: «اللبن؟ مابه؟». وإذ لا تسمع توضيحاً تكمل عملها، وفي المساء يكاد يركل الوعاء من الغضب: «قلت كذا»، فترد المرأة: «لم اسمعك»، فيضيق: «لن تسمعيني قط. أنت لا تسمعين».

من اين جاء والدها بعادته تلك؟ إنها تذكر، بشكل ضبابي، بعضاً من عادات جدها حسن بن كوچري، الملقب بـ «حُسُّوْ المَيْـرْسيْني» ايضاً. كان دائم الصراخ في أرضه الجديدة بـ «عامودا»، تلك الارض التي أصابت شيئاً من العمـران بعـد نزوحـه إليهـا من «شَاهْ بَسْنَهْ» ببلاد فارس. وكان حُسُّو الميرسيني غنياً جداً، لديه صفـائح ملأى بالذهب الرَّشادِيّ، مدفونة تحت ارض بيته، فاشترى نصف تلك الارض «الميري» من «مأمورية الحسكة» التي باتت محافظة في ما بعد، وكان يتباهى بالورقة الكبيرة الممهورة بختم الحكومة،

لكنـه لم يبخل قط على جيرانه الذين يسكنون بيوتاً متنافرة على التخوم، إذ يراهم لا يصيبون رزقاً الا من صيد القطا.

في عامين ـ كما سمعت خاتي آنذاك ـ باتت السهول القفر تلك تتفجر حنطة وشعيرا. الحبة تعطي ألفاً، والكيس مائةً، فتوافدت الناس، تباعاً، الى المكان، غير ان الوفود الاكبر كان من اناس يسمونهم «المهاجرين»، ممن نزحوا من هضبات الاناضول، واطراف روسيا الجنوبية. وقد جاءوا متعبين، وفي حال كبيرة من الإملاق، فاستخدمهم المزارعون كحصَّادين، ورُعاةٍ، وسُقاةِ ماشية. و«المهـاجـرون» أولئـك، وصلوا فجأة، بنسائهم واطفالهم، وببقايا دواب هزيلة، إذ أكلوا معظم بغالهم في طريق الهجرة الطويلة. ولم يتمكن اهل المنطقة من تأمين الكفاية من الخبز التي كانت تقتضيها حال جوعهم، فأغار الجـوعى على حقـول الشعـير، يفـركون السنابلٍ بين راحاتهم ثم يمضغون الـحَـبَّ في نهم، فتغاضى عنهم المضيفون شفقةً بهم، وكان ذلك سبباً في خراب نصف المزروعات، نتيجة المداهمة الفوضوية.

لقد نسي أهل المنطقة، بعد ذلك بوقت قصير، البلاء الذي امتحنوا به، بفعل اختلاط الوافدين بهم كعاملين لديهم، وبفعل تزاوج ابناء هؤلاء وبنات اولئك، اللواتي تميزن ببياضٍ ناصع في البشرة، وشُقْرةٍ في الشَّعْر، لكنهم ظلوا يتنـدرون بالمهـاجـرين طويلاً، مطلقـين على كل من يسهو عن غرض من اغراضه، او ينسى شيئاً، لقب «مهاجر»، إذ ان نساء المهاجرين، حين وفدوا، كُـنَّ كثـيرات النسيان من التعب، ومشقة السفر، فكانت إحداهن تُـوَلْـوِلُ فجأة: «اين متاعي؟» ويكون متاعها، بالطبع، مربوطاً إلى ظهرها.

كان ازدهـار منـطقة «عامودا» ونواحيها، من قرية «الدرباسية» غرباً وحتى «مـوزان» شرقـاً، و «قولو» جنوباً، مصدر حسد كبير للعرب البداة، الذين لم يعهدوا طفرة عمران وزراعة على هذا النحو، وهم الجوّالون بأغنامهم في المسافة ما بين «نهر العين» ونهر «عاكولة». فأوفد «آل مُسْلِطْ» رسلهم الى حُسّـو الميرسيني، طالبين اقتطاع مراع من ارضه، فأبى: «لديَّ ورقة ممهورة بختم الحكـومـة». وقبائل «مُسْلِط» لم تكن لترضى بجواب كهذا، فأعلنت الحـرب على اكـراد الشمال قاطبة، وعدَّت ان كل ما يملكه هؤلاء انما هي أسلاب يجب تحصيلها. ولهذا سُدَّت طُرُقٌ، وفُتِحَت اخرى، وتحاشت السهول السهـولَ، حتى أن طيور القـطا انقسمت رفوفها، بعضها على بعض، فما عادت اسراب الشمال تعبر جنوباً، ولا أسراب الجنوب شمالاً. وذهبت الحمية

ببعض من رجال الجانبين الى درجة نقر الدفوف والصفائح ليمنع عبور الغيوم الى أرض الآخر.

لقد ترسخ تقسيم ما للمنطقة الشمالية، فكان في ذلك بعض الامان الضمني، فطُرُق الاكراد الجديدة باتت تمر من قرب الحدود التركية، أحياناً، او داخل الحدود التركية في احيان اخرى. فاتقوا بذلك كمائن البدو. كما لم يعد البدو إلى رعي اغنامهم قرب تخوم أرض الاكراد المزروعة حنطة وشعيراً، مخافة السموم التي كان يستخدمها المزارعون، (وكانت السموم اشبه بحبوب الحنطة تحديدا، لكن لها لون الصدأ الذي يصيب النحاس) هذا من جهة، ومخافةَ «المراقيع» التي يستخدمها المختبئون بين أسواق الشعير، من جهة اخرى. و «المراقيع» اسلحة من الصوف المجدول لقذف الحجارة، اتقن الاكراد استخدامها للصيد أوّلاً، ومن ثم لردع البدو. وكان في مقدور الحجر المقذوف من «مرقاع» ان يهشم جمجمةً كطاسٍ من الفخار. لكن ذلك التوازن في الخوف، الذي منح الجانبين أماناً ضمنياً، لم يدم طويلاً، أذ افاق الاكراد، في صباحات كثيرة، على ماشيتهم ودوابهم المختنقة في حظائرها، وعلى اجزاء من السهول سُوِّي الزرع فيها بالارض، كأنما مرّت عليها مداحل حجرية. ولم يكن صعباً على القيافين ان يعرفوا السبب: اقدام البدو الحافية كانت تترك آثارها.

إذ ذاك لجأ الاكراد الى فخاخ الثعالب، ثم غسلوا فكاكها المسنّنة الصلبة بعصيدٍ من السموم، ونصبوها في كل مكان: على تخوم القمح والشعير، وحول الحظائر. بل ابتعدوا بها، متسللين، الى الطرق الترابية التي يسلكها البدو بأغنامهم. ولم يكن ليمرّ يوم الا ليجدوا جثة منتفخة هنا، او هناك، بفعل السم، وقد كُسِرَتْ ساقها. وكانوا، بعض الليالي، يسمعون دوي الفخاخ المنصوبة قرب الحظائر، مصحوبة بأنين ساحق، فاذا افاق الاطفال سائلين عن الامر، أجابهم الكبار في صرامة: «ناموا، باض ابن آوى بيضته الاخيرة».

كان الفرنسيون، ذوو القبعات المدورة، قد بدأوا يفدون إلى البلاد. ومع مجيئهم انتقلت البنادق بكثرة إلى الايدي، بعدما كانت عزيزة جداً، ولا يملكها إلّا الاقوياء المتنفذون، فاذا بآل مُسْلِط يحولون الاكراد الى قنائص.

لقد فهم الفرنسيون، في الحال، واقع المنطقة، بعد إنشاء ثكنتين آنذاك، احداهما في «القامشلي» التي صارت كبرى مدن الشمال، في ما بعد،

والاخرى في «عامودا» التي صارت كبرى القرى، ومن ثم «ناحية» لها شوارعها المستقيمة المرصوفة، فبادروا الى توزيع البنادق على البدو، الذين تميزوا بسذاجة مفرطة في أخلاقهم، فلم يكونوا ليأبهوا الا لمن يعطيهم سلطانا، فيبايعونه. اما الاكراد فكانوا متزمتين دينياً، ويرون في الفرنسي كافراً نجساً، يأكل لحم الخنزير، ويسفّه دينهم، فاستعصوا في التعامل عليهم. وقد نسي التاريخ، الذي رُوي بعدئذ، ماذا فعل حسين آغا الشاب، بتحريض من ابيه، ضد تلك الثكنات المستحدثة، قبل ان تُسدد طلقةٌ واحدةٌ إلى الإفرنسيين بوقت طويل.

كانت وطأة البنادق وطأة صلبة على أكراد الشمال، فتوزعوا على قرى بعيدة، قبل أن يجدوا منفذاً إلى استيراد البنادق التركية، عبر المهربين، فيحصّنوا الشمال كله. وهكذا توجّه حسو الميرسيني، بعائلته الى ارض «قولو» ذات الهضبتين العاليتين، واستقرّ هناك، لكن البدو استهدوا الى ممرات جنوبية، فوصلوا بدورهم الى تلك الارض، متخذين من قرية «مَحْجَرا» معسكراً لغاراتهم بقيادة اولاد مسلط، بيد انهم لم يصيبوا ظفراً بعدما ملك «الميرسينيون» بنادق تصيب جبهات خيولهم، فاستعانوا بقبيلة عباس الجبوري، الملقب بالذئب، وقد رفض عباس الاشتراك في هذه الحرب اول الامر، لكنه رضخ حين سرت وشوشات تتهمه بالجبن. ومن «محجرا» ذاتها، تلك القرية التي انتشرت حولها الخيام والخيول، شن عباس، الذي تولى قيادة البدو كلهم هناك، أعنف غارة شهدها الشمال.

تحصن الأكراد باخاديد الارض وجدران البيوت. اما البدو فكانوا يكرون على خيلهم مكشوفين، واذ يتساقطون تباعاً يرجعون على أعقابهم ليعيدوا الكرّ. ولقد استُهْلِكَ من البصل ما يعادل نصف هضبة من هَضَبَتَيْ «قُوْلُو»، في تلك الغارة، اذ كانت النساء الكرديات يقطعنه بالسكاكين، ويوزعنه على الرماة، فيدلك هؤلاء بالبصل سبطانات بنادقهم الساخنة لتبترد سريعاً.

دامت الغارة يومين، حتى سقط عباس الجبوري ذاته صريعاً على يد حسو الميرسيني، فتشتت البدو ايّما تشتت بعد مصرع الذئب، وقد سمح الاكراد لهم، إثر ذلك، بنقل جثته، فأخذوها باكين، ولم يرجعوا ثانية.

بعد ذلك بسنين انتقل حسين، ابن حسو الميرسيني، الى قرية «موسيسانا». وكانوا يلقبونه بذي القرنين، لان ذؤابتين تتدليان على جبينه

فتصلان حتى خديه، من تحت حطته المرقطة. و «خاتي» تتذكر رحيل ابيها حسين من «قولو» الى القرية الجديدة على نحو تتداخل فيه صور كثيرة متنافرة، لصغر سنها آنذاك، لكن الصورة الواضحة التي لا تفارقها هي صورة مخدتها الصغيرة، ذات التطريز المحيّر لنقش يمثل حيواناً اشبه بالقط، له لحية حول فم مبتسم، وقد احتفظت خاتي بتلك المخدة حتى غدت صبية ناضجة، فنسخت ذلك النقش، بيديها، على مخدّة ثانية أهداها والدها الى المعلم الذي كان ينادي الرجال بلقب «رفيق»، في قريتهم، ومن ثم اختفى المعلم، فاستعادت خاتي مخدتها، لكن عيني الحيوان في النقش كانتا قد تغيرتا.

قارنت اخت الملاّ ما بين التطريز على مخدتها الصغيرة، والاخرى التي اهداها والدها الى المعلم فاحتارت. العينان هنا لا تتطابقان والعينين هناك. كانتا مستديرتين محدقتين على المخدة الاولى، لكنهما، على المخدة الثانية، يشوبهما حَوَلٌ واضح. وخاتي لا تذكر انها اخطأت النسّخ قطّ، كما انها تتشاءم من كل أحْوَل، وليس في وارد يديها ان ترتكبا هذا الخطأ الفاضح.

لقد ظنت، في ما مضى، وهي في حوالى العاشرة، ان حَوَلاً اصابها على حين غرة، وكان جدّها حُسّو يصافح جدها، من جهة امها، مصافحة طويلة دامت ساعة وسط رجال يحدقون في فضول. وكان في ملامح الرجلين الكهلين ما ينبىء بتحدٍّ ما، خفيت اسبابه عليها، فاقتربت ممسكة بجلبابيهما بيديها الصغيرتين، ناظرة إلى وجهيهما العاليين في قلق، وقد فوجئت بقطرات من الدم تطفر من تحت اظافرهما لشدة ضغط اليد على اليد، حتى ان قطرة ساخنة سقطت على جبهتها، فانتاب عينيها ما يشبه الزّغل من الصّدمة، فصرخت: «عينايٍ.. عيناي».. اذ ذاك انفصل الرجلان وقد انحنيا عليها ـ وكانا يحبانها كثيراً ـ سائلين عن الذي ألـمّ بها، فازداد صراخها: «اصبحت حولاء». آنئذٍ حل المرح محل الصرامة بينهما، فابتسما، ثم ضحكا وهما ينظران الى عينيها، ويتجاذبانها ليحتضناها، هامِسَيْن بالتناوب: «كذابة صغيرة. كذابة».

ترى ما الذي عناه الملاّ بكلمة «مخدة»؟ تحدّق «خاتي» في لهب المدفأة شاردة قليلاً قبل ان يرتطم بها احد اولاد اخيها اللاهين من حولها، فتدفعه بيديها بعيداً عنها. فيغضب الولد من حركة عمته فيقذفها بالمخدة الملفوفة بالملاءة البيضاء، فترد خاتي المخدة اليه في قذف قوي، بدورها. بعدئذ، يتناهشانها معاً، كلٌّ يحاول ضرب الآخر بها. وقد راق العراك الدائر بين العمة

وابن اخيها للولدين الآخرين، فتدخّلا في شكل مَـرِحٍ وصاخب، حتى غدا ما يجري نوعاً من اللهو، لا عراكاً.

وتحت وطأة الايدي الثماني انحل غطاء المخدة اوّلاً، ثم انفرطت عُـقَـدُ الخيوط فانــدلق الـريش من كل لون وجنس: ابيض، ومـرقط، واسـود، ورمادي، واحمر باهت، وبنفسجي، وزيتي. هذه الريشة تخص ديك العيد، وتلك تخص دجاجة حفل تطهير «زيوان». هذه لقطاة، وتلك لحجل. هذه المـرقـطة لديك حبشي، وتلك لإوزة مسعـورة. ريش. ريش. كان بعضه يتساقط على سطح المدفأة فَيَنِشُّ نشيشاً خافتاً، ثم يسودّ ويتقلص، ليحترق بعدئذ، مرسلاً دخاناً ذا رائحة خاصة، والبعض الآخر يعلق بشعر الاولاد، وغطاء رأس خاتي الخشن، فيبدون، جميعاً، كدجاجات هاربة من قنٍّ داهمه جُرذ ضلَّ طريقه.

بحث كرزو عن وشاحه، الذي سقط اثناء الركض، فعثر عليه. كان نصفه مدفوناً في الثلج بعدما وطأه هو بنفسه. رفعه، ثم نفض عنه الثلج، قبل ان يلف به رقبته، والجزء الاسفل من وجهه حتى ما فوق الأنف، اتقاءً من اللفحـة الباردة، وأكمل سيره على خط منحنٍ، جنوباً، في اتجاه ازقة الحي الغربي، لكنه كان يتوقف عند كل حدبة صغيرة من الارض البيضاء، متوقعاً ان ينهض بيكاس من تحتها ثانية. يتفحصها في مشيه، وهو ملتفت الى الوراء حيناً، والى الجهات كلها معظم ما تبقى من أحيانه الأخرى. غير انه، حين احتوته الازقة لم يعد يهمه ان كان بيكاس حياً، ام ميتاً. فالصِّـبْـية الذين افاقوا مثله مبكرين، رفعوا، في الازقة تلك، اعماقهم الصغيرة، عارية، تحت خوذة الصبـاح البيضـاء، مشتغلين على ابراج واطئة هنا، وابراج هناك، يهدمونها تارة، ويُعْلُونَ اسـوارها تارة اخرى. الايدي المزرقّة تكوّر الثلج وترمي به، والاجساد الضئيلة الغارقة في ثياب سميكة فضفاضة ـ يرثها الاصغر سنّاً، عادةً، عن الاكبر سناً حين تضيق عليه ـ تتصادم. وهم يعمدون الى التصادم اذا اخـطأت كرة احـدهم وجه الآخر، كأنما الجسد امتداد للكرة الثلجية، ينقذف معها، ويرتد حين تصيب. والاكثر خسارة، في تلك المواجهات التي لا قانـون فيها، من يسقط ارضاً.كثيرون سينقضون عليه في محاولة لدفنه. سيحشون فمه وعينيه اولاً، واذنيه ثانياً، ومن ثم يهيلون عليه الثلج حتى يغدو شبحاً خارجاً من ظلال مرحهم المهشمة.

لقد وجد كرزو نفسه، فجاءةً، في الحلبة بكل ملهاتها. ولما لم يكن قادراً

على تجنّب المتواجهين - والتجنب سيجر اتفاق الصبية المتخاصمين، كلهم، عليه في هذه الحال - فقد انخرط في اللعبة بشكل عشوائي: يقذف بالثلج كل من يصادفه. يرد هذا حيناً، ويرد ذاك حيناً، فيبادله الفريقان حمايةً بحماية. ومع كل هذا التدبير الغريزي، فقد نال من اللطمات، والكرات، ما فيه الكفاية، ودون أن يتميزه احد من الجانبين، او يعيره اهتماماً خاصاً، سواء أأبلى مع احدهم، ام ضده. وقد تحايل، والصبية في كرٍّ وفرٍّ، فابتعد عن الحلقة قليلاً قليلاً، حتى صار على مبعدة يقدر منهاان يولّـي، فانتبه اللاعبون اليه، فنادوا عليه، ولما لم يستجب، ركضوا، جميعاً، في أثره، غير أنهم لم يدركوه، فتوقفوا، ومن ثم نسوه، عائدين إلى ممالكهم التي تضيق في لحظة، وتتسع في اخرى.

الملاّ واخوه يراقبان وجه الطبيب الذي يشبه سريراً من أسِرَّة المستشفى، فارغاً منبسطاً، لا تعثر العين فيه الا على تجاعيد صغيرة في الملاءة، كأنما جلس احدهم عليه لبرهة ثم مضى. يده تجس رسغ المرأة، ومن ثم وريدها. يهمس باسماء غريبة الى الممرض الشاب فيغيب لحظة، ويرجع حاملاً زجاجة صغيرة بيضاء، وحبتين خضراوين ملفوفتين بقطعة من القطن. يحقن المرأة في وريدها، بما في الزجاجة اولاً، ويناولها، بعدئذ الحبتين مع كأس من الماء. يتناول الطبيب دفتراً من جيبه، ويكتب فيه بحروف شيطانية بقية ما ينبغي على العائلة ان تعانيه، ويدفع بها الى الممرض الذي يدفع بها، بدوره، الى الملاّ. يتجه الطبيب الى الباب ويخرج. يلتفت الممرض الى المرأة: «ستكون في خير. فلتتبع ارشادات الصيدلي التي سيكتبها على الأدوية الموجودة في الورقة. خذاها الى البيت». ولما وجد بعض الحيرة والارتباك في وجهي الاخوين، سأل: «ابيتكم بعيد؟» فأجابه مهمد: «نعم». رفع الممرض بصره الى سقف الغرفة متبرماً، كأنما عانى الكثير من ذلك مع الوافدين الى المشتفى، ثم هزّ برأسه قليلاً، واشار اليهما: «انقلاها حتى الباب الخارجي، ولتأخذكم سيارة الطوارىء من هناك»، فسارع الرجلان يحيطان بالمرأة وينقلانها خارجاً. ومن هناك اخذتهم سيارة الطوارىء، بتوصية من الممّرض، معرّجة على الصيدلية الوحيدة اولاً، ومن ثم الى الحي الغربي.

حين دخل الرجلان، وهما يسندان برينا، إلى الغرفة، كانت خاتي واولاد أخيها يجمعون الريش المتناثر، وقد توقفوا لبرهة من المباغتة، ثم انكبوا بدأب على عملهم، متلافين أن تلتقي عيونهم بعيون الداخلين الطافحة

بالتساؤل المستنكر. وبعدما تمدّدت المرأة على فراشها ذاته، وغطاها الزوج بلحاف سميك، وقف إلى جانب أخيه الذي عقد يديه خلف ظهره، سائلاً: «ما الذي يجري هنا؟»، فأتته الاجابة من إبنه الأصغر: «ضربتني عمتي بالمخدّة»، فعاجله أبوه بصوت غاضب: «وضربت عمتك بالمخدة، بالطبع، ثم أكلتموها، وتركتم لنا الريش»، والتفت إلى أخته حانقاً: «ينقصك، والله، ان تنصبي الفخاخ، طوال النهار، مثل كرزو، على باب قن الدجاج إذا لم تجدي ما تتصيّدينه. ها؟»، واستدرك، فسألها: «اين كرزو؟ ألم يحضر عقدي ساري وجهور بعد؟»، فوجدت خاتي في سؤال أخيها فرصة لصرف نظره عن الريش: «كرزو؟ ومن يعتمد على كرزو؟ أرجّح انه مضى خلف زرزو الى «نصَيْبين»، لا الى بيت عفدي. . »، فقاطعها الملاّ: «اتظنين ان في الإمكان الاعتماد عليك؟ هاتي مخدة ثانية بحق الله، ولفيها، ألم اقل إنها بيكاس؟ الحمد لله على تأخر كرزو، والا لوجد عفدي وجهور ريشاً بدلاً من الجثة»، فبوغتت خاتي، سائلة: «اية جثة؟»، فرد الملاّ، رافعاً يديه كالموبّخ: «جثتك»، فتدخل مهمد، عندئذ، بصوته الهادىء، مدركاً ان شيئاً ما قد فات اخته: «ألم تسمعي ما قاله الملاّ حين خرجنا؟» فردت الاخت: «كان ضجيج السيارة. . »، فقاطعها الرجل باشارة من يده: «لا بأس. سنعلن ان بيكاس قد مات يا اختي. بيكاس هو المخدة التي ستلفّينها لتبدو كجثة طفل. بيكاس مات. لا حول ولا قوة. . »، وسكت بغتة، مأخوذاً بالحيرة في عيون أولاد أخيه المصغين في فضول صارخ، فالتفت إلى الملاّ محدقاً في عينيه، كأنما يسأله لماذا سَهَوَا عن وجود هؤلاء، وكيف يتيعين عليهما ان يقنعاهم؟

برينا كانت تصغي أيضاً، متمددة مغمضة العينين على ألم تراه في الظلام، متدافعاً حلقة حلقة، كدخان لفافةٍ، أسفل احشائها. «لماذا لا يستشيرونني؟» تسأل نفسها. «انه ابني، وابني لم يمت. فليبحثوا عنه قليلاً. بحق الله فليبحثوا عنه». قبل سنين اختفى المعلم الذي اشتغل محاسباً لدى والد زوجها، ولم يسأل أحد عنه. رأت بقعة من الدم على ملاءة سرير من أسرّة المستشفى فتذكرت ربطة عنق المعلم ذي الشاربين الرقيقين، والشعر المقصوص الملتمع. وكان الرجل إذا مرّ ببيتهم ترى برينا في عيني أمها ما يشبه التوسل ليقف سائلاً أيّ شيء، لكنه يسلّم تسليمًا خافتاً ويكمل مسيره. «من لم يعجب بالمعلم، على كل حال» تردّد برينا في نفسها. غير أن الملاّ كان آخر شخص تفكر برينا في ان امرأة ما قد تعجب به. لماذا تقارن بينهما الآن؟ انها

معجبة بزوجها، برغم الفارق في السن بينها وبينه، وقد اعتقدت ان هذا الإعجاب سيترسّخ اكثر إذا انجبت طفلاً تزاحم به أطفاله من زوجه الأخرى. ستتباهى به، سيشبه الملاّ بأنفه المحدّب قليلاً: هذا ما كانت تقوله لزوجها متفكهةً. أما الآن، فها هي تسمع إعلان نعي ابنها، ولا تدري أتحزن من الامر، أم ترى فيه مخرجاً، لكنها غاضبة قليلاً، لأن أحداً لم يستشرها. وترن كلمة «ابني» طويلاً في صدغيها، من الداخل، مشوبة بطعم حامض تحت لسانها. أكانت تلك المحنة، التي تدعى «بيكاس»، ابناً؟ زوجها على حق في هذا المخرج لمسألة لن تستطيع شرحها. زوجها على حق في توفير نظرات الناس التي ستذيبها، فيما لو بقي ذلك الـ «بيكاس» الذي لم تلد مثله امرأة. غير أنها حين تستعيد شبح ابنها، تكاد تصرخ: «ولم لا؟. انجبتُ رجلاً دفعة واحدة».

على كل حال، لم يكن بيكاس على صورة إبن، تحديداً، بالنسبة لبرينا. تستثير اعماقها فلا تقع على أمومة ساخنة، بل على إعجاب ما، رقيق غريب. كانت تغمض عينيها في الساعة الاولى لولادته. فالطفل الذي جاورها بات شكلاً من اشكال الحمى، آنذاك. وكانت خائفة حتى من النظر إليه. فراشها يتمدد ويتقلص. قدماها تلتصقان بشيء بارد فتسحبهما، متكوّرة كقربة لبن صغيرة، تارة، وفي اخرى ترى نفسها ضائعة في مساحة الفراش الذي يغدو كسهل واسع، لين جداً، تتوزعه منحدرات تمسك بأنفاسها. يد الوليد تتسلقان أعماقها. شَعْر ينمو في ثلج تحت يدها، والكلمات الاولى للكائن الذي انجبته تهتز اهتزازات تخلع الأحشاء من جذور جذورها: «مرحباً أمي».

لم يكن الامر حلماً لتفتح عينيها فتبدّده، ولذلك آثرت أن تغمضهما طويلاً. صمتتْ ملجومةً باستسلام، غير عابئة بالصرخات المكتومة لأخت الملاّ وهي تتراجع زحفاً، وكان وليدها يزحف بدوره، خارجاً من تحت الغطاء، باتجاه عمته: «اهدأي»، فتنهار خاتي تماماً.

«لقد انجبتُ رجلاً دفعة واحدة» تكرر برينا في ظلام ألمها. والملاّ حائر. لم يحضر أحد بعد. ملهاة التشييع تكاد تنتهي قبل أن تبدأ. إنه في حاجة الى وجوه تتكلف بعض الأسف لئلا ينفجر بالقهقهة، او بالشتائم فيخرج عن وقاره. إن أساه الراهن هو أسى الباحث عن مخرج من ورطة. ليس حزيناً على بيكاس الغائب. ليس حزيناً على المخدة التي ستكون بيكاس. لكن برينا... ويلتفت إلى زوجه كأنما يعتذر. فالملاّ لم يفكر قط أن للمحنة حضوراً ما في وجهها. لقد ظن، طوال الوقت، أن ما يراه من إعياء وألم هما محض ما

ينتـاب امـرأة عقب الـولادة. كيف عنّ له ذلك؟ حسبه النظر اليها بعينين منكسرتين، فتبادله النظر بانكسار أشدّ.

أولاد الملاّ منهمكون في بحث عابث عن نتف الريش في ثنايا البساط. ومن خلف ظهـري الـرجلين الجـالسين بإطراق يمدون ألسنتهم سخراً من خاتي. تراهم برينا فتكاد تبتسم.

لطالمـا أحبت برينا صغيرهم. ظريف في أكاذيبه التي لا تنتهي، ولا ينفك يلازمها مذ دخلت بيت الملاّ، كأنها أمه. ولم يكن حذراً منها حذر الثلاثة الآخرين. لقد سألها، في اليوم الأول لمجيئها، أن تروي له حكاية البقرة التي أكلت قرية «تُوْبِزْ»، ولما لم تكن تعرف شيئاً عن بقرة التهمت قرية، أوهمتْهُ انها تحاول التذكر: «البقرة. . هـ. هـ»، فكان الصغير يسبقها، راوياً لها ما ينبغي ان ترويه له. وفي كل مرة يتـوقف فيهـا، توهمـه، من جديد: «ولمـا أكلت البيوت. . هـ. هـ»، فيعـود الصغـير إلى السرد، كأنـما هو في عجلة من استعـراض معـرفتـه. ولمـا استكملت الحكـاية منه صارت ترويها كل يوم، بالتفـاصيل ذاتهـا، وبنبرات الصوت ذاتها التي ترتفع، وتنخفض، بحسب جسامة الاحداث، أو اقتراب وقوعها: بقرة البقرات أكلت القرية بيتاً بيتاً، فانتفخت حتى صارت في حجم هضبة «موزان».

تمد خاتي عنقهـا صوب النافذة: «هنالك أحد ما في الخارج». عينا الملاّ تبحثان، بغتة، عن المخدة، وإذ يراها ملفوفة ينهض مسرعاً ليمدّدها اسفل فِراش زوجه برينا، هامساً: «خاتي. خذي الاولاد إلى الغرفة الاخرى». وقبل أن تخرج اختـه بأولاده تعلو طرقـات خفيفة على الباب. تفتح خاتي الباب وتتنحّى جانباً فيدخل عفْدي ومن خلفه جهور. ثمت آخرون في الباب ايضاً، فتسـارع اخت المـلاّ الى دفـع الاولاد خارجاً، ليتسنى لهم الدخول. أولاد عفدي وجهور، وزوجاهما، وبعضٌ ممن استدركت النساء فناديهم من وراء أسوار بيوتهم، حضروا ايضاً. وكان يُسمع، في الخارج، اصوات اطفال تبعوا الكبار بدورهم.

ضاقت الغـرفة بالحشد الواقف، فارتأى الملاّ، بعد ردود سريعة على التحيات والتعازي، ان ينتقل بالرجال الى المضافة، وقد انسلوا تباعاً، وسط الثلج الذي لم يزل رمادياً، إلى الغرفة التي شهدت زواج بيكاس.

تكلف الرجال مراسيم احترام صارم في الباب: «تفضل. لا. تفضل أنت. أنت. لا. .»، ودخل عفدي اولاً، ثم تبعه الملاّ، الذي ارتفع قلبه إلى

عينيه فصارتا تنبضان نبضاً مؤلماً: كانت سينم ما تزال جالسة قرب الموقد الذي ينبعث من صفيحه وهج بارد، إذ كان قد انطفأ منذ زمن، على الأرجح، مادَّة يديها وقدميها في اتجاهه، كمن يتدفّأ.

صورة من الرعب المنسي أوقفت الملاّ في الباب للحظات، ثم استدرك فتنحّى ليدخل الآخرون، سائلاً وهو يخفي رعشة صوته: «ماذا تفعلين هنا يا سينم؟»، فنظرت البلهاء المبتسمة اليه نظرة توهّمها الملاّ سخرية من لعبته كلها، فأشاح بوجهه متشاغلاً: «تفضلوا. تفضلوا»، وأردف دون أن يلتفت: «هيا يا سينم إلى غرفة الاولاد». وإذ مرت به من خلف ظهره أحسها محدثة إلى أعماقه، والقهقهة تتطاول حتى ليكاد الثلج كله أن يتسلق فضاء روحه بخطاطيف من حفيف ثوبها. «هيا» كررها ثانية في دفاعه الخفي عن حاضره، ثم ارتفع صوته، ثالثةً: «هيا» بنبرة صارخة، لكن سينم كانت قد توارت، مما حدا بالرجال إلى التمعن فيه ببعض التساؤل.

كان كرزو واقفاً كحارس أمام باب غرفة أمه، يرد الأولاد الذين تبعوا أمهاتهم. وبين الحين والآخر يتناول كرة من الثلج ويقذفهم بها، فيدب فيهم هرج صاخب. ولما التقت عيناه بعيني البلهاء القادمة في اتجاهه، حدّق كل منهما ملياً في الآخر. كانت سينم مشدودة إلى حركاته فتقذف بالهأهأة من فمها على دفعات، وكان كرزو يزنها بقدر هائل من حقد صبي يرى فيها سخرية من أمر لم يجده إلاّ طريفاً في جدّيته، وكان حرياً بالأمر ذاك، إذا استمر، أن ينخرط كرزو فيه بكل أعماقه. فبيكاس هو محض لعبة؛ محض سؤال مرح؛ محض فضول طفولي منبعث من أعماقه وأعماق إخوته. وإذ رأى البلهاء واقفة على حالها رماها بكرة كبيرة من الثلج ممزوجة بالطين، صارخاً بالأولاد الواقفين في الساحة: «هيا»، مشيراً بيده الى الطريدة التي ارتفعت قهقهتها وهي تمسح عن جبينها وكتفها بقايا الكرة. حينذاك ركضت سينم من جهة إلى أخرى، والاولاد يلحقون بها. دارت مراراً حول شجيرة الزيتون الوحيدة. دخلت غرفة التنور وخرجت. التجأت الى الزوايا الأربع للسور. اصطدمت بولد هنا، وبولد هناك. قذفتهم بمثل ما يقذفونها به. ولولت قليلاً، وقهقهت كثيراً. كانت تكتئب إذ تُحاصر، ويعاودها المرح حين تنجو. وأخيراً دخلت الزريبة. احتمت بالخراف المذعورة، لكن المطاردين أحاطوا بها، فانطوت على نفسها في إحدى الزوايا وهي تحمي رأسها بيديها. ضربها الأولاد بكراتهم حتى تعبوا، ومن ثم انفضوا من حولها راجعين إلى مكانهم في الساحة، كأنما غالبهم بعض

الإشفاق عليها. حين ذاك باغتها كرزو، مستفرداً بها كمن يتهيأ لسلخ الطريدة.

كان رأس البلهاء، من شدّة تكوّرها، قد اختفى بين فخذيها، فأراد كرزو ان يرفع وجهها إليه قليلاً ليعاجلها بكرته، لكنها لم تتزحزح، كأنما تحجرت في الزاوية، فباغتها: «رأيت بيكاس» على أمل ان تتحرك، فإذا بها تتحرك حقاً، وسط كومة الثلج المسودّ مّما علق به من التبن والروث. كم رماها الاولاد بكل شيء، بالثلج وبغيره، حتى كادت تختفي في الركام. وإذ فتحت عينيها ناظرة الى كرزو، الذي توقع أن تستفسر منه عما رأى، بادرته: «انا جوعانة»، بابتسامة عابقة بالتوسل، فانقض عليها الصبي، دافعاً بكرته الثلجية في فمها: «كُلي هذا». ثم انحنى يجمع كرة ثانية مما تقع عليه يداه من الروث والطين، فباغته صوت من باب الزريبة: «كفى ايها الحيوان».

كانت خاتي قد رأت من النافذة آخر فصل من مطاردة البلهاء، فخرجت على عجل. وها هي تتدارك الأمر بالكثير من الشفقة المُرَّة وبإحساس عارم بالذنب: «كيف نسيناها طوال هذا الوقت؟». وقد انحنت على سينم فنفضت عنها ما علق بها، ثم أخذت بيدها خارجة من الزريبة، مُلقية إلى كرزو نظرة وعيد كصاعقة: «يا سليل الشيطان». فلم يُرد الصبي أن تمر المسألة هكذا. وبإحساس غامض يدفع به إلى إثارة فجيعةً، أو كَسر جليد اللعبة التي أحكمت العائلة نسجها، صرخ من خلف عمته: «رأيت بيكاس»، فبوغتت خاتي قليلاً، توقفت دون ان تلتفت، كأنما تبعد شبحاً يجرُّها إلى الحمى، ثم أسرعت الخطا نحو باب غرفة الأم وهي تدفع البلهاء أمامها دفعاً. فتحت الباب وتوارت في الداخل كهارب.

لم يتساءل احد من الرجال عن وجود تلك البلهاء في غرفة المضافة. كانوا يُبدون القليل من الهمّ جبراً بخاطر الملاّ، ولكنهم يتوزّعون احاديث شتى بينهم. من يأسي، على كل حال، لفقد وليد عمره يوم، أو أكثر بقليل؟ هذا هو المرعي عادة، ولربما استكثروا، في نفوسهم، على الملاّ إطراقه وهّمه. يُعَوَّض. الاطفال يُعوَّضون. «ستكون لك، بعون الله، ذرية كبيرة» يقولون للملاّ، فيرفع رأسه ملمحاً بابتسامة ممتنةً. لكن الأكثر إغراقاً في عزلته كان «مهمد» والد سينم، فلقد آساه ان يرى ابنته تمر به بهأهأة خارجة لا من فهمها، بل من مدى وحشته وعُريه. كانت غريبة في رقعة لم يكن حرياً بها أن تكون غريبة فيها. عروس أُعفيتْ من بَرَكَة عُرسْها. هِبَةٌ من ظلام، عذراء

كمحنةٍ. لن يعرف احد لماذا كانت هنا، فاردة امام الصفيح البارد مشاغل عمرها الهيِّنة كلفافة في فمٍ نهمٍ. «مهمد... لماذا لم تأخذ بيدها إلى الغرفة الاخرى كما يليق بأب أن يبجّل ابنته العروس؟» يسأل الرجل نفسه، ومن ثم يواسيها: «ما همّ. هذا بيت أخي. بيتها»، ويشعل لفافة من جمرة أخرى، كأنما لم يقتنع بما قدّم من عذر. «لا. كم كانت وحيدة مهملة» همهم في أعماقه. لقد تتبعها بعينيه، إذ تخلف عن صف الرجال ليكون آخر الداخلين، فتتبَّعَ انكساره هو، تلا خطاها. وكان آخر ما رآه، قبل أن يدلف الى الغرفة، تلك الكـرة الثلجية الممتزجة بالطين تتهشم على رأسها الذي ارتد الى الوراء من الصـدمة، فارتد رأسه، بدوره، إلى الوراء. نثار بارد غطى رئتيه، وشظايا انحدرت مع الدم إلى بُطَينْ ما من قلبه. لم يعد يرى الاولاد المتحلقين أمام باب الغـرفة الاخرى إلاّ بنأت آوى تتناهش رأس كرزو. آه كرزو. الغرفة تنهـار. حقول تنبسط، ورجال ينهالون بخيزرانات طويلة، من فوق ظهور الجياد، على كلٍ شيء. ورق نباتات اليقطين المتناثر يختلط بأنين الحيوانات السارقة في فجرٍ ما. «اضرب. اضرب بالخيزرانة بين العينين. اضرب سفح الهضبة كلها، نزولاً إلى آخر تخوم البطيخ الأحمر. اضرب الهضبة ومقابرها. اضرب الثلج المبتسم، وشجـرة الزيتون التي لن تكبر قط. كرزو»، واغلق مهمد الباب من ورائه حتى لا يسترسل في غضبه. لقد كان آخر الداخلين، لكن عينيه ظلتا هناك، وكذلك قلبه المتقازف كجُندب سكران. ويصحو قليلاً فيرفع لفاته إلى فمه فإذا بها رماد، فيشعل أخرى كان قد عقدها سلفاً.

نهض الملاّ وفتح الباب، إثر طرقات تناهت إليه، فألفى خاتي سائلة: «ألا ينبغي ان تخرجوا للدفن الآن؟ العربة جاهزة»، فأومأ اخوها كمن يحثها على الانصراف ثم التفت إلى الرجال: «العربة جاهزة»، وكان في هذا الإيجاز إيحاؤه الكافي لينهض الجميع، متلمّسين احذيتهم للخروج.

النساء اللواتي كنّ في غرفة الأم خرجن تباعاً، ثم تحلقن أمام الباب وقد انضم إليهن أولادهن. وبعـد برهة خرجت خاتي، حاملة لفافة بيضاء على ساعديها، واخترقتْ الجمع إلى بوابة السور، وهناك مدّدت المخدة ـ الجثة على العربة المستطيلة ذات العجلتين، والتي سيجرها رجل لقاء اجر معلوم. وعلى سطح العـربة المنبسط كان ثمت رفش أيضاً، ومعول التصق بحديده طين رطب. وإذ رأى الرجل المعروق، المتدثر بمعطف فضفاض ثقيل، والممسك

بمقبضين خشبيين ليحفظ توازن عربته على عجلتيها، أن عليه أن يمضي، زفر زفـرة قوية وتقـدّم، فتبعـه الرجال وحدهم، بينما بقيت النساء حيث هنّ، يتلمسن رؤوس الاولاد فيدفنّها في خواصرهن، كأنها يحمينهم من شؤم، او عين.

ثلاثة عشر رجلاً، كانوا يتبعون العربة على الطريق الاسفلتي المتجه من المدينة إلى قرية الهلالية. وهذا الطريق هو وحده الذي يصل، على كل حال، مدن الشمال الصغيرة بعضها ببعض. ضيق قليلاً، لكنه يفي بما عليه، وتتناثر من حوله، بعد اجتياز الحي الغربي بالطبع، بعض البيوت، وحقول منبسطة من الجهتين بيضاء في فرائها الثلجي، على مدى البصر، لكن يتخلل الجهة الشمالية منه دغل يتصل بالهضبة التي تستقر عليها القرية التي ينشدها المشيّعون.

دخان التبغ يمتزج ببخار الأفواه. الرجال يعقدون اللفافات في يُسرٍ وهم سائرون. أصواتهم خفيضة لكنها متصلة. عباءات مبطنة بالفرو تخفق خفقاً خفيفاً من خلف الاحذية، وعجلتا العربة تنزلقان بعض الآناء، فيدور الرجل الى اليمين، او الى الشمال، بحسب انتقال الثقل يميناً او شمالاً، ثم يستعيد توازنه، ويخبط بقدمه على الإسفلت مندفعاً.

ثمت علوٌّ يعترض العربة قبل الوصول إلى ناحية المقابر، لذلك اجتمع بعض الرجال يدفعون بها من وراء حتى جاوزوا بها إلى سطحٍ منبسط، ثم سلكـوا في الثلج، مبتعدين عن الشارع الإسفلتي جنوباً، إلى حيث تستقر المقبرة على مبعدة مائتي متر في التقريب.

المقبرة بيضاء تماماً، والقبور مستوية بالأرض لا يميزها غير أحجار تدل على مواضع الرؤوس، واخرى على مواضع الاقدام. بضع شواهد تنبثق هنا أو هناك فتوحي بوجود مقبرة، ولولاها لما عرف أحد أن في هذا المدى المترامي ترقـد مئات الموتى. فمسلمو الشمال لا يستحبون بناء انصاب على القبور، لذلك تمـحّـي الكتل الترابية بعد زمن قليل، فتبقى احجار متناثرة، ورقائق من آجُـرٍّ يُغطى بها التراب.

في الصيف فقط تدل المقبرة على نفسها، بعدما تحصد الريح ما يخلّفه الربيع من عشب يابس. قرب كل قبر وكر لضبع تخرج منه العظام، تباعاً، إلى العـراء. لكن، وسط هذا الثلج الـذي يُسوّي القبور ببياضه، والموتى بالأفق الرمادي، لا يسع الرجال إلاّ ان يستعينوا بخرائطهم الخفية. وها هم

يتقدمون الآن من وراء العربة التي تغوص عجلتاها فتكاد تتفجر اوردة الرجل الذي يجرها.

«هيا. هيا» لكن العربة تقف بعد كل مترين. الرجل يكاد يهوي، وإذ يراه الملاّ في حاله تلك، يقترح ان يحمل جثة وليده بنفسه، وان يحمل صاحب العربة آلات الحفر، فذلك اسهل من المضي على هذا النحو. همهمات تعلو. كلٌّ يتبرع بحمل الجثة، لكن الملاّ يختطفها قبل ان تصل اليها يد. هِهْ، كان صائباً في حيطته، فالجثة خفيفة إلى درجة تبعث الريبة في النفس. «لماذا لم تضع خاتي شيئاً ثقيلاً في اللفافة؟»، ويلتفت شمالاً، حيث تستقر المدينة في المنخفض البعيد، كأنما يوبّخ اخته على سهوها.

«هنا» يشير مهمد على الرجل حامل الرفش، «ارفع الثلج عن هنا»، وينحني الرجل وهو يكشط برفشه طبقة الثلج ليتبين الارض من تحتها، وليتأكد انه لن يحفر في مساحة تخص قبراً قديماً. وإذ يجد الرقعة مستوية وصلبة، يلقي بالرفش جانباً ويتناول المعول: «بسم الله»، وتتلقى الارض ضربتها الاولى.

يمضي الحفر بطيئاً بسبب الطين الذي يعلق بالرفش، فيضطر الرجل الى تنظيفه بين برهة واخرى. والحفر لا يمضي عميقاً على كل حال، فوليد صغير تكفيه حفرة ضحلة. وعندما يغادرها الحفّار ينزل الملاّ بالجثة في خفّة، مبادراً قبل أن يتبرع غيره بتسجيتها في القاع الطيني، بل في جيب يتخلل جدار الحفرة، يسدونه ببعض الحجارة أولاً، لئلا يقع شيء من التراب على الجثة مباشرة آن إهالته على القبر. وحين ينتهي الملاّ من ذلك يمد يده إلى يد أحدهم، وبقفزة يصير خارجاً.

يجلس الرجال القرفصاء على مقربة من القبر، محكمين عباءاتهم السميكة حول أجسادهم، بينما ينحني الحفار على ردم الحفرة. كل اثنين يتجاذبان حديثاً ما، مبدّدِيْنَ بذلك الملل الظاهر في عيونهم المستعجلة. يُخرج الملاّ علبته الفضية، واقفاً، ويعقد لفافة سميكة، ثم يجيل عينيه في المدى من حوله، قبل أن تستقرا على شاهدة عريضة من حجر اصفر، يعلو قمتها خيط من الثلج. كانت بعيدة بعض الشيء، وقد استرعى ناظريه شيء اسود يلوح في جانب منها ثم يختفي. حدق قليلاً فزغل بصره من الوهج الابيض للثلج. لم يبد عليه فضول كبير، لكنه حين عدّ الرجال ـ وفي ظنه ان احدهم قد انتحى هناك ـ ووجد العدد كاملاً، عاد فنظر ثانية الى الثلج لعله يجد أثر اقدام يفضي الى الشاهدة، غير ان المسافة كانت منبسطة خالية حتى من أثر الطيور. ظلل

عينيه بيده على اللاتعيين، وحدق في الشاهدة من جديد. كان الشيء الاسود، الشبيه بطرف عباءة، يتحرك حركة خفيفة دون ان يختفي. نظر إلى الرجال فوجدهم غافلين إلّا عن احاديثهم. استدار ومشى.

لم يعر الرجال ابتعاد الملّا عنهم غير نظرة لا تساؤل فيها. مهموم ربما، وينتحي ليخفي انفعاله كما ينبغي على رجل صلب ان يفعل. هكذا فكروا لبرهة ونسوه. بينما تقدم الملّا حتى قارب الشاهدة، دون ان تفارق عيناه ذلك الشيء الاسود، الذي كان طرف عباءة، حقاً. ودار نصف دورة ليصير في مواجهة الكائن المختبىء فصُعق. كاد يصرخ، لكنه احس ارتخاء في مفاصله، وطعمًا لاذعاً امتد من تحت لسانه الى ما تحت جلد وجهه. طعم لاذعٍ في الجفنين وعلى أطراف الشفتين. تهالك في بطء، جالساً على الثلج، عارياً في مدى العينين اللتين تنظران اليه في هدوء ثقيل.

وجه أبيض تتدلى خصل بنفسجية عليه من الجانبين. عينان على شيء من صفرة فاقعة. لحية رمادية، والرأس لا شكل له تحت العباءة التي انسدلت من قمته على باقي الجسد المتكور، والمستند بظهره إلى الشاهدة. «بيـ ـيـ ـيـ كاس!» تمتم الملّا من بين أسنانه المصطكة. لقد تغير الوجه كثيراً عليه، لكنه فيه شيئاً ما لا ينساه. أهو السخرية البادية من أطراف العينين؟ ام الحاجبان المتصلان بانحدار فوق قاعدة الأنف؟ أم هو الأنف المحدب كالذي يحمله الملّا في وجهه؟. كلها معاً. انه وجه الأب نفسه برغم القناع اللّوني.

«إلهي»، تمتم الملّا، ثم مال في جلسته لينظر إلى الجمع البعيد من وراء الشـاهـدة، فأبصرهم قائمين، كأنما انتهى الردم. ازدرد لعابه قائلاً: «اين كنت؟» وانتظر ان يجيبه بيكاس، غير ان الاخير رد بابتسامة غريبة. تمتم الملّا ثانية: «ماذا اقول لهم؟ كيف اشرح اللعبة؟»، ولم ينتظر جواباً هذه المرة، بل نهض من فوره، هامساً: «ابق هنا بالله عليك. ابق متخفياً»، واسرع الخطا في اتجاه الرجال، الذين بدا واضحاً انهم ينتظرونه ليمضوا. ولما صار على بعد خطوات منهم توقف مطرقاً لبرهة، ثم رفع عينيه إليهم، مستقراً بهما على عقْدي ساري تحديداً: «اتمانعون في أن ابقى قليلاً، والحق بكم فيما بعد؟»، فهز عقْدي رأسه: «كما تشاء. لكن لا تتأخر»، واستدار مبتعداً بالرجال.

بقي الملّا في وقفته تلك حتى غاب الجمع في المنحدر الإسفلتي، فدار على عقبيه عائداً إلى الشاهدة على عجل.

كان بيكاس ما يزال على جلسته ذاتها، فجلس الملّا قباله، محدّقاً دون

ان ينبس ببنت شفـة. اخرج علبة تبغه وعقد لفافة استعصت، لأول مرة، عليه. اصابعه الباردة لم تكن تطاوعه بمهارتها المعهودة. وقد بوغت بكلمات ابنه فكادت العلبة تسقط من يده: «لُفَّ لي واحدة يا أبي»، فلفَّ اثنتين، قدم إحداهما لابنه، ثم قرّب ولاعته الكيروسين فاشعلها له، ومن بعد اشعل لفافته هو، ناظراً الى فم بيكاس وهو ينفث الدخان كما يفعل مبتدىء باللفافات.

تنحنح الملاّ بارتباك، سائلاً: «اين كنت؟»، فرد بيكاس «معهم. كنت معهم». ارتعش فك الملاّ السفلي من البرد المشوب بنفاد الصبر: «مع مَنْ؟» فرفع بيكاس حاجبيه متصنعاً الدَّهَش، كأنما على والده ان يعرف قصده، فرفع الملاّ حاجبيه بدوره، عسى ان يظفر بشرح ما، غير أن بيكاس بادره: «وماذا تفعل هنا يا أبي؟». «هنا؟» همس الملاّ مُغضباً، ورفع صوته: «ذاك هو قبرك. جئنا لدفنك، دفنا المخدّة وانتهينا. لهذا أنا هنا». فبادره ابنه بهدوئه المعتاد: «انـا حي. امـا المخـدة... لم أفهم». «أووووه» ولول الملاّ بصوت فيه نبرة نشيج: «اصبـح الشرح مستحيلاً، فرأينا ان ندفن المخدة التي هي أنت»، وصمت قبل ان يسترسل في هدوء من يقنع شخصاً يستعصي إقناعه: «اسمع. لن أتـراجـع عن المخـرج الذي وجدته لهذه المهزلة. بيكاس مات. أطفال كثيرون يمـوتون في يومهم الاول. لكنك تستطيع الرجوع معي الى البيت بصفتك شخصاً آخر. فلتكن، مثلاً، ابن اخي. ابن اختي. لا أنت اكبر من أن تكون ابن احد. انت كهل مثلي. فلتكن قريباً من الاقرباء الراجعين من تركيا. نعم. هذا مقنع. ألا تعتقد ذلك؟ سنحفظ الحقيقة سراً بين العائلة. بيني وبين برينا وخاتي. الاولاد لن يعرفوك»، ولعق شفته اليابسة منتظراً كلمة ما من ابنه، الذي اطرق قليلاً، ثم رفع رأسه مبتسمًا: «وسينم؟ نسيتها؟». «سينم.. سينم..» ردّد الملاّ مضيفاً: «آه، سينم. نعم سينم. كيف سأشرك ابـاهـا مهمد في اللعبة ثانية؟. سنجد مخرجاً. لا تهتم»، قال ذلك بصوت واثق، فعاجله ابنه قبل ان يكتمل له انتصاره الصغير على الاسئلة: «لكنني مشغول الآن يا أبي»، «مشغول بماذا؟» صرخ الاب في توسل، فرد بيكاس: «بدفترك. هاك» واخرج من تحت عباءته دفتر الاب الازرق.

غامت عينا الملاّ قليلاً، كأنما تلقى سخرية جارحة، ثم مدّ يده يتقرى الـدفـتر: «والله انه دفتري» قالها غير مصدِّق، واردف متطلعاً في عيني ابنه الغـريبتـين: «متى اخذته؟ كان معي حتى الصباح..»، فتجاهل بيكاس سؤال ابيه، فاتحاً ما بين الدفتين الزرقاوين، قائلاً: «انظر يا ابي»، وهو يمرر

اصبعه على بعض الارقام: «إنني أدقّق في الصفحة هنا»، فانحنى الملاّ بجذعه على الدفتر، متتبعاً إشارات ابنه: «تدقّق فيمَ؟» سأله، فرد بيكاس: «يتغير عدد اكياس القمح التي كنت تبذرها في المسافة بين قرية كِيْشْتَكْ وقرية تلّ حَمْيس»، فرفع الاب كتفيه: «وماذا في ذلك؟»، فاسترسل الابن: «كنت تزرع المسافة كلها قمحاً، أليس كذلك؟» فأومأ الأب: «نعم». فسأله بيكاس: «ولماذا، إذاً يتناقص عدد أكياس البذار؟» فأجابه الملا: «تلك مسألة عادية. اذا باعدت بين البذار زرعت، في المساحة نفسها، اقل عدد من الاكياس». «اووه» تمتم الابن، كأنما لم يكن راضياً عن الطريقة التي يحاول بها ان يقول ما يريد قوله لابيه، وأردف: «انظر هنا. إلى الاجور التي دفعتها لأصحاب آلات البذار. إنها تتناقص»، فهز الاب كتفه: «هذا بسيط، تزداد سرعتهم سنة بعد سنة. يختصرون الايام. ونحن ندفع مياومة».

تنفس بيكاس عميقاً، وطوى الدفتر، هامساً: «لا يا أبي. المسألة ان المسافة ضاقت ما بين القريتين»، فابتسم الاب: «لم اسمع ان احداً بنى بيتاً واحداً في ايٍّ من القريتين، فكيف تضيق المسافة؟». «تقترب القريتان، احداهما من الاخرى» رد بيكاس، وأضاف: «سأباعد بينهما لتعود المسافة إلى حالها الاولى»، فتجهم وجه الاب قليلاً: «وماذا ينفعني ذلك الآن؟»، وأكمل بصوت خفيض يحمل بعض السخرية: «حتى اذا استطعت ان تباعد ما بينهما». غير ان بيكاس تجاهل تلك النبرة، مردفاً بثقة: «يلزم الامر ان اعيد كتابة نصف هذا الدفتر من جديد، بافتراض ما كان ينبغي ان تكون الارقام عليه» ورفع عينيه إلى وجه ابيه متفحصاً: «اعني النصف الذي يخصك، لان النصف الآخر كان لجدي». «لا». اطلقها الاب بذعر. «لا، لتبق الارقام على حالها، ولتذهب حياتي، والمسافة ما بين كِيْشْتَكْ وتلّ حَميس الى جهنم»، قالها مربدّاً، وهم بانتزاع الدفتر من ابنه، لكن بيكاس سارع الى رد ابيه بيديه في رفق: «تمهل. تمهل» تمتم، ثم اضاف بعد برهة من التحديق احدهما في الآخر: «سأستعيره لا اكثر. عليّ اعادة ترتيب تلك المسافة مسترشداً بالارقام المدونة هنا. سأجعلها تتسع لنا دون استناد الى تقدير خاطىء لما جرى فيها. كل شيء سيكون واضحاً: كم سنبلة نَمَتْ. كم من الرجال وطأها. كم سرحت فيها من قطعان الغنم. كم قطاةً تتسعُ. ناهيك بالنبات، والوقت الذي ستستغرقه عاصفة ترابية لتجتازها. كذلك الزوابع، نعم، علي قياس علوّها ودوراتها. ستكون الامور واضحة حين نستقر هناك».

كان الملاّ يصغي، غير انه لم يلتقط من كلام ابنه إلاّ كلمة «لنا. تتسع لنا». فارتفع صوته: «لنا.. لنا.. من تقصد بـ «لنا»؟»، فرد بيكاس: «نحن. انا والذين معي». «اوضِحْ بالله عليك» صرخ الملاّ وقد استوى جاثياً على ركبتيه: «منِ معك؟» فرد الابن من جديد: «هُمْ يا ابي. هم».

ارتد الملاّ بمؤخرته على الثلج في استسلام، وإذ تكلم كان في صوته مايشبه النشيج: «اعد الدفتر فقط إليّ. لا اريد منك شيئاً آخر. اختفِ. إذهبْ. افعل ما تشاء انت و «هم»»، وكرر كلمة «هم» في مرارة، ثم اطرق منتظراً.

لمس بيكاس ركبة ابيه فرفع الاخير بوجهه المتعب اليه. كان بيكاس يبتسم فاستبشر الملاّ قليلاً، لقد توقع ان يعيد ابنه الدفتر اليه، او ان يقول شيئاً من قبيل «فلنفكر بمخرج للعودة الى البيت»، لكنه بوغت بسؤال غريب: «وماذا نفعل ببنات آوى؟». استوى الملاّ بعدما كان منحنياً: «أية بنات آوى؟»، فرد ابنه: «المسافة، تلك، ملأى بهن، انت تعرف». استجمع الاب هدوءه بجهد بالغ مبلغه: «تقصد المسافة بين القريتين؟. ما من مكان في السهول كلها يخلو من بنات آوى، على كل حال»، فانحنى بيكاس الى أمام الى درجة أن الأب رأى صورته في حدقتي ابنه الصفراوين. وقد سارع الملاّ، كأنما فهم ما سيتبع الانحناءة من سؤال، قائلاً: «برغم كل هذا الحديث الذي يثير ذهولي وضجري سأجيبك إلى ما ينبغي ان تفعله. ألم تخطر الفخاخ ببالك؟. نعم، الفخاخ. تصيّدها يا بني. كنا نحن نفعل ذلك، او نداهم الحقول في ساعات الفجر على الجياد، ونهوي بعصينا عليها. ابن آوى جبان، لكنك حين تقترب منه يرتد من يأسه على عنق جوادك الراكض. إضربْه وهو في الهواء. لا تخطئه حين يقفز، لأنك إن اخطأته جمح جوادك فأهلكك».

كان الملاّ مسترسلاً في شرحه قبل أن تفاجئه حركة من رأس ابنه تدل على عدم اقتناعه، فتوقف، بغتة، ثم دمدم: «إذن لِمَ تسألني ايها الـ..»، فسارع بيكاس: «لم أقصد الاساءة الى قَدْر اجابتك، لكنك تستغفلني». «استغفلك؟» همس الملاّ عاقداً حاجبيه، وكرر في أسى: «أستغفلك!! في اي شيء استغفلك؟»، فاتخذ بيكاس هيأة مستنطق يعرف ان الآخر يملك جواباً على تساؤله: «هيه يا أبي. انت تعرف نوع بنات آوى هناك». «نوع؟؟» تمتم الاب متسائلا فأردف الابن: «المجنّحة. المجنّحة» مردّداً الكلمة بتأكيد.

مرّر الملاّ يده اليمنى على لحيته، مبتسماً ابتسامة استخفاف من الأمر

كله، ثم نظر يميناً، الى المدى الابيض، هامساً دون ان ينظر الى ابنه: «ها انت تستغفلني»، واطرق مضيفاً: «لن ينقضي الامر حتى تجعلني اضحوكة»، فأتاه صوت بيكاس واثقاً في هدوئه: «اووه يا أبي، ما من سبب يدعوك الى هذا الاشفـاق على نفسـك. كنتم تحتفـظون بواحـد في البيت، فلماذا تخفي ما أعرفه؟»، إذ ذاك رفع الملاّ عينين منكسرتين إلى ابنه: «بواحد من ماذا؟» سأله مستفسراً، فرد بيكـاس: «بـابن آوى مجنّح. تصيده ابوك، ولم تكن صغيراً لتـدّعي النسيان».

تراخى الملاّ حتى بدت عباءته اكبر بكثير من مقاسات جسده. اخرج علبة تبغه بتكاسل وعقد لفافة ثم اشعلها، متمتماً والدخان يتداعى من بين شفتيه: «كنا نملك واحداً! نعم كنا نملك واحداً. يا للجناحين. ماذا كنا نطعمه؟. آه، الحرشوف الطري واليابس. لقد طرّزت أمي صورته على مخدة وهبتها لخاتي. آه. اضافت امي لحية الى وجه الحيوان. لماذا اللحية؟ سألناها، فأجابت ان الحيوان هو صورة روح شريرة، وقد أضفتُ اللحية لأجعلها روحاً انيسة»، وارتفعت قهقهة عالية من فمه، مسترسلاً: « انني استغفلك الآن. لم نملك اي حيوان من هذا النوع». ثم نهض واقفاً: «يا ابن الشيطان». اطلقهـا ملء العـراء: «اعـطني الـدفتر»، فنهض الابن، بدوره، متثاقلاً: «اتبعني. سأعـطيكـه في المنحـدر هناك»، واشار الى الجهة الجنوبية، حيث ينحـدر المـرتفـع الذي تقع عليه المقبرة، حتى يلتقي بمجرى فرع من نهر «جغجغ»، ثم مشى.

ظل الاب واقفاً في مكانه كأنما أُسقط في يده، متتبعاً ابنه المبتعد بعينيه اليائستين. «لماذا لا يعطيني الدفتر هنا؟» همس لنفسه. وعلى لاتوقّعٍ حتى منه خرج صوته مدوياً: «بيكاس. تعمَّدْتُ الخطأ في الحسابات. تعمّدتِ ذلك، أتفهمني؟ فضّلتُ الخسارة لنفسي تفصيلاً ايها الحمار. خذ الدفتر. كل شيء محفوظ هنا» واشار باصبعه الى رأسه. «هنا. هنا»، واستدار غاضباً، متجهاً صوب الطريق الاسفلتي. غير أنه توقف بعد عدة خطوات، ثم التفت الى الوراء فلم يجد غير آثار خطى ابنه المتجهة الى المنحدر. استدار مهرولاً اول الامـر، بعد ذلك اتسعت خطواته حتى صارت الهرولة ركضاً. وفي اسفل المنحـدر ادرك الاب ابنـه. التقط انفـاسـه وهو يمشي على بعد امتار منه. «بيكـاس»، هتف المـلاّ بصـوت مختنق، وأردف: «المخدة. . مخدة خاتي». وصمت اذ رأى ابنه يتوقف، ثم يلتفت إليه بعينين ازدادات صفرتهما، وعلاهما

شيء من الحَوَل. توقف الملاّ بدوره، وسرَّح بصره في الثلج: «لم يكن وجه ابن آوى، على مخدة خاتي، إلاّ . . .»، قال ذلك مشيراً الى بيكاس الذي قاطعه: «وجهي. صورتي انا. نعم. أرأيت أبي انك بدأت تتدارك ما حاولتم إقصاءه من ذاكرة العائلة؟»، واستدار على عقبيه ليمضي، فسأله الملاّ: «والدفتر؟»، فرد بيكاس: «كل شيء فيه صحيح. لكن علينا ان نتعمد تزوير الحسابات تحسُّباً»، فاقترب الاب خطوتين، سائلاً من جديد: «تحسبا ممَّـن؟»، «منهم. منهم يا أبي» رد بيكاس.

هزّ الملاّ رأسه، متمتماً: منهم!! هه، منهم»، وأردف: «سنفعلها معاً. أنا آتٍ معك».

انفرط عقد الرجال في طريق عودتهم من المقبرة. بقي عقدي ومهمد وحدهما، بينما انسل الآخرون، صامتين، كلٌّ في اتجاه بيته. وإذ وصلا منزل الملاّ كان الوقت عصراً. خاتي وبرينا والاولاد، معاً، افسحوا لهما مكاناً قرب الموقد، ثم جلسوا حين جلسا. نهضت خاتي وجاءت بطبق كبير من القش. وضعته خلفهما على الارض، ورجعت لتجيء بقصعة فيها طعام، وضعتها، بدورها، فوق الطبق، متمتمة: «تأخر الوقت، ولم تأكلا شيئاً»، غير ان عفدي ارتأى ان ينتظرا انضمام الملاّ اليهما، فغُطِّيت قصعة الطعام بغطاء حتى لا يبرد.

حل الظلام سريعاً في ساحة البيت، لكن أحداً لم يكلف نفسه عناء اشعال السراج. كانوا صامتين ومنتظرين. عيونهم تتبع علبتَيْ التبغ الفضيتين وهما تنتقلان بين يدي مهمد وعقدي. كانتا واضحتين من اثر انعكاس أشيب للسماء المزدادة بياضاً خلف النافذة الواسعة، التي وقف امامها كرزو مترصداً تلك الكتـل السوداء الصغيرة على السلك الممتد فوق الساحة. الزرازير لم تبارح مكانها إذاً، لكنها ستختفي بعد قليل. نُـدَفٌ رخيَّة صغيرة من الثلج تتهاوى، ثم تتبعها نُـدَفٌ اكثر عجلة. آلات حَلْجٍ خفية يرتفع ضجيجها الصامت في مساء المخلوقات، وما من اثر للملاّ. «كُلاَ بالله عليكما» تقول خاتي للرجلين، وتردف: «الارض لا تبتلع الأحياء، واخي لن يختفي بهذه السهولة»، مضفية بعض المرح الثقيل على كلماتها، فانحنى الرجلان، آنذاك، بملعقتيهما على القصعة الباردة بغير شهية واضحة. تمتمت خاتي ثانية: «أهو بارد؟ استـطيع ان أسخّنـه من جديد إذا أردتمـا»، فاشارا إشارة شكر وهما يمضغان لقمتيهما.

كانت اخت الملاّ قد أشعلت السراج توّاً لتهتدي يدا الرجلين إلى ما

يأكلان. وكان واضحاً انها تهمّ بقول شيء ما لـمَـمْهـمَـدْ، من جرّاء نظراتها الملحاحة الى وجهه، لكنها تكتم كلماتها في حضور عقْدي، الذي يلتفت بين الحين والآخر الى ابنته برينا مواسياً، او ممسداً رأس أحد اولاد الملاّ. وفي ثنايا الكلام الخافت، ذي الخشخشة الشبيهة بمرور الملعقتين على قاع القصعة، تناهت، مراراً، توسلات صغيرة من برينا الى ابيها: «عد الى البيت. كل شيء سيكـون على ما يرام»، وردود من عقْدي الى ابنته: «بعد قليل. لا بأس. نصف ساعـة اخرى». وفعلاً، بعد لفافة، إثر الانتهاء من تناول الطعام، نهض عفدي، قائلاً، وهو يخفّف من إحراجه في مغادرة العائلة المستوحشة: «اذا تأخـر الملاّ اكثر ابلغوني بالله عليكم، وكذلك إذا احتجتم اي شيء. سأزوركم صباحاً»، واردف متوجهاً بكلامه الى مهمد: «أأنت باق؟»، فأومأ مهمـد برأسـه: «قليلا». آنـذاك انسـلّ عفدي من الباب إلى شبكة الثلج العظيمة، وقد غطى رأسه بعباءته.

لم يدم صمت الباقين، الجالسين حول الموقد، إثر خروج عقْدي. بادر مهمد سائلاً: «أرجعت سينم الى البيت؟»، فردت خاتي على عجل: «ذلك ما كنا نريد مباحثتك فيه. إنها لم تزل هنا». حدق مهمد فيها: «عمّ نتباحث؟ لا مبرر لبقائها هنا»، والتفت إلى برينا: «اين هي؟»، فردت المرأة في انكسار: «في المضافة»، ثم تمتمت مطرقة: «ارتأينا ان نبقيها هنا لنستشيرك». اذ ذاك هزّ الرجل رأسه: «لا اعرف اذا كانت المسألة كلها مهزلة ام لا، لكنها انتهت، على كل حال. ابلغوا الملاّ حين يرجع انني اخذتها معي»، ونهض واقفاً، وقد رفع عباءته إلى قمة رأسه يغطيه، ثم هـمّ بالخروج، فسارعت خاتي قائلة: «ابق هنا. انا سآتي بسينم» واندفعت خارجاً وفي يدها قطعة من الخيش لتغطي بها رأس البلهاء حال خروجها. وقبل ان يكمل مهمد جملة توجه بها إلى برينا، مفادها استعداده لإجابتهم في اي طلب، كانت خاتي قد رجعت هرولةً، وعلى غطاء رأسها وكتفيها نُـدَفٌ كبيرة بيضاء لم تَذُب بعد. «انها وراء الباب» قالتها لمهمد، فاندفع الرجل خارجاً، ممسكاً بيد ابنته البلهاء ليزفّها، كما ينبغي لأب ان يمسك بيد ابنته حين يزفها، لا إلى بعلٍ، بل الى حقل الظلام المتخبط في شباك العراء.

سكـون موحش كبّـل العائلة، ولم يكن يقطعه غير تأوّهات خفيضة للاولاد يلكز بعضهم بعضاً بالمرافق. برينا كانت مطرقة بانحناء، اما خاتي فقد انجـرفت مع اللهب المتراقص في الكوة الزجاجية للموقد. كان في ودّها ان

تعتذر وتمضي، لكن قلقاً مُـرّاً حط بثقله عليها فلم تجرؤ على القيام. ولربما عَنَّ لبرينا نفسها ان تدفع خاتي الى الذهاب لتتفقد اولادها الذين غادرتهم منذ الصباح، غير انها اجفلت، خِـفْـيَـةً، من السكون الذي سيسود اكثر، ومن اسئلة اولاد الملا التي سترتفع بعد حين، في اغلب الظن، ولن يعينها على الرد عليها إلاّ خاتي. انها تتوجس شيئاً ما من تأخر زوجها غير المبرر. بل لم ينقطع توجسها المقلق منذ انزلاقة الوليد من احشائها، مصطحباً مع حبل السُّرّة مهزلة لا يعرفون اين يخفونها؛ في الوسادة المدفونة، ام في بلاهة سينم؟ في صمت مهمـد الـرجولي، ام في حيرة خاتي؟.. والاولاد؟.. هيه. سينسون، انها حكاية من مخيلتهم، لا من رحمها هي - رحم برينا ابنة عفدي ساري.

«ما العمل؟» تدحرج صوت خاتي ثقيلاً. رفعت برينا يديها في تساؤل صامت: «مـا العمل؟». كان في كلمتها الهامسة رنَّـةُ نشيج محتبس. قالت اخت الملا من جديد: «أعلينا ان نستعين بأحدٍ ما؟»، فردت المرأة الاخرى وهي تنقل بصرها في وجوه الاولاد الواجمين: «لا اعرف. أكان على الملاّ ان يتأخر عن الرجال؟» قالتها في عتب، وأردفت: «ثم.. اين نبدأ البحث عنه؟ في المقبرة؟ وما الذي يشغله في المقبرة ليظل هناك؟ في الطريق الى البيت؟ في بيوت النـاس الـذين نعرفهم؟ غريب... لكن علينا ان نبلّغ ابي». وكأنما كانت خاتي تنتظر كلمة حول مهمة التبليغ فانتصبت واقفة بطولها: «سأكلف حشمو»، وقد استحسنت برينا ذلك، فتكليف حشمو ينطوي على رغبة لا تُخفى من خاتي لتفقّد اطفالها في الأقل.

استعارت اخت الملاّ كيساً من اكياس الخيش الفارغة لتقي نفسها من الثلج، وخرجت.

هطول كثيف للثلج يسـد على خاتي رؤية اي شيء في ذلـك الظلام الأرقط. بيتها غير بعيد عن بيت اخيها، في الجهة الجنوبية من الحي الغربي، ولبلوغـه عليها الإلتفاف من الشرق، لأن ما من زقاق يخترق صف البيوت المتراصة الواقعة في الوسط بين بيتها وبيت اخيها. غير ان ثمت منفذاً آخر، مختصراً، يمر في حقل «ساكو» السرياني، المكشوف إلى أقصى الجنوب. وهي تسلكه في الربيع والصيف عادة، اما في الخريف والشتاء فهو وعر بسبب طينه الاحمـر الـذي يلتصق بالاحذية التصاقاً شديداً، ويترك آثاراً لا تُمحى على العتبات. وقد يممت وجهها صوبه، فسماكة الثلج، في هذا الوقت، ستمنع ما تخشاه في المطر.

الحقل المكشوف وضّاء اكثر من الأزقة وسط البيوت. خاتي ترى ما بين خطواتها، ولو توقّف الثلج لرأت أبعد مما يمكن ان تراه في ليلة عادية. والحقل موحش، لا يبين في مسافته المنبسطة إلّا شبح هضبة ترابية صغيرة تتوسطها رافعة للمياه. البعيد، عادة، في ظلام كهذا، يكشف عن اشكاله قليلاً، اما القريب فيخفيها، وخاتي تهتدي بالبعيد، وبلهفة ملحاحة الى رؤية اولادها وزوجها قبل ان يعمدوا الى النوم مبكرين كعادتهم. غير ان صورة حشمو اكثر الحاحاً على نفسها. هذا البسيط المطيع، المضحك بسذاجته، يستثيرها على غير توقّع. شفقة ممتزجة بحنان ما تحيط بالصورة. لسنين لم تبد الّا استخفافها به، متفكهة بكل شيء فيه حتى القهقهة. أتراه طبعها المرِح هو الذي ساقها الى الزواج من رجلٍ يستدرُّ المرح؟ لقد حملت الامور، أبداً، محمل الـخِفَّـة، وكان زواجها جزءاً من ذلك. قالوا: «اتتزوجين حشمو؟» فردت: «اتزوجه، وأتـزوج ابـاه»، وإذ حاولـوا التـأكـد من تصريحهـا هذا، اردفت: «الرجال متشـابهـون. يقتلون نسـاءهم بتجفيفهن امـام التنور من كثرة طلب الخبز الساخن، وحشمو سيقتلني من الضحك على الأقل».

إنها تزمع، في هذا المدى المسيج بظلام رمادي يتدلّـى كعرانيس الذُّرة، ان تعتـذر الى حشمو عن وصفه بـ «خصية القنفذ». هكذا، ستعتذر دفعة واحدة، ولن تُـسْمِـعَهُ ما يهينه بعد الآن. ثم تبتسم على أثر قرارها ابتسامة لا تُرى: «بماذا سأصفه إذاً؟» ستبحث في سيرها عن وصف خفيف لا تجريح فيه لبعلهـا: «فليكن: الـدلو المثقوب»، وتهز برأسها غير مستحسنة: «فليكن، جاروش البعـر. لا. الأفضـل: جاروش الملح»، وترد على نفسها: «ولماذا الجاروش؟ إنه مزراب اخبار المدينة، سأدعوه: المزراب. نعم، هذا افضل».

كان حشمو يشتغل سائقاً لحصادة القمح عند الملّا قبل ان يبيعها الاخير في ايام ضيقه، وها هو يشتغل عند اناس آخرين. عمله عمل موسمي، ثم يقبع في داره تسعة اشهر. غير انه لا يتوانى عن تقديم اي عون لقاء اجر صغير في ايام البطالة الطويلة. يدهن البيوت بالجير مقابل نصف ما قد يناله عامل آخر. يذبح الخراف والأبقار التي تحفظ الناس لحومها للشتاء، مقابل جلودها واحشائها. يسوّي بمدحلته الحجرية سطوح المنازل إذا اشتكى سكان بيت ما من الدّلف. يملّط بِمِسْحَجِه الجدارن اللبِـنِـيّـة اذا تقشرت. انه، اختصاراً، مستعد لكل شيء، بصبرٍ يعادل صبر شجرة الكينا في ساحة دراهم. مدبّر

تعتمد خاتي عليه برغم خفّته، وها هي بتدبيره هذا، تتمكن من إرسال ولدين من اولادها الى المدرسة الابتدائية.

على عجل تحاول خاتي اجتياز الحقل، لكنها تغوص حتى منتصف ساقيها في كل خطوة. يقيناً ان ما يتساقط من الأعلى، الآن، ليس ثلجاً، بل وسائد ولُحُفٌ بيضاء؛ اطباق وقبعات من فرو سماء منهارة برمتها من ضربة ذعرٍ ابيض. ووسط كل ذلك سكون يهتز كرئة كلما زفرت خاتي: «لا بأس يا حشمو، سأصل، فلديٍ الكثير مما أرويه وأنت ترتدي حذاءك لتبلّغ عفدي ساري»، وتصل، فعلاً، الى تخوم الحقل الشرقية، المتصلة بأسوار المنازل هناك. وبعد اجتياز سورين، تماماً، تنعطف في اتجاه ممر ضيق بين منزلين، لا يكاد يتسع إلاّ لمرور شخص واحد، تدلف منه الى زريبة خربة سقط احد جدرانها، وظل بابها، غير الموصد، مفتوحاً على الجهة الاخرى، حيث بوابة سور بيتها الواطىء. تدفع البوابة الثقيلة دفعاً، وحين تدخل توصدها بعمود خشبي.

ضوء خافت يلوح لبصرها من نافذة المنزل. «انهم نائمون» تقول لنفسها. يجعلون الضوء خافتاً حين ينامون: «لا بأس يا حشمو. سأحدثك وأنت نصف نائم. سأسندك حتى ترتدي حذاءك، فنومك ثقيل، والهواء، خارجاً، كفيل بايقاظك».

كانت خاتي تتعمد ان تحدث خشخشة كبيرة في الثلج بقدميها، ثم لم تسمع شيئاً بعد ذلك. المفاجأة والألم حبسا، معاً، حتى الصرخة التي كان يمكن ان تطلقها المرأة المنصتة الى وقع حذائها. هوت بطولها كحزمة من الخرنوب. انتفضت لثانية واحدة حين عبرت ومضة بهية ركناً من اركان اعماقها. بعد ذلك استسلمت للنعاس الشبيه بفرخة دجاج وديعة، ذات زغب اصفر، تلتقط بين اناملها فتات الخبز اليابس.

على كل حال، لن تبقى خاتي مرمية طويلاً هناك. قلق سيسبتدُّ ببرينا حتى الفجر: «ماذا دهى خاتي وحشمو؟»، ثم ستوقظ كرزو: «هيا يا ولدي. ابوك لم يرجع، وأكل الشيطان زوج خاتي. اذهب وقل لعمتك اننا ما نزال ننتظر ان يأتي حشمو بعفدي. هيا بالله عليك، ولا تكن كسولاً». وحين سيكتشف الولد عمته النائمة في ساحة دارها سيجتمع خلق كثير هناك. عفدي وجهور، والأشوري، واولاد الأشوري، والجيران الآخرون واولادهم. حتى الزرازير التي لا تباح السلك فوق ساحة بيت الملاّ ستنتقل الى اغصان

شجرة الكينا العالية في ساحة بيت خاتي. فالذي جرى لم يكن قضاءً وقدراً. لا. ثمت من نصب فخاً ضخماً من فخاخ الذئاب وسط الساحة، مربوطاً الى سلسلة حديدية ذات وتد دُقَّ في الارض بأكمله ليلجم الفريسة.

الشرطة ستأتي بدورها في معاطف سميكة مرفوعة الياقات حتى الآذان. وبرغم كل جهد عفدي، الذي سيحاول اظهار الامر كنوع من انزلاقة قدم او كخطأ في التقدير، إلّا ان استنطاقاً صغيراً سيشمل حشمو واولاده، الذين سيسردون الحكاية كاملة، متبارين في اضافة التفاصيل: «والدنا نصب الفخ. أمُّنا تسميه خصية قنفذ. قالت له انت خصية قنفذ قبل ذهابها في الصباح فنصب والدنا الفخ. قال لنا: امكم دجاجة. سترون كيف ستتخبط. ساعدناه في دق الوتد. بعد الظهر. لا. نعم. بعد الظهر. ها؟ عصراً. نعم. بعد أذان العصر. انتظرنا نراقب من النافذة طويلاً فتأخرت أمّنا»، وسيستفيضون في الكلام امام الرجال ذوي القبعات، برغم تبرُّم هؤلاء: «فهمنا يا اولاد. فهمنا. ابتعدوا».

سيلتفت عفدي الى حشمو مذهولاً: «لماذا يا حشمو؟»، وسيرد الرجل المحاط بشرطيين يهمّان بإصعاده الى السيارة المقفلة كصندوق: «الفخ كان ظاهراً، ولو لم تتأخر خاتي لتلافته. أنا لا أحب دخول هذا الحشد إلى ساحة داري، ولست خصية قنفذ. سأنصب فخين في المرة التالية». وحين سيصير داخل السيارة، سيُبْعِدُ احد رجال الشرطة، مطلاً من وراء منكبيه برأسه، صارخا: «يا اولاد، يا اولاد، لا تعبثوا بصندوق آلات النجارة. لم أستعملها بعد».

كان فخاً ضخماً ذلك الذي أطبق على ساق خاتي فهشمه بفكيه المسنَّنَيْن. نزفت قليلاً وهي غائبة عن الوعي، ثم خدّرها الثلج فنامت. وكان في إمكانها بعد تلك الغفوة، ان تتفقد بيديها الطليقتين جدران الحفرة التي استقرت فيها، في مقبرة الهلالية، ومن ثم أن تفتح ثغرة في احدها لتقع على حفرة ثانية، تجاورها تماماً، فيها مخدّة ملفوفة بغطاء ابيض. ضحكت طويلاً، ثم اكتأبت وهي تسأل نفسها: «تأخر الملّا كثيراً. عليّ ان أُوقظ حشمو. خصية القنفذ».

الفصل الرابع

خيام من الغبار تنتصب على جانبي الطريق حين يأتي هؤلاء الرجال على دراجاتهم النارية السوداء. كانوا يأتون ثلاثة ثلاثة في أغلب الأحيان. إثنان منهم لا يتحدثان الى أحد، بل يجري الكلام فيما بينهما همساً، بلغة غريبة، والثالث دليلهما، وهما يختارانه بتوصية من مخافر النواحي، التي تلتزم، بدورها، بتوصية من مدراء المحافظات.

كان عددهم يرتفع شهراً بعد آخر. وهم يصلون من بلاد نائية الى العاصمة، على الارجح، ثم يتوزّعون منها بسيارات بيك آب محمّلة بدراجات نارية على المدن لينطلقوا منها الى القرى المنثورة كخرز رمادي في عراء الشمال. دليلهم ينادي على الناس في الساحات فيجتمعون ليتم البيع والشراء وسط ابتساماتهم وفضولهم.

ولم يقدِّر أحد من سكان القرى هذه الحمى التي انتابت هؤلاء الشُّقر القادمين من ظلمات ما وراء المياه، حيث تعيش الأبقار والخنازير متجاورة، والنساء يسبحن مثل الرجال في سراويل قصيرة، بحسب ما يقال. ولم يخطر ببال أحد، إذ يرونهم يجمعون الخرز والحجارة مقابل أثمان تُسيل اللعاب، إلّا أنهم أسرى بطرٍ وضجرٍ من مُتَع الغرب المبذولة، حتى لأنّ الرجل فيهم لا يعرف اية خليلَة يختارُ لليلته. وهم، فوق هذا كله، يتبولون، واقفين، كالكلاب، من قلة الحياء. لا بأس، فليشتروا.

كانت الهضبات تتفجر تحت معاول اهل القرى خرزاً من كل لون، ورقائق خزفية منقوشة، وجراراً صغيرة لا تخلو، بعض الاحيان، من قطع

معدنية مصكوكة علا نحاسها صدأ أخضر. انهم لم يكونوا يتقصّدون التنقيب قط ليجمعوا هذا المتاع المدفون جمعاً نفيساً، بل يعمدون الى ذلك بين حين وآخر مصادفةً، إذ يحفرون قبراً فيقعون على المتاع، او يتعمدون البحث عن قطعة تصلح رقيةً وتعويذةً. كثير من الخرز الازرق الكبير كان يتدلى على غُرَرِ الاطفال وقد أُلصق بشمع العسل الى الشعر، وخُرِمَتْ رقائق خزف كثيرة، ايضاً، لتتدلى فوق الابواب. كل شيء يقعون عليه، عدا الذهب الإبريز، لا يأبهون له، وهم يبتسمون، في سرّهم، إذ يبعونه الى هؤلاء المضحكين ببناطيلهم التي تشبه بناطيل الدرك الجوالة على الخيول، الضيقة عند الساق، والواسعة عند الفخذ من جهة الخارج، وبوجوههم المغبّرة، التي تتوسطها نظارات كبيرة، ذات حواف مطاطية تحيط بالعيون إحاطة محكمة تحت قبعاتهم الـ «كُوْلْبَكْ».

قرية «موزان»، الواقعة على منتصف الطريق بين القامشلي وعامودا، كانت الأوفر حظاً من زيارات هؤلاء، فهضبتها العالية تتفتق جيباً جيباً عن عظام، وأشباح ينتقلون من سفح الى سفح بقناديل يراها اهل القرية، وعن جرار صغيرة ملآى بخرز منقوش. وكان «باران» بن ساري، جد عقدي ساري، يلتقط الكثير من ذلك المتاع في أدنى السفح الغربي للهضبة، حيث تجرف سيول الشتاء التراب من حواف القمة الى كرمه المنتشر على رقعة كبيرة من السفح والسهل معاً، حتى لتبدو الشجيرات، من بعيد، كمخالب تتشبث بالهضبة الهاربة. وما كان يجرفه السيل الى كرمه المتميز بشجراته الصغيرة، ذات العناقيد التي لا تجاوز حبات عنبها حجم عين الدجاجة، فهو ملكه. وقد جمع «باران»، ببيعه الخرز الى اولئك الشُقر، مالاً وفيراً، فأجّر الكرم الى أخيه «جُوْمَرْدْ»، مقابل نصف حصة مما يبيعه في الموسم في أسواق القامشلي، ذات الثكنة الفرنسية، ويمّم بعائلته صوب «عامودا» ليشتري أرضاً تتاخم أرض «حسو الميرسيني»، ثم اضطر، إثر القلاقل التي زرع البدو بها تخومهم الى النزوح صوب «موسيسانا». وحين حطّ حسين، ابن حسو الميرسيني، الملقب بذي القرنين، في القرية تلك، كان «باران» في أرذل العمر، يتولى إعاشته في داره الكبيرة ابنه «عبد الصمد بن ساري»، فتصادقا حتى ماتا، ومن بعدهما تصادق إبناهما عفدي وبيناف، وكان الاول يكبر الثاني ببضع سنين. وقد تجافيا قليلاً حين صارا شابين، إذ توجه بيناف الى مجالس من يدعونهم بالفقهاء، بينما انصرف عفدي الى الجاه، يلمّه من عرق البغال المحمّلة بالتبغ

بين تركيا والشمال السوري، جامعاً من حوله أفّاقين لا يرجعون الى صديق إذا أصيب إلّا لسرقة بندقيته. لكن عفدي يكن للملاّ بيناف ـ وقد صار مُلّا بعد حفظ مائة حديث، اضافة الى حفظ القرآن عن ظهر قلب ـ إحتراماً لا تبدّده المجافاة ذات الطابع التقيّ.

كان عفْدي ساري اكبر اخوته، وأوّل الراحلين بزوجه وابنته برينا ذات الأعوام العشرة صوب مدينة القامشلي، فتبعه، من بعد، نصف سكان القرية الى هنـاك، رعاةً ومزارعين، حتى ان الملاّ، الذي كان قد تزوج توّاً بزوجه الاولى، نزح بدوره مع عروسه واخته «خاتي» التي تعهد هو برعايتها، علّه يجد في المدينة مسجداً يؤمّ فيه الناس، او تلاميذ يعلمهم حفظ القرآن. ومن ثم لحق به اخوته، وذلك، تحديداً، إثر اختفاء المعلم ذي ربطة العنق الحمراء، الذي عمل محاسباً لدى أبيهم. وكانوا ميسورين، بعامّة، اذ خصهم الاب من ماله ما يجعلهم يخوضون به معترك الارض. وبرغم ان الملاّ لم يلتفت الى الزراعة اولاً، بل الى رسالته التعليمية، غير انه انصرف، الى مجاراة اخوته في الزراعة، فأصاب غنى ومكانةً.

كان الفاصل بين بيت عفْدي وبيت الملاّ بضعة زقاقات وأرضٌ خلاءٌ مديدة، في الجهة الغربية من المدينة، حيث الافق الطيني الذي يصل سطوح البيوت بالتلة البعيدة لقرى الهلالية. ومن ثم ضاقت الارض الخلاء، اذ بنى فيها رجال عفْدي بيوتهم ليجاوروا «سيد التبغ»، غير ان امراً ما ظل ينغّص على هؤلاء دخولهم الى بيت ابن ساري، وخروجهم منه، دون أن يُبْدُوا للرجل تذمُّرهم مدى عشر سنين، بل دون ان يسأله أحدٌ في الأمر إلّا مرَّة واحدة، حين دخل «سطامو حجـي عباس» على عفْدي، ذات مساء، لاهثاً: «بحق النّعمـة، ما الـذي يسكن الصنـدوق الـمُهْمل قرب الزريبة؟»، فردّ عليه عفـدي باحتـداد لم يفهمـه غير زوجـه وأولاده: «إذا سألني أحـد عن هذا الصندوق مرة ثانية فليرجع من الباب الذي دخل منه». وانتهت الأسئلة عن محتوى الصندوق فعلاً.

بتأكيدٍ، ثمت زريبة في كل بيت من بيوت الشمال، تتفاوت أحجامها بين ميسور ومعسور. وككل بيت، ايضاً، كان في باحة دار عفدي زريبة تضم بضعـة خراف وبقـرتين تتدلى ضروعهما من ثقل الحليب. وفي الزاوية التي يتصل فيها جدار الزريبة بالسور انتصب صندوق ضخم رُقِّع من قِدَمه بألواح

ذات ألوان مختلفة، بعضها من صناديق البندورة، وأخرى من خزائن رثّة أُعِيْدَ استخدام خشبها للترقيع.

كان صندوقاً لافتاً للنظر على كل حال، لكنَّ تتالي المطر والشمس، والـرَّشَاشُ الطيني الذي يَنْتَثِرُ من الميازيب القريبة منه، أحالاه الى جزء من الجدار، حتى أن الأعشاب ذاتها التي نمت على الأرض الغنية ببقايا الروث قُرْبه، نمت في شقوق ألواحه أيضاً، كأنما هو وصلةٌ تصل التراب بالتراب، والأرواح الهيِّنة لأعشاب الزوايا الداكنة بأعشاب الجدران الأكثر نضارة.

أولاد عقــدي، وحـدهم، كانـوا يلقـون بنـظرات مرحـة الى ذلـك الصنـدوق، وقـد يعمـدون أحيانـاً الى قرعه قرعاً خفيفاً من غير أن يراهم الأبوان، ومن ثم ينصتون بوضع آذانهم على خشبة لتتناهى اليهم نحنحة كأنها تخرج من أساس الحائط الطيني، أو من جذور النبات المعرّش. ولربما تمتموا بعد ذلك: «شُدَّ الحزام وسطك. السيل سيجرف الحمار». بيد أنهم لم يعلنوا لأحد قط خفايا صندوقهم، كأنْ هو جزء من عفّة العائلة أو شرفها، إذا أُعلن أهـين. وأولاد عقـدي الـذين تتفاوت أعمارهم بين طفولة ورُشد، يتّسمون بتعفّف يمازجـه استعـلاء ألقى به الأب إليهم بإشراكهم في مجالس الكبار: «عـاشروا الـرجـال تكـونـوا رجـالاً»، فتملَّكتهم، حقاً، صرامةٌ لم تتناسب وأعـمارهم، فكـانـوا يستخفـون بما يذهب اليه، من هم في جيلهم من لهو صبياني، بل يُقسمـون كالكبـار، إذا أقسموا، بشرفهم، كأنما لا محيد عـمّا سيتخذونه بقَسَمِهم هذا. وقد صار في مُكْنَتهم، بعد ذلك، أن يطردوا شخصاً من مجلس الأب إذا لم يَرُقهم، وسط فخـــر خفيٍّ للأب ذاتـه بقـرار أولاده «الرجال»، ووسط نظراته التي تواكب لفافات التبغ التي ينفثون دخانها، من صغـيرهم حتى كبيرهم: «التدخين شارةُ رجولةٍ» يردّد عقْدي، وإذا انتحى بأولاده نصحهم: «فليخرج الدخان من الفم والمنخرين معاً».

لقد بقي الصندوق ذاك في مكانه حتى ما بعد مقتل «باقي جواني» على يد «مجيدو»، اكبر اولاد عقْدي، بما يقارب سنة، أي: الى حين استقرت ابنته برينـا، وأولاد الملاّ بيناف في كنفه، بعد اختفاء الملاّ تماماً؛ ولم يمكِّن الحظّ هؤلاء الأولاد أن يستقرئوا ما في الصندوق. ففي الأيام الاولى لحلولهم في دار عقدي، وقبل أن يجرهم الفضول الى تلك الأخشاب التي حال لونها، خرجت جثة من وسط الحشائش المتسلقة الى مقبرة الهلالية، في صمت مطبق، ومن ثم اختفى الصندوق فأُسدل الستار على عشر سنين من أسئلة مختنقة.

لم يُعِرْ أولاد بيناف ذلك الوجوم الذي أحاط بوجوه العائلة انتباهاً، لكنهم لحظوا أن جاذباً ما يستوقف عفدي وزوجه، وأولاده جميعاً، أمام الزاوية الفارغة التي يحصرها جدارا الزريبة والسور، حيث كان الصندوق الضخم. وكانوا، على حداثة عهدهم بالعائلة التي استضافتهم، يستحون من ان يسألوا. لقد ألحّ عفدي على أعمامهم، حين اختفى الأب ولم يعد، أن هؤلاء الأولاد أضحوا جزءاً من مسؤوليته: «يحبون ابنتي كأمٍّ، وتحبهم ابنتي التي هي زوج أبيهم، فلا تفصموا ما كان ينبغي أن يكون»، وإذ ألحت برينا، بدورها، على إخوة زوجها أن تنتقل بالأولاد الى كنف أبيها لم يمانعوا: «عفدي من العائلة. وأنت أختنا. لا يهمُّ المكان، بل ما ترتضيه القلوب». وهكذا أفرد عفدي غرفتين من بيته الواسع للوافدين: برينا وابن الملاّ الصغير المتعلّق بها في غرفة، والثلاثة الصِّبيةُ في غرفة أخرى. وقد جرى التعامل معهم بتأنٍّ وأناةٍ، حتى ركنوا، حقاً، الى الرَّحم الجديد الذي أظلَّهم كورقة الهندباء.

أيام مرَّت قبل أن تندَّ عن برينا آهة صغيرة مخفورة بكلمة «جدي». وقد سألها الصغير الذي يواكبها كظل: «أين جدي يا أمي؟»، فردت: «جدي كان في الصندوق يا بوزو»، وإذ لاحظت حيرة الصغير الذي لم يكن ابن رحمها، أردفت: «كان لي جدّ، مثلما كان لك جد. أتعرف من هو الجد؟»، فأجاب بوزو: «جدي هو جدي!»، فتمتمت المرأة: «نعم. وجدي هو جدي. جدي عاش في صندوق». فظل الصغير يردّد: «جدي عاش في صندوق»، وقد التقطها إخوته منه فصاروا يرددون: «جدي عاش في صندوق»، من دون ان يعرفوا مغزى لما يقولون، حتى صرخت بهم برينا ذات مرة: «لا أريد أن أسمع ذلك. أأنتم تتفكهون بي؟»، فاتسعت عيونهم حيرةً، ثم اعتذروا قائلين إن الصغير يرددها، وهم يردّدونها تفكُّهاً به، لا أكثر، ففاجأتهم في هدوء: «جدي كان في ذلك الصندوق يا أولاد».

حين حلّ عفدي بعائلته في أرض المدينة كان يصطحب والد زوجه، المسمى بابن زاري، ايضاً. نُسي الاسم وظلَّ اللقب: «ابن زاري». كان وحيداً بعد موت زوجه، ولم يخلّف غير ابنة واحدة تزوجها عفدي، فأعال والد زوجه، بدوره، لضيق حاله، وكبره. وإذ نزح من موسيسانا نزح به أيضاً، فأفرد في داره التي بناها هناك غرفة للكهل وأكرمه. غير أن الرجل اعتكف في غرفته، بغتة، ولم يعد يفتح الباب إلاّ لبرينا التي تحمل اليه طعامه.

كان ضيِّق النَّفس منذ البداية، يشكو الى ابنته سعة الغرفة التي هو

فيها: «انظري بحق الله، لا أكاد أرى الجدار من مكاني هنا. أتعتقدون أنني دجاجة لتتركوني في هذا الحقل؟»، فترد ابنته حائرة: «وما الذي يقلقك في غرفة واسعة؟ أكرمك زوجي فأفرد لك اكبر غرف بيته لئلا تضيق أنت بها يا أبي». ويسكت الأب الذي جمع كل ما لديه من أوانٍ نحاسية، وصحاف، وثياب، إضافة الى فراشه وسجادة الصلاة، في زاوية، وترك ما تبقّى خلاءً، ناظراً الى الزوايا الثلاث الاخرى في ريبة واضحة. لكن، حين باتت حفيدته برينا، وحدها، تتردد عليه في اعتصامه الغامض، انقلب الى ثرثار، دون ان تفارقه الشكوى. كان يستبقيها طوال تناوله لوجباته: «يا سراجي يا برينا. . يا خبز جدِّك وعينيه، ألا ترين ما يفعلونه بي؟»، فتطوق برينا عنقه في ودٍّ من وراء ظهره: «أنت تبالغ يا جدي»، فيكمل الشيخ مقاطعاً وهو يزدرد اللقمة: «كان الجدار الشمالي هنا» وينحني راسمًا بإصبعه خطاً وهمياً على الأرض: «حدوده كانت هنا. إنني أضع إبريق الوضوء لصقه أبداً، وها أنت ترين كم من شبر بينهما الآن»، فتنحني برينا عليه بدورها، لتنظر في عينيه معاتبة: «جدي. . لم يبتعد الحائط، ولم يقترب. اذا كنت تريد استبدال هذه الغرفة بأخرى فلا تختلق أوهاماً كهذه. قُلها وأبي سينفِّذ»، فيهز الجدّ رأسه تبرماً: «والجدار الجنوبي؟ كنت أبلغه بسبع خطوات، والآن تقتضي المسافة ثلاث عشرة خطوة. . ها؟ كنت أرى من نافذة الجدار الشرقي، وأنا جالس هنا، الأوراق في ذروة شجرة الكينا، والآن لا أرى إلّا منتصف ساقها الباهت. اعتقد أنني لن أرى ذات يوم سوى جدران البيوت الاخرى وقد سدَّت النافذة. ها؟ ماذا تعتقدين؟ سيحولون هذه الغرفة الى حقل لدجاجاتهم ودجاجات الجيران. من يدري، فلربما جاء أولاد الحيّ أيضاً الى هنا ليلعبوا. لا. أنت لا ترين شيئاً». وتحاول برينا تهدئة خاطره قليلاً بمجاراته في ما يذهب اليه: «فلنقس الغرفة يا جدي. تعال، وسنرى إن ابتعدت الجدران غداً. هات حزامك. سنقيس الأرض بحزامك»، فينهض الجدّ باحتداد: «أأنت تمزحين؟ القياس لا يفيد شيئاً»، فترد برينا مستغربةً: «ألا تريد برهاناً؟». «لا» ينفثها الجدُّ نفثاً، ويضيف: «من يضمن ان الجدار الغربي، مثلاً، سيظل في جهة الغرب حتى الغد؟»، فترخي الفتاة كتفيها كمن عيل صبره: «لن تقول الآن إن هناك من يغيّر اتجاه الغرفة أيضاً»، وإذ لا تسمع ردّاً، بل تلمح الرجل يحدق ساخراً من تحت حاجبيه الكثّين، تُردف: «اخرج بنفسك، وحدِّد الجهات»، فيصفق الشيخ بمرح: «ها. . عرفت ما ستقولين. أنت أيضاً تريدينني أن أخرج»،

ويعتـدل في جلسته بعد ذلك: «كل هذا من أجل أن أخرج؛ من أجل أن أضيع. توسّعون الغرفة لأضيع، والآنَ الخارجُ. هاها. بماذا أستدل للرجوع الى البيت اذا صرت خارجاً؟».

وفي مساء أحد الأيام التالية انتقل الشيخ بثيابه، وابريقه الى الزريبة، حيث وجدته ابنته في الصباح، وهي قادمة لحلب البقرتين. سألته عما يفعل هنا، فرد أنه يستحسن الإقامة في الزريبة. حاولت، جاهدة، ان تثنيه عن رغبته الغريبة، لكنه أصر بما لا يدع مكاناً لإلحاح: «ستراقبكم الحيوانات. هنا لن تستطيعوا تغيير المسافة بين الجدران. كنت أنام هناك فتستغفلونني، أما هنـا فلدي شركـاء في الأقـل، وهم يقـظون»، وإذ حاولت ابنته إفهامه أن شركاءه، هؤلاء، لن يفيدوه في أي شيء سوى جلب البراغيث، رد بحزم: «سأبقى هنا. أيضـرّكم أن أكون بقرة؟». وقد أسرفت الإبنة في أخذه باللّين: «أبي، أنت لست بقـرة، فلماذا تحرجنـا؟»، لكنـه احتدم اكثر: «اتحرجكم أبقاركم؟ لا أريد منكم سوى هذه الزاوية. لن أخيف الأغنام. لن أخيف البقرتين. هاتي فراشي فقط، فالمكان واسع هنا».

لأكثر من شهرين كانت برينا تمدُّ جدها بطعامه في الزريبة، ويوماً بعد يوم كانت شكوى الجدّ تزداد كثافة، وثقلاً، كرائحة الروث، من جديد: «لا يتركونني أهدأ قط. أمك تدخل وتخرج كل صباح وكل مساء. الدجاج يتسلل الى هنا. هذه الحيوانات الناعسة لا تراقب شيئاً سوى مزاودها. يباعدون بين الجـدران حتى انني لم اعـد أشمُّ رائحة الروث. ابتعدت البقرتان والأغنام كثيراً. هاه؟ أنت ترين يا برينا، يا خبزَ جدك، أنت ترين. كانت بين قوائم هذه الحيوانـات وسجادتي بضع خطوات، والآن ثمت سهل يفصل بينهما. كنت أردّها، من قبل، حتى لا تدلق إبريق الوضوء هذا الذي أضعه لصقي، والآن.. ها.. الآن يا سندَ سقفي أنـادي الأغنام لتقترب فلا تسمعني. وأمك، نعم، أمك لم تعد تراني لأنني صرت بعيداً لا يُرى. الى أين سأتجه في صلاتي؟ كانت مزاود الحيوانات في جهة الشمال، وها أنت ترين أنها في الجهة الشرقية. يخلطونها عليّ. اسمعي...»، فيرتفع صوت حفيدته مقاطعاً: «جدي.. أين تريد أن تسكن حقاً؟ ستكون إهانة لأبي إذا عرف أحد أن جدّ أولاده يعيش في زريبة. أبي سيموت من الغيظ». «أووه» يتمتم الجدّ، مستخفّاً بما تقوله، ثم يمسك بيدها: «برينا، يا بيدرَ جدّك، ألا تستطيعين جرّ الخزانة المرمية هناك؟»، ويشير بيده الى خزانة مهملة كانت العائلة تستخدمها لحفظ

العدس المجروش، والسكر، وأوعية الجبن المملح. وعائلة عفدي، وحدها، ممن نزحوا الى المدينة، استخدمت خزانة كهذه، «ليبدو البيت لائقاً بوجودنا كمدنيِّين الآن»، كما كان يردد والد برينا. فالبيوت الاخرى تحتفظ بمُؤنها على أرض الغرف، أأكياساً كانت أم صفائح مغلقة، حتى أنها لتستحيل الى مرتع للدجاج تقتات بسَقْطِ العدس والبرغل. ولكي لا يبدو عفدي أقل شأناً من المدنيِّين ـ كما جرت تسمية أهل المدينة على ألسنة الأكراد ـ جعل مؤونة البيت في خزانـة خشبية ضخمـة، صنعهـا له الصوفي محمود من عوارض السقف المتبقية بعد بناء بيت عفُدي نفسه، كما يفعل أهل المدينة تماماً. لكن الخزانة لم تصمد طويلاً، دون دهان وغراء ممايقي الخشب من الدويبات القارضة، فانتفخت الأبواب من الرطوبة، واتسعت الشقوق، وانبثقت ثقوب في الحواف كلها، فألقت العائلة بها خارجاً بعد أشهر قليلة لتغدو مرصداً للديكة تشرف منه على شؤون نوعها، وترفع الأذان الأنيس عليها، برغم السور الذي يجعل النهار أقلَّ سُلْطةً، بأوقاته، مما يقتضيه النهار في العراء المديد عادة.

«الخـزانـة» رددت برينا، «وبمَ تنفعُكَ؟»، فتمتم الجد: «سترين»، وأردف في سرّه: «لن يستـطيعـوا التـوسيع ما بين جدرانها. سأسمع صرير المسامير المخلَّعة في الأقل». ثم نظر في عيني حفيدته بما ينمُّ عن شطارة معلنة: «سـأضـع حداً لهذا الهـراء يا كحـل عيني. سترين». فألـوت برينا بشفتها السفلى: «ليكن. اتساعدني في جرّها؟»، فارتد رأس الجد الى الوراء قليلاً: «تريدينني ان اخرج؟.. هاها. يا للعبة» فاحتدت الحفيدة: «والله لا يهمني ان بقيت هنـا الى أبـد الآبـدين. لكنني لا استـطيع زحزحتها وحدي. ألا ترى؟»، فتفرَّس فيها الجدُّ قليلاً، ثم أغضى: «ليلاً، ليلاً يا برينا. سنجرُّها حين ينامون».

وفي تلك الليلة، انتقلت الخـزانة الخشبية، في صمت لم يقلق حتى الدجاجات، الى الزاوية التي يشكل ضلعيها جدارا الزريبة والسور. ومُدِّدت على الارض بطولها الذي يسع رجلاً طويلاً اذا اراد ان ينام، ويكفي ارتفاعها لشخص جالس دون انحناء. دفَّتا الباب الى الاعلى، وفي وسع احدهم ان يدخلها برفع دفّة واحدة. والقفل، بالطبع، صار الى الداخل في الصباح.

لم يعد احدٌ، حتى برينا، يحفل بالأمر بعد ذلك. شبح الجد يتسلل كل ليلة، وحده، وينقل الزاد الذي يبقون حصته له منه في غرفته القديمة التي

استحـالت إلى بيت للمؤونة والطبخ معاً. لعبة أشبه بتجاهل الناس لأنثى الأرنب حين تختفي عشرين يوماً في جحر آن تكون حبلى، ولا تخرج إلّا ليلاً لتقتات ثم ترجع إلى الظلام العابق بانتظار سلالتها، وقد تبقى أياماً، بعد أن تلد، على النحو ذاته، خارجةً ليلاً بصغارها، مختبئةً نهاراً.

أشياء كثيرة اختفت منذ انتقل الشيخ الى «المَسْكَن» الذي لن يتمدّد قط: صحون واباريق. مناديل زوج عفدي، ومخداتها المطرّزة. حفنات كبيرة من كل كيس من اكياس التبغ الكبيرة، وكانت تظهر، من ثم، مرمية حول الصندوق الخشبي.

ما كان على العائلة عير ان تلمَّ، في الصباحات، بعض الفائض الذي يضيق به «مسكن» الجد، ومن ثم تنسى كل امر آخر. انه لا يُقلق أحداً. شبح خفيف كقطرات الماء التي تدلف من السقف لا اكثر. سرٌّ، وأقل من سرٍّ لأنه يُنْسى، لذلك لم يُشر اليه فردٌ من عائلة عفدي، ولم يكلِّم عنه، فالمنسيّ منسيّ، إلّا مرة واحدة جُنَّ فيها جنون عفدي: «اين منديلي الاخضر؟»، وظل يصرخ نصف نهاره: «سأحرق الصندوق»، فأمسكت به زوجه وابنته: «أي منديل اخضر؟ وما الداعي الى كل هذا اذا اختفى منديل؟ عندك الف منها». وقد هدأ الـرجـل على مضض لأنه لم يهتد الى شرح مقنع يعادل غضبه باختفاء منديل. لكن برينا كتمت شبه صرخة في اليوم الثاني، اذ وجدت المنديل قرب «مسكن» جدها. كان منديلاً مهترئاً، او يكاد، ملفوفاً على قطع صغيرة داكنة، يابسـة، تشبـه اصـابع الآدمي. حملت المنديل الى أبيها الذي يهم بمغادرة البيت، معـولة عويلاً خفيفاً في اشمئزاز: «ما هذا يا أبي؟»، فتسمّرت عينا الأب على ما بين يديها، متمتمًا: «منديلي»، ثم سارع فاختطفه منها: «اين وجدته؟»، فلم يلق جواباً، بل نظرة متسائلة في عيني ابنته يشوبها ذعر خفيّ.

لفّ الرجل المنديل على القطع اليابسة، ثم عقد اطرافه عقداً محكمًا، وحمله حتى التنور البارد الذي يقع في زاوية السور المقابلة للخزانة الخشبية: «لِـمَ احتفـظت به طويلاً؟» تمتم وهو يرمي به الى رماد القاع، والتفت الى ابنتـه: «متى ستخبز امك؟» فردت الفتاة: «بعد ساعة، ربما»، فهز الاب برأسه هزّاً لا معنى له، واتجه الى بوابة السور ماضياً الى ما ينتظره.

سألت برينا امها، مراراً، عما كان في المنديل. وفي كل مرة كانت امها تنهرها: «متى ستخرسين؟ منديل، منديل»، فتلحُّ الفتاة: «ولماذا جُنَّ أبي حين اختفى؟ وهذه القطع اليابسة. . امي»، فتمسك الأم بأحدى جديلتيها حتى

ليكاد رأس برينا ان يلامس كتفها: «ماذا تفعلين بشخص يتكلم على عرضك؟».

كان سؤال أمها مدخلاً الى ما فاتها من قبل، وقد أجابت وهي تخفض ببصرها: «اقطع لسانه»، فبادرتها الأم: «واذا كتب شيئاً بالقلم يمس بعرضك؟»، فردت الفتاة: «اقطع اصابعه..». «نعم» همست الأم: «اصابعه». فتملك برينا بعض الذهول وهي تستعيد صورة القطع اليابسة في المنديل، ثم نظرت في عيني امها: «كانت...»، ولم تدعها الأم لتكمل: «نعم، كانت اصابع الـ...»، وسكتت.

من يكتب ما يستأهل قطع اصابعه غير من يسمونهم «متعلمين»؟ هكذا عنَّ لبرينا ان تسأل نفسها بعدما ارخت امها يدها عن احدى جديلتيها. ولما لم يكن قد مضى على مجيئهم الى المدينة ما يجاوز السنة، أعياها فكرها في استحضار من قد تكون الاصابع المقطوعة اصابعه. لم يختلط بهم احد يجر شبهة كهذه، ولم تختف اصابع احد: «لمن هي يا امي؟» ألحّت برينا على امها في ضراعة، فلانت المرأة: «المعلِّم... المعلِّم».

عصف دوارٌ صغير بالمرأة لبرهة: «المعلم». نعم. انها تذكرالمعلم الذي اختفى، بعدما عمل محاسباً لدى حسين بن كوجري. المعلم ذو ربطة العنق الحمراء. كيف اختفى ولم يسأل احد عنه؟ حتى أمّها التي كانت عيناها تتدحرجان وراء خطى الشاب لم تنبس بما يشير الى تساؤل حول اختفائه.

ماذا كان على برينا ان تستعيد في ذهولها؟ ملامح المعلم، ام التواطؤ الصامت لبيوت القرية جميعها؟... والاصابع؟ آه. ثم مدت يدها فامسكت برُدْنِ امها: «لماذا يحتفظ ابي باصابعه؟»، وقبل ان يصلها جواب، تدحرج سؤال آخر من سماء اسئلتها: «ما شأننا بالمعلم يا امي؟».

سحبت الأم ردن ثوبها من يد برينا في هدوء، ثم اطرقت: أتذكرين ابن علي مِشْكِي؟ تذكرينه على ما اعتقد. كان يعرف القراءة، وكان المعلم يسلمه رسائل الى اصدقائه كلما نزل ابن مشكي الى مدينة القامشلي على دراجته. ينزل مرة كل شهر الى المدينة ليستطلع احوال سوق الماشية لأبيه، ويرجع في اليوم التالي، بعدما يبيت ليلته عند اقارب امه، هناك. وبالطبع كان يضع رسائل المعلم في صندوق البريد الى جهة لا يعلمها إلاّ ربنا. وبحسب ما قال ابن مشكي فانه اطّلع مراراً على الرسائل التي نقلها. احس قلبه ان الكلب مستهتر زنديق، لذلك كان يفتح رسائله، وقد تأكد فعلاً مما ذهب اليه قلبه»،

وصمتت لبرهة قبل ان ترفع عينيها الصارمتين الى برينا: «يا ابنتي. . . كان ابن حرام. اكرمناه فبال على الصحن»، لكن برينا فاجأت امها بسؤال آخر، بدل استيضاحها مضمون رسائل المعلم: «ولماذا كان ابن مشكي يفتحها؟». «الرسائل تعنين؟» همست الأم، فأومأت الفتاة برأسها. «الرسائل. . إيه» استرسلت الأم من جديد: «شرب حليباً حلالاً، لذلك احس قلبه بريبة. والده تقيٌّ. علي مشكي حمل قيداً محمّى على النار بيديه، حين داهم الدرك الجوّالة على خيلهم موسيسانا بحثاً عن تبغ مهرّب. كان قرب زوجه التي تخبز على الصّاج حين جاء الدرك، فنادوه ليقترب فقال لهم ان ينزلوا، هم، عن خيولهم ويقتربوا فرماه احدهم بقيد حديدي على وجهه، صارخاً: سآخذك مخفوراً بهذا على قلة أدبك. فلم يكن من علي إلّا أن قلب الصاج عن الجمر ورمى بالقيد فيه، واذ حَمِيَ رفعه الى الدرك: ضعوه في يديَّ اذا استطعتم. فولّوا مذهولين».

لم تخف برينا دهشها من الرواية: «واوو»، لكنها عادت الى سؤالها: «ولماذا يفتح ابن علي مشكي رسائل المعلم؟»، فجذبتها الأم من كمها جذباً مالت كتف الفتاة معه: «أأنت مع المعلم ام معنا؟»، فرفعت الفتاة حاجبيها: «لم تكملي حكاية رسائله يا أمي!»، فدفعت الأم بذراع ابنتها الى الخلف في عصبية: «كان يكتب عن القرية كلاماً. . . يا الله، ويكتب عني. . .»، والتفتت حتى صارت في مواجهة ابنتها المتسائلة تماماً: «عني. . عني» كنت اكرمه فبالغ في التفسير. قال عن الرجال انهم بغال ذوو لحى، وعن النساء انهن دجاجات. وعني. . .» ثم ازدردت زبد غضبها: «قال عني انني أكفي عشرة رجال في يوم واحد»، وبصقت الى ناحية الشمال.

عشر سنوات، كبر فيها من كبر، وولُد مَنْ وُلد ومات مَنْ مات. عشر سنوات والنباتات تنمو على «مسكن» الجد الخشبي وشبحه، ومن ثم تتسلق السور فاردة اوراقها للجهات الطليقة في ماوراء السور. عشر سنوات والجدُّ يضيِّق المساحة الضيِّقة للصندوق من الداخل. انه يكره ما يفيض عن جسده. لا لزوم للمسافات مادام الجسد رافلاً في سلام حدوده. لا لزوم الا لشق في خشب الخزانة يرى منه تعاقبات النهار، والخيط المفضي الى طعام يقتنصه فلا يتكلّف شُكر أحدٍ، حتى نفسه.

كان اكثر ما يضايق الجدَّ في مكمنه الهادىء ان تقف الدجاجات احياناً امام الشق الذي ينظر منه الى الساحة، وهي تميل برؤوسها في حركة متدرجة

كمن يدير مفتاحاً في قفل، ناظرة اليه بعيونها المستديرة الصفراء من انعكاس النهار عليها: «ابتعدي» يومىء بيده فتزداد ريبة. «هش، هش» يهمس فتهتز اعـرافهـا القصـيرة دون ان تبـارح مكـانها، فيتـوعّـدهـا: «سـترين أيتهـا المتلصّصات». وفي كل صباح، حقاً، كان ريش مّـا يتناثر حول الصندوق أيضاً، فتكنّسه برينا من غير ان يعتمل في داخلها إلّا سؤال صغير: «أيأكلها نيئّة؟».

على كل حال، خرجت جثة الجد من الصندوق في صمت محكم، وسط تسـاؤلات اولاد الملاّ بيناف، التي بدَّدتها، من ثمَّ، زوج أبيهم برينا، لكن دهشهم ظل على حالـه: «كيف اتّسـع المسكن الخشبي لكل هذا؟» حين افرغته عائلة عقْدي مما يحيوي: ثياب ومؤن تكفي ستة أشهر، من البرغل، والعدس المجروش، واللحم القديد، والتبغ، والعظام... نعم، العظام. لِمَ احتفظ بعظام الدجاج في مسكنه؟ كانت مبريَّة كأنما سيجعل منها مكاحلِ للنسـاء. وقد حلا لهؤلاء الاولاد، بعدئذ، ان يجعلوا من الصندوق مسرحاً لألعابهم، وسط النظرات المستنكرة لأولاد عفدي المترفعين، قبل ان يختفي تماماً.

باتت رقعـة الثلج تنحسر رويداً رويداً. شموس متلاحقة دفعته الى الـزوايا الـظليلة حيث استحـال الى تماثيل صلبـة تحت انامل رياح الشمال المتـدحـرجـة من قمم جبـال طوروس. امـا الارض فكـانت تميع قليلاً في الظهيرات فتنزلق عليها الاقدام في الازقة، وتتجمد فيما تبقى من اوقات اليوم، ثانيةً، فتنـزلق الاقدام على زجاجها من جديد. وكان للخطوات عليها، اذ تتجمد، وقعٌ أنيس، يبشّر بمجيء امرىء او برواحه: ذلك ما يصغي اليه اولاد الملاّ عادة، وهم متحلقون حول المدفأة في غرفتهم ليلاً، فما دام الكبار يقظين ففي ذلك سلام للصغار. ومضافة عقْدي سلام على كل حال، وهي لا تبـدأ شؤون يقظتها إلّا مع حلول الظلام، فيسأل اولاد الملاّ زوج أبيهم برينا: «لماذا يحمل الضيوف، دائماً، صُرَراً ملفوفة يا برينا؟»، فترد المرأة: «هذه شؤون الكبار يا ملائكتي اللصوص، وحريٌّ بكم ان تلتفتوا الى شؤونكم»، وتسترسل لتصرفهم عن سؤالهم: «سيشتري أبي لزيوان قلم حبر غداً»، فيدب الصخب فيهم، بين معترض وفرحان، بينما يكتفي كرزو بنظرة حسد الى اخيه الذي يصغره.

لقد نسوا امر الـصُّرر من تعوّدهم الطويل على رؤيتها في الايدي، وهي

«شأن من شؤون الكبار». ذلك ما اهتدوا اليه دون محاججات اخرى، على كل حال. واذ وقعوا، مصادفةً، فيما بعد، على ما تحويه، لم يعنهم الاسر كثيراً: تبغ. عينات من التبغ يبسطها الداخلون بين يدي عفدي، ومن ثم يخرجون مخفورين بتوجيهات مقتضبة. لكن الاولاد استشعروا، ذات ليلة، حركة اكثر ثقلاً مما تعوّدوا في لياليهم من قبل. حتى ان برينا، التي كانت تسارِرُهم حتى يناموا، خرجت الى الظلام ولم تعد، فبادر كرزو الى التسلل مستطلَعاً، بعدما القى في اخوته كلمة تحذير لا يستهان بها: «اذا لحق بي احدكم فسأرميه في البئر».

كان جميع من في مضافة عفدي واقفين، يتبادلون عناقاً حاراً مع شاب لم يستطع كرزو تبين ملامحه من خلل الباب الذي نسي الداخلون ان يوصدوه. وكان في الجمع برينا وأمها، ممسكتين بكتفي الشاب كأنما تحاصرانه خشية عليه من فرار محتمل. وإذ استدار الضائع بين القبلات القى عليه السراج شيئاً من ضوئه، فتكشف شعر قصير، متصل بلحية خفيفة حول الوجه، يتوسطها شاربان كثان انحدرا فوق الفم، كما تكشفت حطّة سميكة منسلتةٌ حول الرقبة في فوضى، كأنما كان يتقنّع بها آن دخوله. وفي برهة من برهات ذلك المهرجان الصغير وقعت عينا الشاب على الصبي المتسلل الى الداخل بنصف جذعه فقط، فابتسم له، مومئاً برأسه إيماءة ذات ودٍّ، واذ انتبهت الأم وابنتها برينا الى حركته، التفتتا صوب الباب، ثم لوّحتا للصبي تلويحة خفيفة تنمّ عن استنكارهما لدخوله المتطفّل، وتهيبان به، بالتلويحة تلك، ان ينصرف، لكن الشاب استوقفه قبل أن يمتثل فيخرج: «هيه.. تعال يا يربوع»، فتردد الصبي بين نداء الشاب واستياء زوج ابيه؛ أيدخل أم يخرج؟، بيد أن جهور بن ساري حسم اللحظة: «ادخل يا كرزو. سلّم على خالك». «خالي؟» همسها الصبي لنفسه. لا عهد له بأخوال يرتادون بيت عفدي، ومع ذلك تقدم في اتجاه الشاب الذي كان جهور يبادره شارحاً: «انه من اولاد الملا بيناف، وهم يسكنون هنا، الآن»، فهز الشاب برأسه: «عرفت الحكاية. اكرموهم»، واستدرك فخاطب عمه جهور بصوت خفيض: «ماذا جرى لأولاد خاتي؟»، فرد عمه: «انهم عند مهمد بن كوجري، وابوك يهتم، بنفسه، بامر حشمو في السجن». وفي غمرة حواراتهم الهامسة تلك، تضع برينا يدها على كتف كرزو، مبدّدة حيرة الصبي: «هذا الشاب هو اخي مجيدو».

بعد ما يربو على سنة عاد مجيدو من «ديار بكر» التركية، متلثمًا، وها هو،

الآن، يلقي النكـات في الجالسين: «بغل عَريبُوْ لم يكن ليتزحزح من مكانه ابـداً. توقف بعد خروجنا من نصيبين، على تخوم الدغل، البغال الاخرى كانت محمّلة بما يكفي، ولم يكن ممكناً توزيع أحماله عليها لنتركه خلفنا. قلنا لابن مَيْسِيْ عليك به، فلك طرائق تزحزح نصيبين بأكملها، فما كان منه إلاّ ان اخرج كيس النشادر من تحت عباءته، ودس حفنة منه في مؤخرة الحيوان»، وطارت القهقهة حتى ارتعش اللهب في الموقد. «حفنة كاملة»، فتلوى الرجال من الضحـك. «ما يكفي ليصعد نهر جغجغ مجراه إلى أضَنَهْ. . »، فافترت شفتا كروز عن هأهأة مكتومة وهو ينظر الى الجالسين الذين يهتزون ككرات. «و. . . هات يا بغل» دمدم مجيدو. «طار. طار. كتمنا انفاسنا ونحن نرى عريبـو يختفي، راكضـاً، وراء بغله»، ومسـح دموعه التي انسلت من كثرة الضحك: «قلنا بدأت الورطة. سيفيق عسكر الحدود من دجلة الى درباسية على النهيق والزعيق، فكلّفنا اسرعنا ركضاً: عُمَركَسْبُوْ»، ومدّ يده الى علبة عمه جهور، عاقداً منها لفافة: «قلنا: عمر، الحق به بحق الله. خسارة بغلٍ، ولا خسارة ابن آدم. فلحق به الرجل. شجاعٌ وابن شجاع عمرُ هذا. لقّم بندقيته وركض»، ثم توقف مجيدو عن السرد، ناظراً في الوجوه من حوله، كأنما يستحثهم ان يسـألـه عما جرى في ما بعد، واذ وصل الى كرزو مطّ عنقه: «أتعـرف ما جرى؟» فغـارت رقبـة الصبي بين كتفيه خجـلاً من تخصيصه بالسؤال، ثم دارى خجله ملتفتـاً الى برينا، هارباً من نظرات مجيدو الذي استرسل: «لم يعد عمر كسبو تلك الليلة. انتظرناه حتى الفجر، ثم اكملنا طريقنـا الى الـدغل حيث سلّمنا البضاعة الى المنتظرين. بالطبع لم نستطع الـرجوع بعد ان فضح النهار المنطقة كلها، وآثرنا البقاء بين الاشجار حتى المساء. جعلنا ساتراً من الثلج حولنا، ولم يدخل بلاعيمنا، والله، غير دخان التبغ. واذ هممنا بالعودة، بعد الغروب، وقعنا على شبح متكوّمٍ في المكان الذي هرب منه البغل. تحاشيناه بحذر بليغ، لكن صوته الهادىء جمدنا: «يا جراء إبليس، الافضـل لكم ان تركضـوا»، فهتفنا به: «عمر؟ أين اختفيت؟»، وتقـدّمنا منه فألفيناه مخفياً رأسه تحت عباءته، مخافة ان يبين جمر لفافته التي يدخنهـا في هدوء غريب. ولما احطنا به، ازاح العباءة عن رأسه، نافخاً في غضب: «أي حمار جئتم به؟»، وازبـد قبـل ان نسـأل، بدورنا، أيَّ حمار يقصـد: «اتعـرفـون الى اين اتجـه البغل؟. . . الى المخفر التركي مباشرة. أإشتريتموه من المخفر؟ وحقّ النعمة لو دللتكم في الليل على المخفر لَتُهْتُم عنه،

لكن ابن الكلب، هذا البغل، قصد المخفر. بغل. ماذا تقول لبغل؟ انما هذا الاحمق عريبو. عريبو»، وأفقنا، حقاً، على سؤال غاب عنا: «اين عريبو؟»، فوضع رأسه بين يديه كأنما يتأسف على حياته كلها: «عريبو من سلالة البغل. سأشق قميصي اذا لم يكن من سلالة البغل نفسه. لقد دخل المخفر وراء البغل. شدهت فاستلقيت في حفرة على بعد مائتي خطوة من المخفر، كاتماً انفاسي، منتظراً طلقة تأخذ بحياة الاحمق، غير اني لم اسمع الا عويلاً ونباحاً، وصخباً ظننت معه ان القيامة قامت، فنفذت بجلدي دون النظر الى الوراء. والله لو صوّب دركي بندقيته الى ظهري لما استلقيت بعد سماعي ذلك العويل. جُنّتِ الجنُّ، هكذا ظننت». ولما رأى مجيدو مبلغ الجدّ الذي اصاب السامعين بعد الهزل المقهقِه، اختصرالحكاية على نحو مفاجىء: «في تلك الليلة لحق بنا عريبو ببغله»، فقاطعه الجالسون بدهَش: «عريبو؟»، فردّ: «نعم. عريبو وبغله المحمَّل تبغاً. لحقا بنا سليمين كراحة يدي»، ورفع يده المبسوطة تحت انعكاس اللهب في الموقد، مديراً بها على كل اتجاه: «أترون؟ لا خدش»، وأضاف: «صُعقنا، ثم توجّسنا خوفاً: كيف نفذت يا عريبو؟ فأجابنا في هدوء زاد من صعقنا: هربوا. كانوا نياماً، واذ دخل البغل، ودخلت من خلفه الى وسط المخفر، هربوا. لو كان لدي بغل آخر لجلبت بنادقهم. قلت لنفسي، هناك، لا مفر. بوغتوا، لكنهم سيطوقون المخفر بعد دقائق، فجلست الى صحن عدس ساخن. ازدردته كله، ودخنت عشرين لفافة دون ان يظهر اثر لدركي، فأخذت برسن البغل وعدت. ضللت الطريق، ولهذا تأخرت عليكم»، فانفجر الجالسون بقهقهة تشقق الجليد من رنينها في الخارج، حتى ان كرزو اتكأ برأسه الى كتف برينا وهو يهتز اهتزازاً يرجُّ المرأة في مكانها.

كان عقدي الذي يبتسم دون ضحك، على خلاف الجالسين، يختلس بين البرهة والاخرى نظرات ابوية الى ابنته برينا، التي كانت تكتفي بالابتسام، بدورها، محتفية بأخيها لا بما يرويه. ففي وسع الأب ان يلتقط خلجات صغيرة للأسى تحت اهدابها، وان يعتصره إشفاق يجهد في اخفائه، وهو ليس في حاجة الى اخفائه، او تمويهه، على كل حال، فلحيته الكثة التي تسلّقت خديه، ايضاً، كفيلة بذلك. لكن عينيه لا تثبتان على شيء، كأنما تحاولان مباغتة الجهة التي سيطفر منها قلق مقبل كالعصارة البيضاء التي تطفر من نبتة الخرنوب اذا تقصّف سُوَيْقُها. انه يشق لحظته بين غبطته بابنه العائد،

وأسـاه على ابنتـه العـائـدة، ويبقى حيران في وسط الشرخ. يحاول التوفيق بحكمة الكهولة فيستعصي عليه كبده. «السيد يلجمُ بحيلة سيادتهِ ان يتوزَّعَ، وانت سيدُ عقدي». لكن موعد عفدي مع وجهي ولديه موعدٌ كجرّة اصابها حجر. وقبل ان يتدحرج كبده كمدحلة الأسطحة الى هنا او هناك، ينهض ابنه: «انا عائد يا ابي. وَصِّني»، فيجفل الاب: كيف ضاع كل هذا الوقت ولم يظفر بشيء. اين كنت عفدي؟، ويتمتم الرجل في وقار لا توسل فيه: «ألا تريد ان تبقى وقتاً آخر؟»، فيهز الشاب رأسه: «الكلام دلوٌ يا أبي. ستمتلىء الحارة بالخبر اذا بقيت»، ويوافقه الاب بإحناءة من رقبته، وهو يمسّد على لحيته الكثة بيده.

يخرج الشاب على عجل، غير مودِّع، على عكس ما دخل. انه يختصر، لكنه لا ينسى ان يلقي نظرة على «كرزو» وهو يغمز بعينه للصبي كأنما يوطّد مودة لم يسعفـه الوقت اليها. وفي الحال ينهض الاب وابنته برينا مواكبين، فيسارعِ كرزو، بدوره، الى اللحاق بهم في خفة الهرة. وامام بوابة السور، خارجـاً، حيث ترتجف اربعة بغال حاقدة من انتظارها في ذلك البرد، تمتم عفدي الى ابنه بضع كلمات تحثّه على الحذر، واحاطت الأخت بعنق اخيها في عناق صامت. اما الأم، التي خرجت متمهلة، فقد استندت بيدها الى كتف كرزو، على مبعدة مترين من المشهد، دون ان تتفوه بشيء، متقنعة بالظلام الذي لن يفضح قلبها الصاعد الى عينيها. وفي اللحظة التي همّ فيها مجيدو أن يمتطي احد البغال، بعدما اتخذ ثلاثة من رفاقه مجالسهم على ظهور البغال الاخرى، استدرك شيئاً فاته، فالتفت الى ابيه: «ثمت امر غريب يجري، في المكان ذاته، دائمًا، بين الدغل الممتد من «الهلالية» الى «نصيبين» يا ابي»، ومسَّد بيده على عنق البغل، ناظراً، دون تحديد، الى الظلام فوق رأس ابيه: «كـأنـما المـح انـاسـاً مضيئين مع بغال مضيئة، ضاربة بلونها الى شيء من البفسجي. غريب. دائمًا احاول تحديد ما ارى فتزوغ عيناي. وثمت. . . نعم، ثمت من يومىء في مقدمتهم بشيء ما في يده. اقول لنفسي انني واهم. كل هذا وهم. ما من احد من رفاقي رأى ما رأيت، لذلك لم احدث احداً بالامر. غريب. . . . اجَرى ذلك لأحدٍ من رجالك انت؟»، فرد عفدي دون ان يتبين ابنه ملامحه في الظلام: «احاولت ان تطلق النار عليهم؟»، «لا» قالها مجيدو، وأردف: «لا اريد ايقاظ الدرك يا ابي». فهمهم الاب: «لا تهتم ما داموا بعيدين عنك. والدغل، على كل حال، مليء بارواح كهذه. لا تنظر

اليها. الارواح خجولة، وهي تستثار اذ تعرف انك تنظر اليها. من يدري، ربما تكون ارواح خير. تفاءل يا بني». فلم يعقّب مجيدو على كلام ابيه، بل وضع كلتي يديه على ظهر البغل ثم قفز متسلقاً الحيوان بصدره اولاً - لأنْ ما من رِكاب للسرج يضع فيه قدمه - ومن ثم استوى فوقه. واذ تمَّ له ذلك استدار بالحيوان شمالاً، ومضى تتعقبه بغال رفاقه.

مذ قتل مجيدو بمسدسه باقي جواني لم يعد الى البيت. اختار البقاء في الجانب الآخر من الحدود السورية، قائمًا على تنظيم القوافل وبضائعها، وعلى اختيار الرجال لعبور الحدود، حتى اجتمع له رهط اشبه بفرقة إعدام، وكان المضطلعون بالامر، من قبل، رجال يؤثرون الدهاء على المصادمات القاتلة مع درك الحدود، او المنافسين الذين ينبثقون هنا، وهناك، حيناً بعد اخر. وقد ظل مجيدو، على كل حال، ضمير الظلام وقصاصه المقضيَّ، لأشهُر بعد ذلك. لا يرفع الواشون اليه اسمًا غير مرضيٍ عنه حتى يدبّر القدر كيداً لصاحب الاسم، هكذا، في هدوء تتواطأ جدران البيوت، والقرى، على تبجيل اسراره؛ ثم، وبضربة احكمتها الغابة، في الخط الوهمي الفاصل بين شجيرات الكينا والصفصاف، تحديداً (بل فوق طبقة الطمي الرقيقة للجدول الذي يتفلّت بصعوبة من شبكة العلّيق، آتياً من المسافة المكشوفة للحدود، غير الآمنة قط، بسبب وجود مراصد فردية ليست غير حفر تحوطها حجارة على غير انتظام، يتلصص من فوقها حرس لا يأبهون ان كانت قبعاتهم ظاهرة ام مخفيّة). نعم. هناك، في الخط الوهمي المنخفض قليلاً عن مستوى ركام الأوراق، سقط مجيدو بكامل قامته فوق طمي الجدول، وقد حفرت يداه، في محاولتهما الاخيرة ان تحميا الجسم من ثقل السقطة، اخاديد لينة انسربت منها المياه الى كُمَّيْ سترته، فبللت قميصه الداخلي حتى المرفقين، وجزءاً مما يستر صدره، بعصارة تميل الى السواد، اما وجهه فغاص في الماء، على هيئة سدٍّ صغير يقطع الانسياب الرَّخيَّ للمجرى الضَّحل، ويولّد الفقاعات الزبديَّة من حوله.

لم يكن في جسم مجيدو اي اثر لضربة، حين قلَّبه اصحابه وتفحَّصوه وَجِلِيْنَ. لقد انفصل عنهم، ذلك الفجر، على حين غرة، وهو يتمتم: «ألن يتعب ابن الكلب من مناداتي؟»، واذ سأله احد رفاقه على اللاتعيين: «من يناديك؟»، رد وقد الوى عنق بغله: «سأتبوّل»، وأردف كانما اشتد بَرَمُهُ بحال لا تعني احداً سواه: «لا يعجبني هذا المزاح المختلط بكلمة «خالي»». ثم غاب طويلاً حتى عثر عليه رفاقه منكباً على الجدول يسدّه في حنق غير منظور. ولما

حّملوه، وسط ذهولهم، على بغله، فرّ البغل بالجثة. فرّ سليل الشيطان متجهاً الى دغل العليق والشربين المتاخم لأسلاك الحدود تماماً. لعبة مُرَّة قصد البغل منها ان يسدل الستار على حقيقة موت ابن عفدي، فبات كل شيء نهباً للأخيلة بعد بحث دام ستة ايام، ، ولم يبن أثر للجثة.

كان عفدي حانقاً تلك الظهيرة كدبّور. دخل ساحة داره في ما يشبه الهرولة، هارباً من حكاية «حشمو» كلها: «تعبت. . . تعبت من ذبابة عقله». وما كاد يلقي بنفسه على الأريكة الرقيقة داخل مضافته، حتى اجتمع حوله اولاد الملاّ، وابنته، وزوجه، وبعض اولاده متسائلين، فاختصر المسألة دون ان يرفع رأسه المتكىء على مخدة عالية في يأس واضح: «كلّما اقنعنا القاضي بشيء خرج حشمو بشيء آخر. استئناف وراء استئناف. مجنون. . لا . احمق. . لا. حمار. . لا. نريد تسوية الامر على أيّ نحو كان، لكن حشمو هذا يدوس على امعائنا. نقول له: حشمو، قل انك نصبت الفخ للعصافير وليس لزوجك خاتي، فيرد: أأنا أبله؟ هذا فخ مصنوع للكائنات الكبيرة. فنلكزه: نعرف ذلك، لكن عليك الإدلاء بما يدل على انك أبله قليلاً ليكون الإستئناف في محله، فيرد ابن الجرو: أأنا أبله لأكون أبله؟». ويستوي عفدي جالساً، وهو يعقد لفافة ثخينة من علبته الفضية، قائلاً في أسى: «نقول له: انت لست ابله. غيّر في الحكاية قليلاً لننتهي من هذه المهزلة، فيرد علينا: «وماذا عليّ ان افعل»؟. . آه. نعم. ماذا عليه ان يفعل. إفعل اي شيء يا حشمو. نقول له: أخبر القاضي انك نصبت الفخ للذئاب، للملائكة، لليل، للثلج، لروح امك يا حشمو. قل أي شيء ولا تتّهم اولادك».

لقد حاول عفدي، طوال الربيع، الذي تلا حماقة الثلج الكبيرة في ذلك العام، ان يجنّب اولاد خاتي بؤساً يزداد كثافة كدخان الروث الرطب في تنّور. وبإلحاح من نجمة قلبه برينا، برغم مَلاَلته الواضحة من المسألة كلها، اقسم - ورجل مثله لا يحنث بقسم - ان يناصر يتامى اخت الملاّ. ثم بحث عن مدخل لنصرة حشمو فلم يجد - كما أسرّ اليه الاذكياء - غير اتهامه بالبلاهة، عسى يخفّف ذلك من الجرم، فَيُفْتَدى الجاني بالمال من «الحق العام» الذي هو قصاص الدولة وحدها، مادام لم يرفع احد ضد حشمو دعوى «حق خاص». وحشمو ابله وبسيط في زعم عفدي ويقينه، فالامر، إذاً، امر تدبير لبق. وقد توصل، فعلاً، الى حصر المسألة كلها في تغيير شهادة الجاني. نعم. «فليغير شهادته. ليقل، مثلاً، ان الفخ كان منصوباً لذبابة، لحمار، لذئب، للص»

قال القـاضي لعفدي، وأردف: «انا مقتنع ببساطة الرجل. وسندوّن الجرم كحاصل عن غير قصد. كقضاء وقدر»، ثم امر القاضي باحتجاز حشمو رهن التحقيق، لا اكثر، مماطلاً بذلك في اصدار حكم جزائي. وقد حاول عفدي، لأشهر، دفع زوج القتيلة الى ترداد شيء آخر غير الذي يردده كالببغاء فأخفق. ان حشمو يصر على ما يقول بانفعال واضح، من وراء قضبان غرفة التوقيف: «لست انا من نصب الفخ يا سيد عفدي، اقسم بتراب امي»، فيرد عفدي مهـدئـاً: حشمـو. حشمو. لا يهم من نصب الفخ. نريد تسوية الامر كقضـاء وقدر. ألا تحب العودة الى اولادك؟»، ويطأطىء السجين متأمّلاً: «كنت المقصـود يا سيد عفدي. كيف اقنعك؟ كانوا يلحون عليّ بالخروج، تلك الليلة، الى السـاحـة، بحجـة أنهم يسمعون حركات مريبة. هاها. شممت الحيلة. اتشمم حِيَلَهم دائماً. والله لو خرجت لوقعت انا في الفخ»، وهنـا يعض عفـدي على كم سترتـه الـرقيقـة، محاولاً الا يخرج على وقاره: «حشمو. حشمو. يا ابن النعجة، انت تدفع بي الى الهرب»، وقد هرب فعلاً، حينما استوى حشمو واقفاً من وراء القضبان، محتمياً بها: «لا تَدْعُني بإبن النعجة يا سيد عفدي». نعم. هب عفدي الذي كان يجلس القرفصاء ـ ككـل من يقـابل المسجونين ـ واقفاً، بدوره، بعد كلمات السجين تلك. التفت من حوله كأنما يبحث عن شيء يسدد به ضربه قاتلة، ربما، أو ليتلافى ان يسمع احد ما سيقوله: «لماذا لم يقع ابن جرو مثلك في الفخ؟ وحقِّ الله على عباده سأشتري مائة ابريق للمسجد اذا حوكمت بخمس سنين، ومائتي ابريق اذا حوكمت بعشر».

كان مايزال ملقياً برأسـه الى الوراء حين انتهى من آخر كلمة بللت زاويتي فمه ببعض اللعاب الدبق. رفع طرف حطته ومسح فمه، ثم استوى جالساً، فلم يجد في الوجوه اثراً من تأييد لما فعل. دار على الواقفين من حوله وجهـاً وجهاً: «ما الذي ينبغي ان افعل يا ملائكة عمري؟». قال ذلك في سخرية ترشح مرارة.

«حاول من جديد يا أبي» ارتفع صوت برينا. «مستحيل» غمغم الأب. عنـدئذٍ تناهي صوت كرزو: «اولاد عمتي خاتي أبالسة»، فدفعه احد أولاد عقْدي من الخلف هامساً: «صوتك مزعج»، فرد الصبي غاضباً وهو يستدير مواجهاً ابن عقْدي: «وانت تنطح كتيس». وهنا تدخل عقْدي بين الصبيين

اللذين تأهبا للخصام: «هذا ما ينقصنا إذاً. خذا سكينين واقتتلا خارجاً»، فطأطأ كرزو، بينما خرج الصبي الآخر مقطباً كرجل أُهين.

«حاول لمرة اخيرة» رددت برينا في توسل خفي، فوضع الأب رأسه بين يديه، لاجماً اجابته الغاضبة، ثم رفعه من أثر الجلبة التي تناهت من ساحة الدار، ممتزجة بعويل رجولي: «مات مجيدو».

لم ينتظر الرسولان مواجهة الأب بالامر، ولم يتصنّعا المداورة الواجبة، عادةً، في اطلاق خبر صاعق كهذا. لقد أعولا مذ توسطا الساحة، وصرخا معاً: «مات مجيدو»، كأنما يخبران الزريبة، والسور، والبئر، والعشب المتمايل على حواف الأسطحة. ثم شد كل منهما حطته عن رأسه كدليل على فداحة المصاب، وتراخى كفزاعة عصافير، منتظراً رد فعل مَنْ في البيت. ولم يُطل الصمت إلّا لثوان: هصرت الاجساد الأجسادَ وهي تخرج من المضافة. الافواه مفتوحة وخرساء من الصدمة، والعيون وحدها تستفسر. غير ان مشهد الرسولين خيَّبَ أيَّ أمل في خطأ محتمل.

كان عقْدي آخر من خرج بوجهه الذي خلا من اي لون. اتّكأ على عارضة الباب بظهره، ورفع احدى يديه في صمت الى صدره، معتصراً ثوبه، فوق القلب تماماً.

عويل العائلة خافت في الساحة، كأنما تمتص الرئات اكثره الى الداخل. الدجاجات مطت اعناقها وقد توقفت، كلٌّ واحدة حيث هي، عن بلاهتها المحمومة. يد برينا، وحدها، عَلَت الجمع المنحني، في اتجاه الفراغ العالي، متضرعةً، او محاولةً الإمساك بالمغزل الأبدي الذي يبرم الخيوط ثخينة او رقيقة بحسب اللعبة وأصولها. وكان ثمة في الاعلى، فوق الساحة تماماً، على نحو يسدّ السماء، جاروش كبير تتناثر من حول رَحَيَيْهِ فتافيت عدس أحمر.

قالت زوج عقْدي انها ستطبخ عدساً للاولاد بشحم النعاج، وأدارت المقبض الخشبي المثبت عمودياً في الحجر المستدير. كرررر. كرر. . ررر. رَحَيَان من البازلت الاسود تدور احداهما فوق الاخرى. اليد الحرة لزوج عقدي تلقّم الثقب الواسع في الرَّحى العليا للجاروش بحفنات من العدس. كرررر. . صوت انيس في ذلك الظل الصباحي للربع الاخير من ربيع العام. فراخ الدجاج، التي نما الريش على اجنحتها دون اجسامها العارية، تقترب في ذلّ واضح من الجاروش. تقف منصتة الى الصوت وقد حسرت رقابها الرفيعة الى داخل اقفاص صدورها، قبل ان تتلقّم، بخفّة السارق، فلقة عدس

سقطت هنا او هناك. أم برينا تهشّ بيدها، بين برهة واخرى، على اللصوص الجسـورة فينفـرط عقدها الحيواني. لكن الدائرة تلتئم من جديد: فراخ في الاسبوع الثاني من ولادتها. جلود زرقاء او بنفسجية. ريش على الفخذين والجنـاحـين، والجـزء العلوي من الـرقبـة. لقد تعرّت من زغبها اولاً، ثم اكتست، شيئاً فشيئاً، ذلك النسيج الذي يدلُّ على نوعها. لا خطأ قط. ما من فرخة نما على جلدها الرقيق شعر أو وبر، وما من فرخة اتخذت مزاجاً غير الذي للدجاج، اذ لم يقل احد ان احدى هذه الفراخ عفّت عن النخالة، او الحنطة، او العدس، او الخبز الفَتِيْتِ، لتطالب بالشواء، او بالثريد، او ببقول مُتَبَّلَةٍ. هكـذا، ارتأت، منذ وقت لا ندريه، ان تدور من حول الجاروش لتختلس من المرأة الرحيمة ما تستطيع نيله من مكان آخر، دون اختلاس.

كان ثمت تواطؤ خفي بين زوج عقْدي وفراخ دجاجها: لا تنظر اليها حين تسرق العدس، ولا تسرق الفراخ العدس حين تنظر المرأة اليها. لكن، كان واضحاً ان الفراخ تلتزم لعبتها العادية، دون ان تلفت نظر المرأة الى شيء غريب يختلط بالعشب المائل الى الجفاف في الزاوية التي يؤلّفها تعامُدُ السور والحظيرة. ولما طالت المناوشة بين المرأة وفراخ دجاجها من حول الجاروش ـ هي تهش بيدها، وهنَّ ينتكسن قليلاً ثم يتقدَّمن ـ حزمت الحيوانات الصغيرة تلك أمرها على دفع الملهاة، التي لن تنتهي بطعمها الشبيه بطعم العدس، في اتجاه لم يرسمه ذلك الصباح لدورته العادية. فلقد انفضّت عن الجاروش، جميعاً، باتفـاق اخرس، ومضت الى الركن ذاك، حيث العشب الكثيف الجاف في الزاوية التي يؤلّفها تعامد السور والحظيرة. اخفضت اعناقها لبرهة ثم رفعتها لتتمايل الأعراف الحمراء كمروحة من فوق رؤوسها المذعورة.

أكانت مذعورة، أم تعمدت صخبها الفاضح؟ ما من شبح يخفى عليه قصد تلك الكائنات المضحكة بريشها غير المكتمل، لكن كان على ساحة بيت عقْـدي ان تشهد كمالَها الربيعيَّ قبل هبوب الصيف بزيزانه الماجنة، لذلك التفتت المرأة الى الزاوية التي تطايرت منها الفراخ كأنما قذفت بها الارض قذفاً. وقد خطر ببالها، للوهلة الاولى، ان ثمت أفعى، أو عقرباً أجفلهن، فقامت تتفقد العشب. ولم يطل بها بحثها، إذ نكصت مجفلة بدورها، صارخة وقد عمدت ان تحمي رأسها بذراعيها.

دأبت زوج عقْـدي، منذ طفولتها، الى الحركة ذاتها إذْ تُفَاجأ: ترفع ذراعيها على نحو يتساوى فيه العضدان مع مستوى الكتفين تماماً، بينما ينحني

الساعدان انحناءة يشكّل فيها كل منهما زاوية حادة في المرفق، أي: تتجه الكفان الى الرأس من الجانبين، في محاولة لحمايته من شيء، او لتطويق ما يعتمل فيه من صدمة. لكنها، في اليوم الذي نعى الرسولان ابنها «مجيدو» لم تعمد الى ذلك. تهدّل كتفاها حتى ليظنُّ الناظر انها نسيت ذراعيها في الغرفة آن خروجها، وغشي لسانها طعم حرِّيْفٌ يشبه الوخز. وكادت ان تتداعي فطوّقها بعضهم مُسْندين. «مجيدو، أهذه هديتك لنا؟» أطلقتها على غير تبصُّر فيها تقول، ثم التفتتْ يميناً، لتسأل دون تخصيص احد بسؤالها: «ماذا جرى لعريسي أنا؟».

«والله» أقسم «ميرڤان»، وكرر: «والله يا سيد عفْدي» حين قال مجيدو «الن يتعب ابن الكلب من مناداتي»، سألته: من يناديك؟ فرد ـ إحزر هذا الرد الغريب ـ سأتبوّل. من يذهب ليتبول يا سيد عفْدي لا يبدو غاضباً هكذا، بل يبدو عجولاً. نعم. حين يحتقن احدنا ينسلُّ مهرولاً فنفهم، اما ان يتمتم: «لا تعجبني كلمة خالي» فهذا. . » وهز ياقة جلبابه كمن يرد الحرّ عن عنقه: «هذا شيء مضحك». فارتفع صوت زميلة «رشّو» الذي دخل معه الى الساحة حين نعيا مجيدو: «ليس مضحكاً ما قاله يا ميرفان. كان يردد مراراً، على نحو مازح: انا خال الثلج. وكنا نردد، بدورنا، اذ يقول ذلك: كن خال الهواء اذا شئت. كن خال الشرطة، والغابة، والحدود كلها. نعم. فترتسم على وجهه تعابير جادة فجاءةً، ويرد: انا خال هذا الحارس، ويشير بيده الى بقعة بنفسجية من الغابة». وأردف: «في الليل، يا سيد عفْدي، تبدو تلك البقعة اكثر شفافية من كل ما هنالك، وفي النهار تبدو داكنة، كأنما تخفي شيئاً يتحرك حركة ثقيلة. دائمًا. . نعم يا سيد عفْدي. . دائمًا كان المزاحُ ينقلب الى شيء جاد. مجيدو يبدأ المزاح، كلّما صرنا في محاذاة تلك البقعة، ومجيدو يقطع المزاح، حتى كدنا نظن انه ضجر من صحبتنا. ذلك شيء يكدّر النفس يا سيد عفدي حين نفكر اننا نُضْجِرُ مجيدو». ويأخذ رشّوْ نفساً ليضيف: «لم يكن يهمنا رزقنا، بل صحبته الحلَوة»، قال ذلك بتملق فرمقه «ميرفان» محتقراً. «آه. نعم» همس رشو، ثم اعتدل بهاجس ان يتلافى نظرات زميله، ويصحح انزلاقته التي لا مبرر لها: «قال سأتبول، ولَم يعد. اتجه الى البقعة البنفسجية تلك مباشرة، وحين وجدناه كان ملقى على جدول، ومن حوله نتف صغيرة من اوراق دفتر بهتت كتابة ارقامها. مجيدو لا يحمل دفتراً قط، يا سيد عفْدي. نتف الاوراق كانت جديدة كأنما مزقها احد لتوه، ونثرها هناك» وتوقف ليرى

اثر كلامه في الوجوه، فعاجل ميرڤان سكوت زميله: «أنت نسيت يا رشو ما كان يقوله منذ ان ذاب الثلج. أتذكر ـ ها ـ: انا خاله؟ خال من نسأله، فيرد: خال الذي انا خاله. نعم يا سيد عفدي. كان يردد الكلمة في مرح، فماذا جرى ذلك اليوم ليبدو متأففاً ضيق النفس من ان يكون «خالاً»؟ الله اعلم».

«أليس هذا صوت امي؟» سألت برينا اولاد الملاّ بيناڤ، وهي متأكدة انه صوت أمها. كان سؤالاً أخرق على كل حال، لكن في إطلاقه، بصوت مسموع، بعض المراوغة في أمر مؤكد دون ريب: الصوت صوت أمها، فلماذا تسأل برينا هؤلاء الاولاد إذاً؟ لقد توقف الجاروش عن الطحن، ثم علت الصرخة بعد قليل. ولم يلحظ احد، بالطبع، تلك البرهة الصامتة الفاصلة بين الطحن والصرخة، اذ التقدير ان يفطن الى ذلك من يراقب الحدث، لا من يغفل عنه. وكانت الفراخ وحدها، بحسب هذا التقدير، قد فطنت الى الامـر اولاً، لكنها كانت مشغولة بتدبير حيلتها، فَسَهَتْ عمداً عن سكوت الجاروش لتتهيأ للعويل المختنق بطعم الذعر.

ماذا كانت تقول برينا للاولاد في تلك اللحظة؟ لا يهم بالتأكيد ما كانت تقوله وهي تحك بأصبعها، من تحت منديل الرأس، شحمة أذنها، اما الاولاد فبـدوا غير عابئين بكلام المرأة إلاّ قليلاً، مُلْتَمّينَ على طائِرَيْ حَجَلٍ ينقران بجسارة كل اصبع تمتد الى قفصهما.

هكذا كان المشهد بعامة، حين صرخت زوج عفدي، لكن مَنْ يُؤْثِرُ التمادي في الإحاطة بما احتوت الساحة، آنئذٍ، فسيقع على شؤون صغيرة لا تقدّم ولا تؤخر في الرواية اذا روتها امرأة من الحيِّ الغربي مثلاً، وهذا ما لم يقع بعناية الوجهاء الطّيْفيّين ممن تنفع شفاعاتهم المخبأة في الشعاعات.. نعم: الشعاعات.

كل بيت له شعـاعه، والابواب، والشبابيك، عادة، هي مرتع هذه الشعـاعـات، غير ان بعضها يدلف من السقوف أيضاً. وللتفصيل يمكن الاشـارة الى ما يلي: الابـواب الخشبية ملآى بمراكز داكنة صلبة تتمايز عما حولهـا، وهي، ببسـاطـة، عبـارة عن طفرات كانت تشكل غصوناً، في ما مضى، في جذع الشجـرة الأم. وحـين يسـوي النجّـارون لوائـح الخشب بمنـاشيرهم، تبدو الامكنة التي انبثقت منها الغصون في الجذع على شكل مراكز لولبية، وهي غير ثابتة بعامة، يمكن دفعها باصبع اليد لتسقط من الجهة الاخرى، ويبدو مكانُ كل واحدة ثقباً، كأنما لم تلتحم الغصون في الاساس،

بمحيطها. انها مسألة مرسومة على كل حال، فلقد حاول الغصن في انبثاقته ان يستقل عن الجذع فاستعصى عليه الامر، بحكم انه لا يملك، اضافة الى إراداته الخفية في استقلاله، ما يمكّنه من ذلك: اي: ان يركض وحده الى تربة اخرى، ويحفر حفرة يودعها جذوره، ثم يردم التراب عليها، لينصرف الى تأملاته ـ كعادة النبات ـ في الحكمة من ان تكون الفاكهة سبباً للحروب.

هذا بعض مما أُشِيْرَ اليه في امر الشعاعات، والامر الآخر ان النوافذ تترك في ثناياها مسارب أيضاً. فالنوافذ محض كوى كبيرة، ذات اطارات خشبية تضم رقائق من الزجاج، يسدل عليها، من الداخل، ستارٌ ذو قسمين، ومن الفاصل بينهما ينحدر شعاع ما. اما السقوف فذلك امر متروك لما يولّده الدَّلْفُ الشتائيُّ، والربيعيُّ، من ثقوب لا تراها العين في اول الامر، ومن ثم توسّعها اليعاسيب صيفاً، فتقتحمها الشمس بفضولها ومكرها. غير ان الامر قد ينسحب على كل جهات البيت: اي: الجدران ايضاً، على النحو ذاته الذي يجري للسقوف. لكن يبقى الاكثر مثاراً للتأويل ما يتخلل ارض الغرف نحو الأعلى، تلك الارض الكتيمة عادة، المجبولة بآلاف الزوابع من التراب الاعمى، المرصوصة بالمداحل الحجرية، والأرجل، وقهقهات جبَّالي الطين، الذين ابتلَّت لفافاتهم، حتى منتصفها، باللُّعاب، وهم لا يبعدونها عن شفاههم دون ان يبلغ الجمر مبلغاً يحرقها عن قرب: هكذا، نعم، تبقى اللفافات مشتعلة الى اعقابها وهم سادرون في حركتهم الخرقاء كاللقالق؛ تنزل ساق وترتفع ساق في العجينة الداكنة، السمراء، التي ستغطي جدران البيوت، وأرضياتها.

من الارض، إذاً، في اتجاه الأعلى. أيُّ شعاع شيطاني ينتفض تلك الانتفاضة من وسط الظلام السحيق في مجاهل الطين؟. من الأرض في اتجاه الأعلى الأبكم، إذاً. من الأرض؛ من الجبلَّةِ الاكثر فوضى كرُدْني ثوب زوج الملّا في فزعها، ينبث الشعاع الذي يُلْجِمُ لَسانَ الراوي.

هكذا، إذاً، كان المشهد الذي يحوي، بعامَّة، شؤوناً صغيرة لا تقدّم ولا تؤخر في الرواية على كل حال، وهي، بحسب ما يمكن ان يُسْمَعَ او يُرى، في الساحة، لا تجاوز الخوار الغريب للبقرة في الزريبة؛ واهتزاز الدلو المعلّق بالعتلة فوق البئر، كأنما هزّت الحبل يدٌ من القاع؛ ومرور فراشة مستعجلة؛ وشتيمة من داخل غرفة اولاد الملّا، حيث يبقى الأصغران وحدهما بعد ان

يذهب الأكبران الى المدرسة؛ ورنين قطعة معدنية على شيء صلب، ولم يكن ذلك الرنين إلّا من أثر سقوط قرط من أقراط المرأة، إذ قامت لتستطلع الامر، فوق حافة الجاروش الحجري. وقد تطلعت زوج الملاّ، حين سماعها الصوت، الى الاسفل، بعدما كان نظرها مثبتاً على الزاوية التي أجْفَلَتِ الدجاجات، فرأت قرطها غائصاً حتى منتصف حلقته في العدس المطحون، لكنها ارتأت التقـاطه في ما بعد. وهكذا تقدمت صوب الزاوية ذات العشب، واطلقت صرختها، وهي تحمي رأسها بذراعيها كأنما يحاصرها كربٌ مخيف.

كانت برينا ماتزال تسأل نفسها، على نحو كاللَّمح، السؤال ذاته: «انه صوت امي، فلم أسأل الاولاد لمن يكون؟». انها برهة مضحكة بين سؤالها الأبله وخروجها من الباب. وقتٌ يشبه طرطقة اللّبّان في الفم. وإذ أدركت أمّها قرب الزاوية التي كان يشغلها صندوق جدّها، في ما مضى، أمسكت بردنها تهدِّئها، بينما ظل وجهها منصرفاً صوب ما علمت انه مصدر الفزع، ومن ثم تركت الـرُّدن مأخوذة بما تراه من خلل العشب المائل الى الجفاف، وتقدّمت قليلاً لتتأكد عن كثب، فارتدّت مثلما ارتدّت زوج عقدي من قبل، وهي ترفـع يديهـا الى وجهها لتقيه من هبوب المشهد: كانت الزاوية ملآى بأصـابـع منبثقة من التراب، داكنة الجلد قليلاً، وتتحرك حركة بطيئة كأنما تومىء الى أحد.

لن تقارن برينا في ذاكرتها المستدير كفوهة البئر، يقيناً، هذا الحقل من الاصابع إلّا بالبذور الاولى التي رأتها في المنديل حول مسكن جدها، ذلك المنديل الذي أثار جنون أبيها، وجنون الماضي الذي استثاره ابن علي مشكي باطّلاعه على رسائل المعلم المغلقة، في الغابر القريب. وبعد برهة الدَّهش الاول، الممتزج بطعم يصعد مما وراء الطعم، قائمٍ بذاته، متصلٍ بمفاجأةِ غير الأليف وطفراته، خطر ببال برينا، وهي تدفع بأمها لتستدير عن المشهد، انَ تنظّف الزاوية من ذلك الزرع الغريب. وبعدما قادتها، في سرعة، الى احدى غرف المنزل، عادت ثانية بمعزق كانوا ينكشون به التراب من حول الشجرات، عادةً، وأهوت على الأرض، مغمضة العينين، بضربات أودعتها الكثير من الفـزع والاشمئـزاز معاً، حتى غطتها زوبعة صغيرة من التراب المتناثر، والعشب وما يحتويه.

لو مرّ محراث تجرّه عشرة ثيران على أرض الزاوية تلك لما عدَلَ فِعْلُهُ فعلَ برينـا. والثـيران، بتقـدير بسيط، لن تصـطدم بالجدارين اللذين يشكلان

الزاوية على كل حال، وهذا ما فعلته زوج الملاّ. فآثار المعزق جاوزت الارض الى جدار الزريبة وجدار السور، كأنما حاولت المرأة ان تمحو الركن كلّه؛ أن تمحو ماضي هذه الزاوية وحاضرها. وقد حالفها قصدها يوماً واحداً، لا غير. ففي اليوم الثاني، وفيما حاولت برينا وأمها، معاً، طيَّ ذعرهما، وإدراج ما رأتا في عِقْدِ ما تحفظان من اسرار خاصة، علت صرخات اولاد الملاّ كمثل صرخات الفراخ في اليوم الذي سبق. وعلى النحو ذاته الذي حمت زوج عفدي رأسها بذراعيها، حمى عفدي رأسه بذراعيه، لكن دون رفعهما عالياً الى مستوى الجبهة والعينين، لما يعني ذلك، حتى دون قصد، من انتقاص لجسارته.

لقد رأى عفدي، ايضاً، حقلاً صغيراً من الاصابع، في الزاوية التي لم يعرف ان ابنته حرثتها حرثاً من قبل، بعدما لفت ناظريه اولاد الملاّ بصراخهم، واجفالتهم.

تقول زوج عفدي لابنتها برينا انها لم تشهد ـ ولم يحدّثها احد انه شهد ـ تسارعاً في النمو كهذا. وتضرب الفُطْرَ مثلاً، كاستثناء، دون ان تجد الى غيره سبيلاً: «الفطر ينمو بتسارع. الفطر، نعم يا ابنتي. اغسليه بماء بارد، وادلقي الماء حيث تريدين، وسينمو فطر بعد اربعة ايام على الاقل. اربعة ايام . . . وليس، كهذه الاصابع، بعد يوم واحد».

كان مَثَلُ الفطر أمراً عادياً: يعلق به طلعٌ كثير، فاذا غسل نما في المكان الذي يجرف الماء الطَّلْعَ اليه، في مدة لا تجاوز خمسة أيام من أيام الربيع بالطبع. لكن، كان في ودّ برينا أن تذكّر أمّها أن مقارنة النبات بالأصابع لا تعنيها. «فلينمُ الفطرُ في يوم واحد. فلينمُ في ساعة واحدة» تقول برينا في قرارها، وتنظر الى أبيها في أسى، مضيفة، في قرارها أيضاً: «إن ما نتحدث عنه هو أصابع آدمية يا أمي . . . أصابع آدمية».

من سيعيد ترتيب البيت؟ زلزلة صغيرة ضربت عائلة عفدي بعد انصرافه الى مترين مربعين لا يتعداهما بمشاغله، في الزاوية التي شغلها، من قبل، صندوق أبي امرأته. لكن تقدير العائلة بأن في مُكْنَةِ جهور ـ أخي عفدي ـ مثلاً، أن يعوّض على العائلة حضور رجل على قَدْرها، وفي أن ما تملكه من جاه لا يحوجها الى سؤال أحد، لم يكن في الحجم الذي تقتضيه المأساة: لقد خلط «جهور» الأمور، فأقعد الحي الغربي وأقامه، واقتضت حال عفدي أن يتم تبذير الجاه في شراء الألسنة عن إشاعة ما يجري، حتى لقد جرى الكَرَمُ، في ذلك الزقاق، جَرْيَ السيول الصغيرة في الشتاء: لكل بيت مؤونة من القمح

تزيد عن خمسة أكياس، وما يكفي ستة أشهر من التبغ، فلم ينطق أحد، بعد ذلك، باسم عفدي إلّا شاكراً. غير أن عفْدي كان منصرفاً الى شؤونه، تاركاً لأخيه الجَهْم إصلاح الظاهر في الأعين الفضولية، أمّا الخفي الذي يحجبه السور فذلك أمرٌ على خللٍ لن تُصْلِحَهُ آلهة الشمال.

دون أسراف في التقديم أو التأخير، نصب عفدي خيمة فوق المثلث الذي شغله صندوق مّـا ذات يوم، وزوّدها بسرير وبإبريق للوضوء، ومن ثم قبع في داخلها لا يخرج قط. ولم يكن من شيء يدل على وجوده إلّا صرخته بين حين وآخر، طالباً تزويده بمقص أكبر، من تلك المقصات التي يشذّبون بها غصون الشجر، ويجزّون الصوف، أو طالباً فؤوساً ومعازق جديدة. ويقيناً، لو جرى حسـابٍ ما دخل الخيمة من مقصات وفؤوس ومعازق، لانصرف الظن الى أن جيلاً من البستانيين يهيء العدة، داخل ظلام الخيمة، لاقتحام المسافة ما بين نهر «جغجغ» والخابور.

هكـذا، ببساطة، كانت صرخة الأب تعلو فيأتي ما هو مطلوب على الفور، فيُلْقَى أمام باب الخيمة الى ان يأخذه عفدي تحت ستار الظلام، ومن ثم تتكوّم، صباحاً، مئات من الأصابع، كقرون البازلاء، خارج باب الخيمة أيضاً، فيأتي من يأتي، في ما يشبه الواجب اليومي، ليجمعها بمنكاش صغير في حفرة أُعدَّت، خصيصاً، لإحراقها.

كل يوم يرتفع النشيش الذي يحدثه احتراق لحم نيء، باكراً، قبل ذهاب أولاد الملاّ واولاد عفدي الى مدارسهم. وكانت برينا وأمها تتناوبان المهمة دون سؤال عن انتهـائهـا. تفكّرتا في الامر لأكثر من اسبوع ثم توقفتا. بذور لا تنتهي. قطافٌ في الصباح ونماءٌ في الليل. تعاقبٌ شيطاني يغري بالاستسلام لا بالسؤال. وحال المرأتين هي حال عفدي تماماً. فقد استبدّ به غضب اخرق بعد يومين من الذهول، واستحال الغضب، من ثم، الى شأن لا يتعدى مهمة أسندها أحدهم الى عفْدي، فاستغرقته.

نعم. ذُهل حين رأى الأصابع أول مرة فقطفها، فنمت في اليوم الثاني، فقطفها. ولما أدرك السخرية التي تلوّح بها الزاوية بين الجدارين مثل ورقة من اوراق المُلْكيَّة الميريّة، استشاط غضباً، فحفر الارض، وردمها، ورش عليها الكيروسين، وخبأ تحت السور بضع ترقوات من ترقوات الاغنام كُتبت عليها آية الكـرسي، وبـال هناك، بل ترك البقرة تبول بدورها، من دون فائدة، فاستسلم. جمع بضعــة مقصـات، ومنـاكيش، ونصب خيمـة فوق مثلث

الزاوية. ثم ألِفَ ما كان يجري في الداخل المظلم كأسئلته فلم يعد يخرج من الخيمة.

كانت العائلة تسمع، في فترات متقاربة من ايام ذلك الإعتكاف، جدلاً تتصاعد وتائره نبرة بعد نبرة. فالجُمَلُ المتقطّعة، أوّل الامر، باتت تتسع وتسترسل، والصوت المضطرب، الخفيض، بات اكثر ثقة ومناورة: «لا يهم. لا يهم. اعرف حدودي» تلك كانت الكلمات الأثيرة في الجدال المحتدم داخل الخيمة، بل تلك كانت لازمة كل انتصار يمكن استشفافه من صوت عفدي الواثق. ولما همّ جهور، مرة، ان يداهم الخيمة ليرى جليس أخيه، اصطدم بستار خشبي ارتفع، خلف القماش الخشن، بإحكام: لقد سوَّر عفدي حدود ظلامه كما ينبغي. بعد ذلك نهت العائلة جهور عن اقتحام «المقام المستور»، مضيفة على خلوة الأب، في رهبة، ما يليق بها من قدسية السّر: «جهور» همست زوج عفدي الى أخي زوجها، ولما مال بعنقه صوبها، دون ان ينظر اليها بعينيه، كما يفعل الرجال امام المحارم بتعفّف ظاهر، أضافت: «احترم أخاك». فهز الرجل الجهم برأسه موافقاً، غير انه خلط الأمور، فأقعد الحيّ الغربي وأقامه.

«أنت السبب». كل مساء ترتفع الكلمات نفسها: «أنت السبب»، حتى لتكاد الخيمة أن تنفجر مللاً. «أنت لا تفهمنا». عفدي يسترسل دون ان يترك لجليسه الخفيّ فرصة للكلام: «أنت لا تفهمنا»، ويدمدم: «لا تعبر دغل الشربين. نحن نفهم ما الذي يخطر ببالك. أخذت اكثر من كفايتك، حتى انك لن تترك لنا إلّا حدود هذه الأسوار الضيقة... إسمع»، وتطرطق الألواح الخشبية داخل الخيمة وقد تباعدت في عبور عفدي، ثم يخشخش قماش الخيمة المنسدل على الالواح الخشبية، لافظاً جسد الرجل الى الظلام. نعم. فيما يشبه الهبوب المفاجىء يخرج عفدي من الخيمة ليلاً، بعد إطلاق كلمة «اسمع»، وهو لا يضيف شيئاً اليها، كأنما يريدها وعيداً صرفاً.

ما من احد يرى عفدي تلك الساعة التي تشغل المكان ذاته من كل ليلة: انها ساعة جدل لا اكثر؛ ساعة ظلام تصغي العائلة اليها في اهمال بعدما كانت تصغي اليها في جدٍّ صارم. الخيمة وحدها تعيد ترتيب الظلام، واللغة، والصوت. الخيمة الملولة تودّ ان تضيف الى الحوار شيئاً آخر. انها ترصد ساحة المنزل نهاراً بكل ذلك العبور المضحك لكائناتها: بشر يتهامسون، او يتشاتمون، والصِّبية منهم يتجاورون ناظرين شزراً بعضهم الى بعض. النساء

مشغـولات بشد الأحزمة على الخصور في قسوة لتبدو ضامرة، والدجاجات تتغامز قبل ان تلتقط النحل في المساحة الرطبة حول البئر، حين يأتي شارباً ما ينسـلٍ من الـدلـو المثقوب. وللظلال شؤونها أيضاً في الساحة، فهي ترسم حدوداً واضحة من حول اشكالها وحجومها، بلون ضارب الى صفرة فاتحة، كأنما تحذّر كائنات الضوء من الاقتراب.

الخيمة ترى هذا نهاراً، وفي الليل تتململ من الحوار الـمُرْبِك، بل تهمّ ان تنكمش فتعلق أطرافها بالسياج الخشبي المرتفع في الداخل، لصق حدود القماش السميك تماماً. «آه عقْدي. توقّف قليلاً عن ترداد هذه الكلمة المملة» تهمس الخيمة لنفسها، أمّا آخر من يستسلم للنوم من العائلة، ويكون شاهداً بأذنيه على الحوار المترجرج في الظلام، فليس في وسعه إلّا الشتم: «أعندك غير كلمة «اسمع؟» لو تختنق بها. . لو يحتبس بولك. . ». غير ان الضجر يأخذ منتهى شكله، متمدّداً برهة بعد اخرى، ويوماً بعد يوم، حتى يقرر جهور أن يملأ كفّتي ميزان الحي الغربي المتذبذبتين بحكمته الثقيلة كصيف الشمال.

«أنت السبب» صرخ جهور وهو يدور على نفسه قرب الخيمة، ويرفع يديه في ضراعة غاضبة صوب الفراغ: «من السبب يا عقْدي؟» شبعنا مِـنْ «أنت السبب». والله لولا اسئلة الناس لأقمت حول الخيمة سوراً يرتفع مائة متر. من معك؟ جننت أنت فما ذنبنا؟ دفعنا الكثير لإسكات الناس»، فقاطعته امرأة عقْدي: «اتكلنا عليك لتصون سمعتنا يا جهور»، فتوقف الرجل المزبد وقد اتكأ بيديه على حافة الجدار الدائري للبئر، ناظراً الى الماء البعيد في القاع، حيث انعكست صورة رأسه على نحو غير واضح.

ما من سبب لينفجر على هذا النحو، وما يتلفظ به لا يعدو ترهات تليق بصبي طائش. انه يدرك هذا تماماً، ويلوم نفسه، في قراره، على تردده الى بيت اخيه كل يوم: «ألاطمئن؟. انهم في خير، وهم يستطيعون الحضور إليّ إذا اقتضت الضرورة». آه جهور. ثمت شيء آخر غير هذا كله يدفع بك الى المـرور بساحة بيت اخيك قبل إكمال طريقك الى بيتك. فضول كالشهوة؛ فضولك جهور، وأنت لا تخفيه، حتى أنك لتود ان تغلق عيني زوج أخيك بحفنتين من الطين لتصرفها عن هذا التعرف الواضح على صورة اعماقك. لا يُخفى عليهـا، ولن يُخفى على أحـد ما تعتمله نظرتـك الى الخيمة. أتودّ أن تحرقهـا؟ أم تُخرج أخـاك الى الضوء، صارخاً به «أفق. الساحة ماتزال هي

الساحة نفسها يا عقْدي»؟ لكنك منصرف الى رغبة ليست هي إحراق الخيمة أو إخراج أخيك.

«أريد أن أقول كلمتين بحق الله» يهتف جهور وهو يمسك بتلابيب ثوبه كأنما سيمزقه. ويُردف: «لي الحق في قول كلمتين»، مشيراً بإصبعه الى الخيمـة، بينما انصرف بوجهه كله ناحية زوج أخيه وابنتها برينا. وعلى نحو مضحك تقتحم ابنة جهور، ذات الأعوام الخمسة، الساحة صوب أبيها، متقطعة الأنفاس، يصحب صراخها نشيج مرير: «بااااا با»، فيتلقّفها الرجل ملء ذراعيه، ناسياً ما به: «إهدأي.. ماذا..»، فتتلفّظ البنت باختناق: «ستخنقني الجن». فيربت جهور على ظهرها: «أيُّ جن يا ابنتي؟ أنا لن اسمح لجن بإخافتك». لكن الطفلة تزداد تشبثاً بثوب أبيها، وقد دفنت وجهها بين ساقيه: «إنها في الزقاق يا أبي»، تقول ذلك بإلحاح من يرى شيئاً ظاهراً تلمسه اليد.

«من تعتقدين ان عقْدي يخاطب بكل هذه الثرثرة؟». سأل جهور زوج أخيه قبل برهة من نفاذ صبره ذاك، فالتفتت صوب الخيمة وقد صالبت يديها على صدرها: «لا أعرف. إنه يقتسم ارض موسيسانا بينه وبين شخص آخر لا يوافقه على كل شيء، لذلك يغضب عقْدي»، واضافت متسائلة: «من أعـطاه الدفتر؟»، فرفع جهور حاجبيه: «أي دفتر؟»، «ذلك الذي يسجل عليه» ردت المرأة، فاسترسل جهور «يسجل ماذا؟»، فردت المرأة ثانية: «ما يسجله التجار. أنت تعرف ما يسجله التجار يا جهور. أنا لا اعرف القراءة»، فحاول الرجل الجهم قَدْر ما يستطيع استجماع معرفته بأخيه فأخفق: «أكان يقرأ ويكتب؟» ساءل نفسه، ولم يكن قد ساءلها من قبل قط، ثم تفرّس في وجه زوج أخيه: «أين الدفتر؟»، فردت: «الدفتر معه. اعتقد انه معه. لم نر غير صفحات ممزقة خارج الخيمة»، فسأل جهور: «وأين هي؟»، «لا أعرف أإحتفظ بها الاولاد ام لا. أريناهـا لهم ولم نستعـدها»، ثم ضيقت ما بين جفونها: «أهي مهمة؟» سألت الرجل الجهم، الذي رفع كتفيه: «وكيفٍ لي أن أعـرف؟ حاولي أن تجديهـا». وقـد دخلت المرأة إحدى الغرف، فعلاً، وغابت لتعود، من ثم، بقصاصة صغيرة جداً: «لم أجد غير هذه. أتعتقد أنها من الدفتر؟»، فرفع جهور القصاصة الى مستوى عينيه. دوّرها بين أنامله كأنما لا يعرف من اين يبدأ. والظاهر، حقاً، انه لا يعرف من أين يبدأ. أيعرف جهور القراءة؟. حين حمل جهور القصاصة الى مستوى عينيه لم يسأل نفسه

قط إن كان يعرف القراءة. «لماذا تغيب عني الامور اليوم؟» يسأل الرجل الجهم أعماقه، بينما تستمر القصاصة منقلبة بين الانامل الخشنة، تعلو حدودُها وتُسْفِلُ.

لم يكن يميز جهور استقامة الارقام تلك اللحظة. ولم يكن يميز وضعها الصحيح امام العين اذا ارادت ان تقرأها، لكن لم يَخْفَ عليه اللون الحائل لقلم الرصاص الذي خطّها. «أليست قديمة هذه القصاصة؟» سأل جهور زوج أخيه، فردت: «هذا ما قاله الاولاد أيضاً. كيف عرفت؟»، فتطلع اليها مستصغراً ولم يجب.

أكان هذا السؤال الساذج سبباً في انفجار جهور، الذي كاد ان يداهم الخيمة في لحظة حنقه؟ لا يهم ذلك الآن، بعدما تشبثت ابنته بثوبه دون ان تهدّىء نشيجهَا كلماتُه التي تفوّه بها. وقد رفعها عن الارض قليلاً بذراعيه، هامساً في حنوٍّ: «تعالي لنرى. تعالي، سأجعل الجن تقبّل يديك»، وخرج بها الى الزقاق.

حُـمّى طائشـة كَذُكَـر الإوزّ دحـرجت كرتها الثقيلة، مصطدمة بكل شيء. البنت الصغـيرة تشـير بإصبعهـا في دلال يعلو خديها برهة بعد برهة فيتورّدان، والاب ينفّذ دون مساءلة. سباق بين بطش رجل وشهوات طفلة. «هذا يا أبي. هذا جني»، وتشير الى أحد الأبواب في الزقاق، فيصدمه جهور بكتفـه حتى يتخـلَّعَ إطاره، وتتشقق القشرة الطينية من حوله في سور هذا المنزل أو ذاك. تقول الطفلة: «هذا جنّي» مشيرة الى أيّها نافذة فتهرّ النافذة تحت قبضتي الـرجل العمياوين. «هذا جني» وتشير الى عنزة كسولٍ تقتطف نبتة كسولاً لصق أساس سور ما، فيضرب بها عفدي ذلك السور بعدما يمسكها من قائمتيها الخلفيتين.

كلّ ما في الـزقـاق جنٌّ او نسل جنٍّ. وطاعة الأب غير المحدودة في سكرته الخفية المحمومة تُسْلِمُ الطفلة الى هذيان سلطتها. فهي تزداد براعة في إشاراتها ثانيةً إثر ثانية، حتى أنها باتت تشير باليدين معاً، الى أشياء وكائنات في جهـات متنـافرة، كأنما تريد حصاراً أعظم لا يفوته الزقاق، والبيوت في الزقاق، والسماء التي تعلوه، ولم يبلبل ذلك من قدرة الأب على متابعة اليدين الصغيرتين في شيء. انه يطيح ببابين معاً؛ بشباكين معاً؛ بدجاجة وبجدار معاً؛ بحيوان شارد في الزقاق وبالقصب الذي أكمل به بعضهم أسواراً غير مكتملة، معاً؛ بالريح وبالظهيرة معاً.

أبٌ يمتحن أبوّته بمدىً يليق برجل جهم مثل جهور، لكنه يكاد ان يستعيد، في مضائه الأبكم، ثانيةً من حكمة الانسان في أن يعي حدوده، ثم يجاوز ذلك، عائداً، كرّة اخرى، الى امتحانه الاعمى لأبوّته العمياء. لقد أشارت ابنته، فجاءةً، الى شجرة الكينا الضخمة التي قسمت سور منزل «ابن بَسْنَهْ»، فتوقف برهة، ثم اقتحمها اقتحاماً، فارتج جسده على جذعها. عاد أدراجه مترنحاً وأهوى بثقله عليها ثانيةً، فارتج كقرص جبن تخثّر توّاً.

كانت الظهيرة تنسل لتفسح مكاناً لعصر ذلك النهار آن ارتدّ جذع جهور عن جذع شجرة الكينا للمرة الأولى، وقد توالى الامر، من ثمَّ، بحسب ما رأى أهل الزقاق كلهم، حتى الشفق، فانصرفوا بعد ذلك والرجل على حاله: يتراجع عن الجذع ويهوي عليه بكلّه. يترنح قليلاً، ويستقيم بعد الترنح متراجعاً، ليأخذ جسده المقذوف صوب الشجرة ثِقَلَهُ في المصادمة.

وحدةً، كالزقاق المستوحد وسط تلك الكائنات التي أوَت الى ما وراء اسوارها، طوقت جهور، وابنته، والشجر، في مشهد لا تضيئه الا قناديل مختنقة من فوق سطوح البيوت، فالذين انفضوا عن الحلبة الضيقة، وأنهوا عشاءهم في اول الغسق، عادوا الى مراقبة الرجل الجهم من السطوح، وهم ينكشون اسنانهم بما اقتطفوه من القش الرقيق في مكانس الخرنوب. وكان واضحاً ان ما من امرأة، او رجل، او طفل، ينتسب الى عائلة «ساري»، يشارك المشاهدين، الذين ضيقوا ما بين اجفانهم في الظلام، ما يشاهدون. فلقد غاب عن المشهد، على نحو يستعصي على التفسير، نسل عقْدي ونسل جهور معاً، والحاضر الوحيد كان ابنة الرجل الجهم، التي ما فتئت تصرخ ملء وَدَجَيْها، وهي تشير الى شجرة الكينا: «انه يقترب يا ابي. الجني سيأكلني»، وكانت الصرخة تلك كافية، بالطبع، لأن يستمر جهور في استغراقه العنيف ضد الشجرة مائة عام. وبعد وقت عادت الطفلة ادراجها الى البيت أيضاً، تاركة لأبيها وحده ان يحاصر الظلام بلهاثه المتقطع. اما من كانوا يراقبون، من فوق السطوح، فقد نزلوا السلالم الخشبية ذاتها التي ارتقوها، بعدما نهروا عن بعض أدراجها دجاجات رقدت خلسة فوقها، وكادوا ان يطأوها بأقدامهم في الظلام.

لم يكن عادياً ليل ذلك الزقاق في الحي الغربي: كان الفحيح الأخرس لرئتي جهور المتعبتين يكشط القشرة الطينية لجدران البيوت كمنكاش حديدي. أما صدى ارتطام جسده بالشجرة، حتى الصباح، فقد قسّم احلام

النـائمين، حتى اكثرها جمالاً مثل حلم «عِزْنا حَمّو»، تاجر الغنم، بحصّادة «جون دير» الخضراء الملتمعة الإلهية، الى مقاطع يرفع فيها النائم رأسه لاعناً شجرة ابن «بَسْنَهْ»، أصلها وفصلها. وفي الصباح التمّ لفيف غير فضولي حول الشجـرة من أهل الحي، والدليل على عدم فضولهم انهم كانوا ينظرون الى جهور وهم يتحدثون عن أمر ما يخص الحكومة، و«عنّود» البدوية التي ترتدي زي الـرجـال وتتمنطق بمسدس، والثكنة العسكرية لصق الحدود التركية، وسرقة سوق «صاغة الذهب» في الحي اليهودي، وكان لابد من أحد لم ينصرف الى ما انصرفوا اليه ليعيدهم الى المشهد، وهذا ما حصل بوصول عائلة جهور كلها، وعائلة أخيه عفدي وأولاد الملاّ: الصغار، مع تفاوت اعمارهم، ظلوا خلف الكبار، متلصصين من كل ثغرة بين جسدين، اما الكبار فتقدموا اكثر مما ينبغي، بحسب رأي بعض الحاضرين، اذ حجبوا عنهم ما يريدون رؤيته من آخر احوال جهور الجَهْم.

كيف غاب عن الحاضرين، حقاً، أمر الشجرة التي انهار جهور جالساً تحتها؟ ما من حديث، حتى أشدّه إحاطة بحادثة قتل القائمقام، كان يمكنه ان يُغيِّب ما يُرى، لكن عماوةً صرفت المتحدثين الى ترّهات شؤونهم، كأنما قُيِّض للشجـرة، وللجالس النازف من منخريه لصقها، أن يبقيا في المشهد اكثر، حتى يستنفدهما من لم يتأمّلهما بالقدر الذي يقتضيه مشهد كذاك. وقد تـتـابعت شهقـات الـدهش، بعد ذلك، على نحو كالعدوى. «أوه» تتبعها «أووه» ويداً تلو يدٍ تحركت اطـراف الحاضرين الى الأفواه لتحبس الحروف الصوتية الزائدة من شهقاتها، هكذا، بانتظام يديره ملقِّنٌ مستور.

كانت الشجـرة التي تهاوى جهـور قرب جذعها قد أكملت تدرّجها اللوني، واستسلمت، من حالٍ نباتيةٍ، إلى كمالٍ صلدٍ، حين تلقّف بعض النساء من آل «ساري» الرجل المضعضع من منكبيه وسوّينه جالساً يتكىء عليهن، ثم خطفنه خطفاً من وسط المنصرفين الى ذهول يشوبه تَفُكُّهٌ صريح في العيون، كأنما سيُقْبلون، بعد قليل، على قهقهة ستحرق الرئات. إيْ، بما لا يختلف فيه اثنان، اتّخذت الشجرة لون الكهرمان الأصفر الناصع، وصلابته كحجر. التشققات في اللحاء باتت على كثيفٍ برتقاليٍ، والورق كذلك، إنما بشفافةٍ تشرِد اللّونَ قليلاً.

لم يبارح المكان غير بعضِ آل ساري الذين واكبوا الـجَهْمَ، اما من تبقّى من اهل الحي فلم ينصرفوا إلاّ عصر ذلك اليوم، بعدما استبد بهم الجوع،

وجفت حناجرهم من الكلام، فظلت الشجرة وحدها، مضيئة بهيبة، في المفصل ذاك من سور ابن بَسْنَةْ، وإذ أرخى المغيب نسجه المتشقق على المكان، أرخت الشجرة أسرارها: الورقة تُفْسِحُ للورقة مكانها: انتقال متناظرٌ كاستبدال صفوف من الحرس بصفوف اخرى: شبكة حيّة من الخطوط المتوازية والمتقاطعة إذا نظر الناظر الى الشجرة من الفراغ العالي، ومجرّاتٌ صغيرة، كسرب غامر من الحباحب، توزِّع الظلامَ أقاليمَ أليفةً اذا نظر الناظر من سطح بعيد. غير ان مساءلات موحشة كانت تجري في مكان محاط بجدران، وبسقف، على مبعدة فرسخ واحد من المشهد الذي شطر تاريخ الحيّ الغربي برمته: «اتسمعنا يا جهور؟»، وكان جهور، الذي جف الدم على شاربيه، يدير وجهه في السائلين بتعب ثقيل، مومئاً برأسه إيجاباً. «ماذا جرى؟»، فيكتفي الرجل بإطراقة تعلو فيها عينيه مسحةٌ من ابتسام، كأنما يقصد السخرية من جهلهم، وإذ يهمّ، للمرة الاولى، ان يقول شيئاً ما، تقع عيناه على طفلته التي القت به في أبوَّته الـمُسْكِرة، فلا ينطق، بل يشير اليها لتقترب، ومن ثم يحتضنها هامساً في تأتأة: «أرأيت؟ أرأيت؟».

باتت برينا، على صغر سنها، في الشهر الذي تلا ذلك، تدير الامور في صرامة رجل، مثلما علّم الأب العائلة كلها ان تكون. اخوتها، وأولاد عمها جهور، معاً، اكثروا من التشبه بالأسياد، وهم ينفخون دخان لفافاتهم في ساحة البيت، متباهين باستئثارهم غير المُقْنع بسلطة غير مقنعة. خيمة الأب ظلت هناك، وظل الوافدون، الذين ينقلون التبغ عبر الحدود، يؤدون ما عليهم، داخلين بعيّنات، خارجين بعيّنات، دون الحاجة إلّا الى توجيه صغير من برينا يتعلق بتسديد المبالغ نقداً، أما الباقي فهم أكفل به.

لم يتغير، في الواقع، شيء من امر العائلة، برغم انصراف جهور الى صمت مطبق بعد حادثة تحوّل الشجرة، وقضاء معظم وقته ذاهباً آيباً أمام سور ابن بسنة، وهو يتفرّس في العابرين باتهام صريح في عينيه. وقد شاء «كرزو»، ابن الملّا بيناف، وسط ذلك الإختلال في موازين العائلة، ان ينصرف الى دعابات لو التقطه اولاد عفدي، او جهور، متلبساً بها، لفكّكوه، كأمشاط حصّادات القمح الآلية، مفصلاً مفصلاً، لكنه خادعهم بقناع الرزانة الذي ارتداه، وهو يسير جنباً الى جنب مع جهور، لصق السور، طوال النهار. فهم ظنوه حامياً للرجل الجهم من قالةٍ تسمعها الآذان، او من فكاهة تُعيِّرُهُ بصمته وشروده. اما هو، كرزو، ذو الرأس الحليق حتى الجلد، حيث لم تبق

إلّا غرة دائرية منسدلة من مقدمة الرأس على الجبين، كعادة أهل الحي الغربي في الحـلاقة لِصِبْيَتِهِمْ، فكان يقيس خطواته بخطوات جهور خلسةً، عاقداً يديه خلف ظهـره على نحـو مضحك. وكان يلتفت، بصرامة تهريجية، الى الرجل، هاتفاً: «خالي» (درج اولاد الملاّ على تلك الصفة في مناداة عم زوج أبيهم)، فيلتفت الصـامت الجهم قليلاً، ثم يرجـع الى شروده بينـما يكمل الصبي: «اهتز اساس بيت الحاج شكري وانت تنطح الشجرة. لو اطلت ساعـة اخـرى لانهار»، وينظر الى وجه الرجل ليرى تأثير ما يقول، مُرَقِّصاً حاجْبيه المتفكهين. «اصفرت الشجرة من كثرة ما تبوّلوا حولها»، قالها فتوقف جهور، مطيلاً النظر من تحت حطته المعقودة على رأسه كعمامة مائلة، الى وجه الصبي الذي توقف بدوره، ولما تزل يداه معقودتين خلف ظهره، ثم انصرف ببصره، بغتـةً، صوب الاوراق العـالية، في بلاهـة، وأكمل مشيه المتزن، بحسب طول السور، ذهاباً وإياباً، فأردف كرزو، الذي مشى المشية ذاتها، دون تقدم او تأخّر، كأنه ظل الرجل الجهم: «أتعرف من يسكن مع جدي عفدي تلك الخيمة؟ ها؟»، ووضع احدى يديه وراء أذنه ليلتقط كلاماً خافتاً لم ينطق به عفدي قط. «ها؟ ها؟»، تمتم في هيئة من يمثّل سماع صوتٍ ما. «ها؟ أووه. ذلك هو»، واستمر ماشياً الى جوار جهور الذي لم يتوقف.

«هو. هو. نعم يا خالي». كان كرزو يكرر الكلمة، مضيفاً اليها بعض الشهيق، والصفير، والتأوّه، والنحنحة، كمن يؤكد شيئاً يعرفه الآخر، لكنه يتجـاهله. وكـان جهور يلتفت، بنظرة الاتهام البليدة ذاتها، الى الصبي، متوقفاً، ويكمل مشيه، بعد ذلك، على نحو آلي اكثر تبلّداً من نظرته. بيد ان كرزو يمضي في طيشه: «اصابع جميلة»، ويرفع اصابعه المنفردة، ناظراً اليها: «اصابع مثل... مثل»، ويتوقف ليشرح شيئاً ظن ان جهور لم يفهمه: «لا اقصد اصابعي، بل الاصابع التي تنمو تحت خيمة جدي عفدي». ويضحك في خبث مغمضـاً عينيه. «نعم يا خالي»، ويتـوقف الـرجل الجهم بدوره، فيضيف كرزو: «لقـد سرقت بعضاً منها»، ويلتفت من حوله ليرى ان كانا وحيدين في الزقاق، ولما يتأكد له ذلك، يقول لجهور: «هات يدك»، ويمسك بيد الرجل المتبلّد، الذي لا يحرك ساكناً، فيفتح قبضتها، ثم يدس فيها شيئاً داكن اللون، يابساً، فيتفرّس فيه جهور قبل ان يلقي به، ناظراً نظرة الاتهام الأبدية، ذاتها، الى الصبي الذي يكمل، وقد جاراه في مشيه الوئيد المُحْكَم كمشي البنائين يخمّنون المساحات تخميناً: «والدجاجات سرقت بعضها ايضاً.

رأيتها قبل ان أتمكن من إحراق ما تجمّع منها خارج خيمة جدي عفدي. رأيت الاصابع في مناقيرها، وكنت إذ أكُشها تبتلع الاصبع بطوله وعرضه، وهي هاربة. والله...»، وتطلع الى جهور على نحو جادٍّ، أول مرة: «ستنبت تلك الاصابع في بطوننا. ألا تعتقد ذلك؟ أكلنا الدجاجة ذات العرف المشطوف، والاخرى ذات الريش الازرق في الجناحين، وكلتاهما ابتلعتا إصبعين»، ونظر الى يديه متسائلاً: «لماذا هي داكنة زرقاء؟»، مُلمّحاً الى الاصابع التي يراها خارج الخيمة، بالطبع، ومن ثم ارخى يديه وقد اخذه مشهد الشجرة التي باتت ترسم ظلاً اصفر على ارض الزقاق: «يا خالي»، وشدَّ جهورَ المستغرقَ في مشيته من حاشية سترته المنسدلة على قفطانه المخطّط: «ماذا فعلت بالشجرة؟»، وأردف: «سأطفئها»، ثم ركض الى جذعها مشمّراً عن قمبازه، رافعاً احدى ساقيه كما يفعل الكلب حين يتبوّل... وتبوَّل.

لقد وهب جهور اعماقه الى شيء اخر، وظل بشكله ـ طولاً، وعرضاً، وجهامةً ـ سلطان الزقاق، موكلاً شؤونه، دون قصد منه، الى كرزو. وكرزو سيغلق الزقاق، وسماء الزقاق، اذا استطاع: «أسلخت، حقاً، فرج زوج سطامو؟ فلنسلخ فروج نساء هذا الحيِّ. ستخشخش حين تجفّ، وهي معلّقة الى حبل بعرض الزقاق يا خالي»، ويمد لسانه في وجه جهور الصامت، الذي يلجمه سلطانه الاكثر اتساعاً مما يحلم به رجل قط: «اغلقت بوابة سور ابن حَمْكي عليه وعلى عائلته شهراً؟». نعم. لم يقلها جهور الساهم، لكن «نعم» كانت ملء تاريخ الزقاق، فقد سدَّ الرجل الجهم بوابة ابن حَـمْكي، حقاً، بالطين، بعدما نُمِيَ اليه علاقة هذا الرجل بسطّامو الواشي، وتهدّده بالموت اذا لجأ الى اية حيلة لإنقاذ نفسه وافراد عائلته، فقضى ابن حَـمْكي شهراً وراء جدران السور. واذ توسط المتوسّطون لدى جهور، فعفا باطراقة لا همس لكلمة فيها، كانت عائلة المحكوم عليه قد أتت على كل شيء في ساحة بيتها: الدجاج، وورق العريشة، والبقرة، والسحالي السمينة تحت اعمدة السقيفة، وبعض قشرة السور الطينية، في محاولة لاجتياز السور ربما. ويسترسل كرزو: «تعال نسدَّ الزقاق يا خالي»، وهو يقيس الارض، بخطواته الصغيرة، في صرامة لا عبث فيها، مُرْدِفاً: «تعال نسدَّ بوابات الاسوار في هذا الحي يا خالي». وتنتفخ اوردة رقبته فجاءةً: «ماذا سيفعلون؟ ها؟. انا اعرف. سيحفرون ثغوراً تحت الاسوار، مثلما يفعل الخلد يا خالي. سيخرجون في الليل، وسيردمون الثغور في النهار تمويهاً»، ويعترض جهورَ بجسده في محاولة

لإقناعه بمقدرته: «فلنملأ الزقاق بفخاخ الثعالب. هذا الحيّ ملكنا. الا ترى كيف تضيء الشجرة كل شيء؟».

لن يثني جهورَ شيءٌ عن رواحه ومجيئه امام سور ابن بسنة، حتى انضمام حشمو اليه بفخاخ لا تخطىء حقاً. اما كرزو فسيرتد عن المشهد قليلاً، بعدما بلغ الضجر منه مبلغه: جهور لن يتكلم. جهور بغل. والبغل الآخر هو حشمو، مذ اطلقوا سراحه. ضجرت الحكومة منه فأطلقت سراحه. فشلت وساطات عفدي حيث نجحت البلاهة. حشمو أبله. ضيّع الشرطةَ بينه وبين اولاده: «انا نصبت الفخ. لا، اولادي نصبوا الفخ».

لم يعد من متسع لطيش كرزو وسخريته. حشمو دخل الزقاق بصرامة ما عرفها تاريخه قط. جاءت به سيارة الشرطة «البيك آب» وانزلته امام بيته المهجور، فاستند الى السور المهترىء وقد وضع حوائجه على الارض. دار بعينيه شمالاً ويميناً دون تعيين، ثم حمل الصرة ومشى الى حيث يقع بيت عفدي وبيت اخيه جهور. انزل صرته عن كتفه تحت الشجرة الكهرمانية، وقرفص مستنداً بظهره اليها، ناظراً الى كرزو والرجل الجهم دون ان ينبس بكلمة. وعلى مدى ساعتين عاده البعض وانصرف عنه البعض: «كيف؟ اين؟ اين الاولاد؟ متى؟». الخ. اسئلة عابقة بتطفل لم تعن الرجل شيئاً، وكان أبعد، حقاً، عن ان يعرف اين اولاده، ولماذا اطلقت الشرطة سراحه، واين سيمضي. لكن ثمت رائحة شدته الى المكان ذاك، كأنما أعدّته الحياة، بإصرار، على القيام بالامر على نحو محسوب: يجلس تحت الشجرة اولاً، دون ان يترك لكرزو فرصة لتحويل حضوره الى سخرية. ينظر، ثانياً، الى الوجوه من غير ان تطرف عيناه. يأمر كرزو، ثالثاً، بكلمات لا ينطق بغيرها بعد ذلك، ان يحضر رفشاً وسطلاً فارغاً، اضافة الى الفخ ذاته الذي يحتمل ان يكون قد بقي مهملاً في ساحة بيته منذ ماتت خاتي. وحشمو لا يعرف ان كانت الساحة بقيت مهملة ام لا، منذ غادرها في سيارة الشرطة، غير انه، على النحو الذي لقنته الحياة لحظات حضوره في الزقاق، استشعر من هواء الساحة، حين استند الى السور بعد مغادرته السجن، أنْ ما من احد مرّ بالجوار ذاك منذ صباح الثلج الذي لا يُنْسى. وقد عاد اليه كرزو بما طلب، كأنما اخذته نبرة صوت الأبله بسلطانٍ لم يجده في صوت احد. واذ القى بها بين يديه تمتم متهيباً: «أولادك عند عمي مهمد. أأدعوهم يا حشمو؟»، فرد الأبله بتباطؤ

بارد: «نعم، بعدما أُكْمِلُ هذا»، واشار بإصبعه اشارة حصرت الزقاق كله، أفقياً.

رويداً رويداً كان سور طيني يعترض الزقاق. سورٌ يعلو من الجبلّة التي يعجنها حشمو بماء سطله وبالتراب الذي ينكشه بالرفش من الارض. وقد بدا الامر حماقة مضحكة في البداية، ولكن سكان الحي عادوا مذهولين حين رأوا السور، في اليوم التالي، اعلى من ان يقفزوا عنه. وكانوا يزنون الامر كله بميزان قدرتهم على هدمه اولاً، أو أن يشكوا حماقة الرجلين اللذين يسدان الزقاق الى القادرين فيضعوا للمهزلة حدّاً، بيد أنهم فوجئوا بإصرار حشمو على المضي سريعاً في البناء، وبالتهديد الواضح في عيني جهور الذي بات يعبر عرض الزقاق على عجلٍ ينذر بفورة لن يعلم مداها أحد. كما فوجئوا بأمر آخر لم يسائلوا نفوسهم فيه: الى من يشتكون؟ الى عفدي؟ انهم يحسون انكساراً غامضاً يتبدى في تحديقهم في الرجلين دون الاقدام على شيء. ويكادون يسألون: منذ متى سيطر هذا الفراغ، الذي لا سلطان لأحد فيه، عليهم؟ لكنهم يتجاهلون السؤال، عن قصد، لما فيه من ضربة تحيل أعماقهم الى قِرْبَة لبنٍ تخضّها مائة يدٍ.

هكذا، فجاءةً، يقف أهل الحيّ واجمين أمام سلطة جهور وحشمو. وحينما يكتمل اغلاق الزقاق من جهتي الجنوب والشمال معاً، يعمدون الى فتح بوّابات لهم في جهتي الشرق والغرب، بطريقة يحمّلونها الكثير من المرح، ومن التفاخر بذكاء لا محل لإعلانه: «فليقفلا الشارع، وسماء الشارع، وليبقيا هناك الى الابد سنمضي من الجهة الاخرى»، وقد بقي الرجلان حقاً: جهور يقيس الزقاق الذي يتوسط عرضه السوران، من اوله الى آخره، وحشمو ينصب الفخ الحديدي الضخم، كل ليلة، امام بوابة احد المنازل، بالتسلسل، عسى ان يخالف مخالفٌ حكمةَ عزلتهما، فيتصيّداه.

البيوت متصلة على طول الزقاق، من الجهتين، كما هي حال بيوت الحي الغربي بعامة، بحيث يستطيع شخص، او حيوان، ان يعبر المسافة كلها متنقلاً من سطح الى سطح، وكانت ثمت فواصل لا يؤبه لها، ويمكن مجاوزتها بقفزة صبي، تماماً مثلما يفعل كرزو الذي يرفع جلبابه الى ما فوق ركبتيه، ثم يعبر الفجوات. وكان كرزو يستطيع، على هذا النحو، ان يرصد الزقاق الذي سده جهور وحشمو من جهة، وان يشهد، بخطوات قليلة، متسارعة، الزقاق الغربي الموازي للزقاق المسدود، من جهة اخرى. ولقد بدا له المشهد كله،

من فوق، على قدر كبير من الفكاهة، حتى لم يعد يبارح المكان الا ليعود اليه، ملقياً بظله الى هنا او هناك، بحسب ما تميل به الشمس. وكرزو مأسور بأن يسدد ظله، كرمية حجر، الى منتصف اشياء الزقاقين، مبتعداً او متقدماً، مائلاً الى اليمين، او الشمال، متطاولاً على اصابع قدميه، او مُشْحنياً جذعه، كما يفعل معماريو البيوت اللَّبنيَّةِ وهم يقوِّمون بخيوط القنّب استقامة الجدران. انه يُسْقِطُ ظلَّه على نافذة هنا، او دجاجة هناك؛ على طفل او شجرة؛ على باب او على حجر. مغتبطاً بهذا الاتساع الذي يحسه، اول مرة، لحدود جسده الصغير، غير ان غبطة اكثر سرّاً وسطوة كانت تتسلق صدغيه في دغدغة كدغدغة الريش، وهو يلمس بظله الاشياء كأنما أنامله هي التي تلمسها، فيستغرقه الامر، منزلقاً على أوراق شجرة الكينا الكهرمانية، وكيزان الذرة في ساحة بيت «مردان»، والنافذة المستورة بشبكة سلكية في بيت «جومرد»، والمدحلة الحجرية فوق سطح بيت «كرمو». وكان اكثر ما باغته في نزهته الغريبة ذيلُ تيس يسير الهوينى، حتى لقد بدا له ان ظله، ذاته، كان شارداً فأيقظه ذيل التيس، باهتزازه. «يا الله» يتمتم كرزو بعثوره على هذا الامتداد الذي يشكله ظلُّهُ لأعضائه، ويتمنى استقرار الشمس على الشروق، او الغروب، من دون غيرهما، ليتسنى له أن يتحرى الزقاق المسدود كله، او الزقاق الواقع الى غربي الزقاق المسدود.

كان ثمت بوابتان فقط، قد أُبقي عليهما مفتوحتين على الزقاق المسدود: بوابة بيت عقْدي، وبوابة بيت جهور، برغم ان عائلتي الرجلتين اضطرتا، أسوة بالحيّ، الى فتح بوابتين لهما على الزقاق المجاور، غرباً. وكانتا تمدّان جهور وحشمو بالزاد، وتتركان لهما، بعدئذ، استيطان ذلك القبر الطويل، كما درجت برينا على تسمية مملكتهما. لكنهما كانا حيَّين، في الفراغ ذاك، كأكمل ما يكون الحيُّ: فحشمو، اذ استعصى عليه تصيُّدُ أيٍّ من سكان الحي الغربي بفخه، يومىء الى جهور، على نحو دوري، ان يقترب من الفخ، وقد بلغت البلاهة من حركاته مبلغها، بعد وقت بدا فيه حكيمًا، وجهور يتمنّع، وهو الصّامت، بإشارات من رأسه، فيحاول حشمو القاء الرجل في الفخ بدفع من يديه، فيتعاركان دائرين حول الفكين الحديديين، وقد أغبرت أطراف جلبابيهما.

كرزو يلتهم المشهد التهاماً من مَكْمَنِه على السطوح: الغبار الذي يعلو على أثر عراك الرجلين لا يعلو سوى متر، ثم يهدأ على اكثر الاجسام قرباً اليه.

واذ يهدأ الرجلان، بدورهما، بعد كل عراك موزون، ومتعاقب بانتظام لا خلل فيه، يمضي حشمو الى الجهة الشمالية، بخطوات متسارعة، كأنما هو على موعد، بينما يلتفت جهور، في مكانه، بنظرة الإتهام ذاتها الى اعماقه المَشُوْفَةِ كأرض الزقاق، قبل ان يستقر جالساً تحت الشجرة الكهرمانية التي تتوسط سور ابن بسنة.

لقد بات جهور يقضي معظم وقته جالساً، على غير عادته منذ انقلاب الشجرة، بينما احتل حشمو بهرولته الزقاق كله رائحاً غادياً، يستطلع في ذلك الفراغ الترابي حلمه الأكمل الذي ينبض كشعاع فوق المعدن الملتمع لألف فخ، متين متجاور، رُبطَتْ سلاسلها الى اوتاد حديدية حتى لا يبتعد بها اكثر الفرائس قوة قيد أنملةَ. لكنه كان يتوقف في آناء قليلة، محدّقاً في الرؤوس الصغيرة التي تسرق النظر اليه من بوابة بيت عفدي، ثم يكمل هرولته، هامساً: «سترون. . سترون». ولم يكن وعيده هذا موجّهاً الى غير اولاده هو، الذين باتوا يستأذنون خالهم مهمد لرؤية والدهم، مرة في اليوم، من البوابة التي لا يفتحونها اكثر مما تسع لمدّ أعناقهم خارجاً. لكنهم كانوا متفكهين، لا فضوليِّين، برغم مشهدهم المتلصص الذي يوحي بذلك، وكانوا يهمسون، بدورهم، إثر مرور والدهم بهم: «سترى يا خصية القنفذ»، وهم يلوّحون بأيديهم المفتوحة في وجهه.

إن كرزو يمنع اولاد حشمو من تسلق السلالم الى السطوح، لذلك يكتفون بمرصدهم من البوابة، بينما يستأثر، هو، بانتشاره غير المحدود على رقعة الزقاقات وما تضمّه. ولشدّ ما استرسل في تملّكه للسطوح حتى غدا مُرَّاً هائجاً يمنع حتى الدجاج من بلوغها، وبات غائر العينين بعمق كأنما يخفي في محجريهما ما يضيق به الحيُّ كلّه: «برينا» يهمس كرزو الاسم، وقد درج على مناداة زوج ابيه باسمها مثلهما مثل صديقين، فتتفرّسه المرأة وهي تستشعر رنيناً غير عادي في همس صبيِّها: «هات يا روحي» قاصدة ان يفصح عما يريد، فيطأطىء الصبي متمتماً: «لماذا لا ننتقل الى الزقاق المسدود؟»، فترفع برينا كتفيها تساؤلاً: «ولماذا ننتقل اليه؟»، ثم تردف في ما يشبه دعابة كئيبة: «لنسقط في فخ حشمو؟»، فيزداد كرزو طأطأة، ويزداد صوته رصانة: «أتريدون ذلك أيضاً؟». فتستوضحه برينا: «نريد ماذا؟»، فلا يرد كرزو، بل يرفع رأسه متطلعاً اليها في أسى.

لقد كانا صديقين، ودرجا على ان يبحثا الشؤون الصغيرة، بعامَّة،

معاً، مذ اختفى الملاّ بيناف. وكانت برينا تستأنس به، ويستأنس كرزو بها، متواطئين، دون تصميم، على تعويض ما فاتها بقَدْرٍ مُفْتَضَحٍ لا تخطىء العين لعبته: هي أمه، وهو زوجها. ولربما اختلطت الامور قليلاً فعاتبته برينا على اهماله، كصبي، هذا الشأن او ذاك، لكنه كان يرد الصاع صاعين على سلطة انوثتها الضيقة، منجزاً ما تطلبه منه في صمت، فتضيق المرأة أيّما ضيق بصمت الصبي المتعمَّد فتسترضيه، برهة بعد اخرى، حتى يلين، ثانيةً، تحت طرقات انوثتها التي تهز أعماقه أولاً، فالساحة، فخيمة أبيها، فالسور، فالبوابة، فالزقاق، فجلبابي حشمو وجهور، فالسور الشمالي، فالجنوبي، فالشجرة الكهرمانية، فالحيَّ الغربي كلّه، من المسجد الصغير حتى سوق الجزارين.

أنوثة كوسوسة الريح بين أوراق الذُّرة العريضة؛ وهمس بين الصبي والمرأة كأشدِّ ما يكون الهمس إحكاماً ورنيناً: «تريدون ان تكونوا. . .»، ويكمل الصبي بعينيه ما لا يطيق إكماله بلسانه، فتستوضحه المرأة من جديد: «ماذا نريد ان نكون يا كرزو؟». فيغمض الصبي عينيه في عصبية، ثم يلطم بيديه على جبينه دلالةَ انفعال مباغت يضاف الى انفعال مُسْتَحْكِمٍ: «اما من احد رأى ذلك بحق الله؟»، واذ يرى زوج ابيه حائرة في لغز كلامه، يمسك بيدها وهو يكاد يجرها جرّاً: «تعالي. تعالي»، ثم يصعد بها السلَّم الى السطوح.

من حقِّ عيني كروز ان تكونا غائرتين هكذا، حتى لا يتوضَّح أهما هازلتان أم آسيتان. وقد استشعرت برينا، لبرهة عابرة، ان عينيها تزوغان عن الخارج المرئيِّ فترتدان على أعماقها، إذ ما من خيال يستسلم، واضحاً، هكذا، بيِّناً، صلباً، مفصّلاً تفصيلاً، كما يستسلم مدى الزقاقين: المسدود وما يجاوزه غرباً، بحكم انها لا تستطيع ان ترى غيرهما من السطوح المترامية. وكان كرزو ينظر الى وجهها، لا الى ما تراه، مبتسماً في تدرُّج، بحسب انقلابات وجه المرأة، التي باتت تتنقل، شبه متضرعة، من جهة الى اخرى، كأنما تقارن بين مشهد ونظيره، آملةً، بحركات يديها المتوسلتين، ان توقف الواقع المتخبّط في هذيانه. لكن المرئيَّ كان يترقرق، كجدول، تحت المرصد العالي، حيث تقف المرأة والصبي، والسماء، معاً، متتبِّعاً سلطانه على الأشكال.

يقول كرزو، في عرضه المقتضب للمسألة: «الزقاق المسدود يحفظ لرؤوسنا أشكالها، كما هي. اما الزقاق الآخر. . .»، وتضيف برينا: «ليس

الزقاق الآخر، وحده، بل الحي الغربي، برمَّته، يا كرزو»، وتهمس في تأكيد مرير: «الحي الغربي برمته». اذ ذاك يرى الصبي في كلامها ما يشدّه الى تكرار عتـابه السابق: «أتريدون ان تكونوا مثلهم؟ فلننتقل الى الزقاق المسدود»، وكأنما يستحكم العياء بالمرأة فترخي كتفيها، وأهدابها، معاً، في حيرة ثقيلة.

لا يعرف أحد، بالطبع، من ذُهل، أوّل مرة، حين رأى ظلال الرؤوس المنعكسة على جدران البيوت، او السائرة قرب اشخاصها على الأرصفة. غير أن امْرأً مّـا شَهَقَ، في هذا المكان او في ذاك، مشيراً بيده الى ظله، او ظلِّ غيره، بعدما ظن المسألة فكاهة، لوهلة عارضة، ثم استدرك انه يقظان، وأنْ ما من احد يمازح أحداً: لقد انعكست ظلال الرؤوس، في الحي الغربي كله، انعكـاسـاً اتخـذ هيئـة رأس كلب. واذ يتحسّس المتحسّس حدود هامتـه، ويلمسهـا آدميةً كما أَلِفَها، ثم يرى ما اتخذ ظلها من شكل، يصاب بدوار خفيف، وبإجفالة تدحرج كُرةً صغيرة من الشوك على مدى العمود الفقري.

كانت زُمَرُ الناس تتحلق أمام البوابات، تفصل أمتار قليلة بين الواحدة والاخـرى؛ وكـانت ككـرات من الـزئبق تُلْمَسُ فتتجزّأ، ومن ثم تتجاذب لتتحّد، فتُلمَس، ثانيةً، فتتجزأ. زمرٌ تضيّقُ الحلقات، وتوسّعها، في جدالها العصبي، متلمّسـة رؤوسهـا، ناظـرة الى الـظلال الكلبية على الجدران او الـتراب، تأخـذها نوبة من تَفَكُّهٍ أسود حيناً، مقهقهة في تشنج، ومن بعدُ تنقلب الأصوات المتفكهة الى عويل خافت، متعاقبٍ بين بوابة وجارتها، رتيبٍ كرفيف جناحي ذبابة الحمار. وبين ساعة واخرى لاَ يتمالك حتى اكثر الناس استسلاماً لقدره البهلول، إلاّ أن يقارن، بنظرات كبندول الساعة، بين الظل وبين الرأس الذي يعكس ذلك الظل: كم هو أليف، معهود، فوق الكتفين، وغريب محيِّر على الأرض.

امتحان مضحك استند الى وسائده في هواء ذلك الحيِّ، غير ان كرزو، وحـده، أمسـك بالرقعة المضحكة كلها، ومن ثم أشرك برينا في ما لم يُطق احتماله: «انظري»، وقد نظرت المرأة، في تمعُّن، فارتجَّ كبدها. لذلك هرولت من هذه الجهة الى تلك الجهة، ومن تلك الى هذه، تقارن ما تراه بنظيره وهي تدس بيدهـا تحت ثوبها، من فتحة العنق، متلمّسة ثديها الأيسر، ومن ثم تعتصره كأنما تبدّد زوبعة الكرب التي احتبست فيه. ولم تكن، بالتأكيد، تريد هصر الثـدي، بل ذلـك الثقل الذي مس صدرها، والتصق به، دون أن تتمكن من تحديد موقعـه: فوق الجلد، أو تحتـه؛ قرب الشريان الأبهر، أو

الشعيرات الدموية حول الحلمة التي انتصبت فاختلج من فوقها القماش الكشمير.

لقد رأت برينا الفرق الذي يشبه قشعريرةً حامضةً: الحيُّ الغربي، كله، ترتسم ظلال الرؤوس فيه كارتسام رؤوس الكلاب، والغيبُ، وحده، يدري، كيف تحتفظ الرؤوس بأشكالها الآدمية، بينما تتخذ الظلال فكاهتها السوداء تلك. اما الزقاق المسدود فظل قاطناه، جهور وحشمو، محتفظين بالظلّين الطبيعيين لانعكاس رأسيهما. وكان كرزو قد أقدم، من قبل، على النظر الى ظل رأسه في الزقاق المسدود كرّةً، وفي زقاق آخر من أزقة الحي الغربي كرّة ثانية، فوقع على الفارق، لذلك جهر بنصيحته الخشنة الى برينا: «فلننتقل».

«فلننتقل»، تلك كانت كلمة «زَيْركَهُ»، أم برينا، ليل نهار، إثر الحرب الغريبة التي اشتعلت على تخوم حقول الذُّرة، في القاطع الشمالي الغربي، من الحدود التركية الى الهلالية فامتداداً الى قرية «هيمو»، وفي القاطع الجنوبي الغربي، من انعطاف نهر «جغجغ» تحت سفوح الهضبة التي يشغل المطار الغريب مساحة ما من سطحها، حتى قرية «حِلْكو».

قوس متصل من الذُّرة العالية، غرباً، كاد يدفع بمن حلُّوا تخوم المدينة الى ان يكملوا رحيلهم. وكانت تلك الفترة مصادِفَةً للشهر الثالث من استقرار عفدي هناك، بعد نزوحه من قرية «موسيسانا». ولقد كان البيت الذي تعهّد المتعهِّد ببنائه في عشرة ايام، لعفدي، أول بيت مسوَّرٍ يشغل منتصف العراء المطرّز ببعض الأحراش بين مثلث الطريق الاسفلتي المؤدي الى مدينة الحسكة جنوباً، مروراً بالمبغى الموحش قبل نقله الى شمالي المدينة، لصق الحدود التركية، الذي يجمع الصبية زجاجات الجعة الفارغة من حوله، وانتهاءً «بالهلالية» غرباً. ومن ثم، أي: في السنوات العشر التي تلت، كادت تتصل رقعة العراء تلك، فلا يبقى مكان لبناء جديد. وبرينا تذكر كلمة «فلننتقل» ذات عصر من صيف ذلك العام، اذ صاحبها عويل أزْرَقٌ منه جبين أمها.

كان العارفون في العائلة قد اطلقوا بضع نعاج على كومة من الملح، ولما التهمته على آخره ارتمت، بالتياع، على حوض الماء تخفف به حُرْقة أحشائها، فأطلق عفدي، إذ ذاك، طلقتين من بندقيته الفرنسية في الهواء يجفلها، فأجفلت. وكان السائد في اعتقادهم ان اللعبة كلها، بدءاً بازدراد الملح الذي تحبه الحيوانات بعامَّة، مروراً بتزاحمها على الماء، وانتهاء بالطلقات التي تجفلها،

إنما تجعل إخصاب النعاج أكيداً، فتلد الواحدة منها وَلُوْداً تحمل سَبْعاً في سبع سنين، لكن الطلقتين اللتين تردد صداهما في الهواء المثقل بالمكائد التي جثمت على الحقول، كادتا ان تنقلا الحرب الغريبة الى الضاحية التي تقطنها العائلة، إذ أطلت من وسط كيزان الذرة المتدلية في تعب ثقيل، على حين غرة، مئات من فزاعـات الطيور بخرقها الملآى قشاً، لكنها لم تجاوز الحقل الغربي، بل ظلت واقفة ترصد بوجوهها المستديرة المنتفخة، التي لا عيون فيها، رقعة العراء الـواقعة الى الشرق من الحقل، حيث بيت عفدي، وعائلة عفدي، ونعاج عفدي الملتفة بعضها على بعض في ذعر صامت لا يقل عن ذعر أصحابها، وإذ لم تقـع الفـزاعـات على نأمـة واحـدة، طوال نصف النهار، بعد دوي الطلقتين، انسلت الى داخل الحقل المديد ثانيةً، لا صاخبةً كما جاءت، بل في هدوء، كمن لا يريد إيقاظ النبات الشارد في اشتغاله على إتقان الحِيَل.

في أوائـل صيفين متعاقبين كانت تلك الحرب تطلق نفيرها الخافت، ومن ثم تسترسل عابثة بكل شيء، طوال الفصل الواحد منهما: أيْ، تحديداً، عندما تبدأ الكيزان الصغيرة في اكتناز حليب ذي طعم حلو، وتكون الحبوب، آنئذ، متخفية تحت شعر أشقر طويل التِّيْلَةِ، يغطيه ورق رخْصٌ لم تغو بواطنه الرطبةَ شمسٌ من شموس ذلك المكان، ومن ثم تنتهي مع بعثرة رياح الخريف للذرة وللورق معاً، بعدما يتركه زارعوه لحصاد الرعب، لا لحصادهم.

حصل الامر على هذا النحو في الصيف الاول، أما في الصيف الثاني فقـد علت النبـاتات دون سقاية أحد، أو رعايته، متهيئة لموعدها الأحمق، وحروبها الحمقاء، في كل مكان كانت تشغله من قبل، بانتظام لا زيادة في مساحته، ولا تقديم في وقته. والأمر، على اختصاره، بحسب ما تتذكره برينا، هو أن الفزاعات التي نصبها أصحاب الحقول بكثرة بين الذرة، حتى لم يكن ليفصـل بين الواحدة والأخرى بضع خطوات، بسبب من غزوات الغربان المتعاقبة، ما لبثت ان لجأت الى عصيان محيِّر، فتطرد الغربان وتلتهم، هي، كيزان الذرة، في البداية، ومن ثم يغزو بعضها بعضاً لاقتطاع مساحات من هذا الحقل أو من ذاك، إذ كانت الناس ترى، في وضح النهار، تلك الكائنات التي لا تلوح إلّا رؤوسها المستطيلة، ذاهبةً آيبةً، يتطاير من فوقها ورق ذي خشخشة موحشة. وكانت الحقول، بدورها، تقترب أو تبتعد، كأنما تنزلق الأرض الـترابية بها بدفـعٍ من يدين قادرتـين كالغسق الذي يغطي الغرب بجهامةٍ مُرَّة.

لم يكن صاخباً قطُّ ذلك النهبُ المتواترُ على مدى التخوم، والدليل الأوحد على فداحة ما يجري كان اهتزاز أوراق الذرة، وانتقال الفزاعات من جهة الى جهة؛ تلك الفزاعات التي اختفت بعد الصيف الاول، لتظهر في الصيف التالي اكثر بطشاً وامتلاءً بالقش مما كانت عليه، وبخاصة بعد الفصول المتعاقبة التي فَتَّتتْ أسمالَها، وشقّقت خشباتها المتصالبة، فتهرّأت واقفة دون ان تتساقط مثلما تساقطت أسواق الذرة، لتعود، من ثمَّ، ذاهبةً آيبةً، على مدى التخوم، تقتحم أو تتراجع لتقتحم، حتى ليتطاير حَشْوُها من القش أحمر قانياً، فيصلُ نثاره الى سوق المدينة ذاتها، في هبوب الريح صوب الشرق، أمّا كيف كان يصير ذلك القش أحمر فلم يتوقف عنده المتسائلون طويلاً.

هكذا، طوال صيفين، اختزلت ام برينا الكلام الى بضعة حروف: «فلننتقل»، ولا تضيف شيئاً قط، بل ترجع الى عادتها في وضع يدها على فمها تكتمه على الفزع الذي يتخبط تحت لسانها. لكن، في الصيف الثالث، لم تقم للذرة قائمة، ولم يعد المزارعون الى زراعته إلاّ بعد ست سنوات، فظلت «زيْركَهْ» تضع يدها على فمها، بالنحو ذاته، إنما دون ان تبدر منها، هذه المرات، كلمة «فلننتقل»، التي لن يتذكر عقْدي قط انه سمعها من زوجه الهادئة. اما برينا فتسمع رنين الكلمة بكلِ الصور التي تتداعى من جرائه، كنقل صناديق الثياب، التي تصطدم، أبداً، حين رفعها عن الأرض، بعظام سيقان حامليها فيتأوّهون، وكذلك بنقل أكياس المؤونة من عدس، وطحين، ونخالة، وملح، وسكر، وتبغ، وبرغل، وبعض الزبيب والتمر المجفّف، وما يستدعيه الأمر من وقوف برينا، ذاتها، بمخرز وخيط خشن لترتق جنبات تلك الأكياس، التي فتحت الفئران فيها ما يكفي ليندلق المحتوى كومات هرمية في الزوايا، ولربما وقع اولاد عقدي، كعادتهم حين يرصدون الاشياء الثقيلة التي تمكث طويلاً في أمكنتها، على فئران صغيرة جداً، لما تزل مغمضة العيون، ذات جلود وردية تغري بالشفقة، فحملوها الى دجاجاتهم الشرسة، فتمزقها الدجاجات.

برينا لا تدري ماذا تفعل. برينا حائرة في ذعر بين الزقاق المسدود وغيره من الزقاقات. برينا تشارك إخوتها، وجيرانها، فكاهتهم، وضحكهم من ذلك التحول في الظلال. وبرينا تتمنى، كغيرها، لو تحتجب الشمس لتضع حدّاً للمهزلة. وبرينا تتفكر، بعد كل هذا، وعلى نحو مفاجىء، في الموضع الذي

يمكن ان تختاره لخيمة أبيها في الزقاق المسدود اذا انتقلت العائلة حقاً. غير ان الذعر الذي انتاب الحيّ الغربي، في أيامه الاولى من اكتشاف المهزلة، بات ينحسر قليلاً قليلاً امام تأمّل أصاب بعدواه الصغار والكبار معاً، فلم يعد يُرى أحد من أهل الحيّ إلاّ عاقداً يديه من وراء ظهره، مطرقاً يتفكّر فيما يقدر اكثر الكلاب شراسة، بنباحه، ان يلهيه عن تفكُّره. وكان الصّبيةُ، برؤوسهم الحليقة إلاّ غُرَرَها الطويلة المتدلية على الجباه، يَتَلَوْحُونَ في الأزقة على كثير من الطرافة، وقد عقدوا أيديهم وراء ظهورهم كالكبار، وأطرقوا ماشين في همٍّ.

ما من أحد كان يشتغل بعد ذلك الاستغراق، أو ينصرف الى رزق، بل يستهلك ما ادّخر من مؤونة ليرجع الى مشيه، قرب سوربيته، (كلٌّ قرب سوربيته) متفكّراً. ولقد بسط التأمل، على غير توقُّع، سلطانه على باقي أجزاء المدينة، فاعتكفت الناس، في الجهات كلها، على التزام أسوار بيوتها، رائحة غادية، تنظر الى الأعلى والأسفل، واليمين والشمال، ومن ثم تغمض عيونها كأنها تستكمل رصد الجهة التي لن تراها العيون، قطُّ، في مدى ما تراه. لكن «حشمو» و «جهور» عكفا، بخلاف الآخرين، على الاشتغال على صنع سلالم في زقاقهما، اذ باتا يقتحمان الساحات ليلاً، بعد حفر ممرات في الاسوار، ومن ثم يعودان بما اقتطعاه بمنشاريهما من جذوع اشجار الكينا التي لا تخلو ساحة منها. وكانت الناس تفيق على اقتحامهما فتُخلّي بينهما وبين ما يريدان، مُغْضبةً في إشفاق.

من أربعة الى ستة سلالم كانت ترتفع، يوماً بعد آخر، لتتكىء على أسوار البيوت، بمسافة لا تتعدى خطوات قليلة بين الواحد والآخر، حتى لَغَدا الزقاق دغلاً من قضبان أفقية وعمودية، ومن ثم توسط هذا كلّه سلّم كهرماني علا أضعاف ما علت السلالم الاخرى، متكئاً على السور العرضي الذي سدّ به الرجلان الزقاق من جنوبه، بهيّاً باقتدار، فارداً ظله الأصفر على الظلال بحسب الدوان الأبكم لشمس ذلك المكان. وكان واضحاً لعيني كرزو المتفرستين، أبداً، أن جذوعاً كثيرة قد اقتطعت من الشجرة الكهرمانية، لكن بصيرة الصبي لم تقع على الحكمة في لعبة جهور وحشمو، وإذ ساءل برينا في الامر ردّت برينا: «اسألهما».

«كرزو» لن يسأل أحداً، وقد تعوَّد ألاّ يسأل، لأن الكبار، أجمعين، يستصغرونه حين لا يملكون أجوبة، ويستصغرون الأجوبة حين يملكونها فلا

يقولونها. . انه يعرف، تحديداً، من الذي يحاوره عفدي في خيمته المغلقة، ويعـرف من أومـأ اليه، مبتسـماً، من بين الجمـع الـذي احـاط بالشجـرة الكهـرمانية، التي صارت كهرمانية، تحت ضربات جسد جهور بن ساري الشبيهة بنطحات تيس. لقد شاء لنفسه، دون أن يخيّره أحد، أن يكون أميناً على سرّ اللعبـة كلها، فبات متجرّداً من فضوله ككهل يستعجل ما تبقّى. ويضرب، أنّى جلس، على فخذه، مردداً في أعماقه، من غير ان يظهر على وجهه شيء من تساؤله: «لماذا يختارني أخي؟».

لم يكن سؤال كرزو، هذا، يعادل، بأية حال، سؤاله عن سلالم جهور وحشمو اللذين بسطا سلطانها الغريب، لا على أرض الزقاق المسدود، بل على هوائه أيضاً. كانا يصعدانها مستطلعين الجهات شرقاً، وغرباً، من فوق الأسوار، كأنما يحاذران أن يباغتهما أحد، اما السّلّم الكهرماني العالي، فكان واضحاً أنّه أقيم لغرض آخر غير الرّصد، إذ كانا يصعدانه، تناوباً، وقد غطى أحدهما رأسه بحطّته فلا يُرى شيء من وجهه، ثم يجلس على القمة كشبح، ضارباً صدره، بين حين وآخر، بجَمْع يده، كمن يندب على عزيز ميّت. ولـربـما جاراهما كرزو، باستخفاف، ضارباً بقبضته على صدره، لكنه كان يستطلع، بدوره، من السطوح التي يتنقّل فوقها كهرٍّ، دون قصد صريح، مدى الازقة الاخرى، وساحات البيوت، مدفوعاً بغريزة لا تُسْتَجْلى. ويقيناً، لو تسـاءل احـد عن هذا الحـذر كله لما وقع على بيِّنةٍ تستوجبه. فما همَّ إن اقتحمت الناس الزقاق المسدود؟ ما من أحد في منجى من أن يرتسم ظلُّ رأسه على شكـل رأس الكلب، والاستسـلام للمسألة خير من البقاء أسير ذلك الزقاق الذي يبقي للرؤوس هيبتها الآدمية. زقاق. زقاق. هبةُ الغيب التي لا تُردّ. هكذا، دون مساءلة، مُنِحَ الزقاق المسدود سلطته الغريبة على الظلال. زقاق. زقاق أوحد لا يتعدّد إلاّ في ترداد كرزو للكلمة، حتى باتت الكلمة، ذاتها، متهدلة لا تستوقف المـعـنـى.

لقد مضت الأمور، رويداً رويداً، إثر أيام التأمل الكبير في المدينة، على نحو لا تسيطر على مداها إلاّ تفاصيلها الباهتة. فخيمة عفْدي الحائلة اللون ظلت على حالها، وظل الحوار، الذي حفظه كرزو بحروفه، جارياً بين الرجل المعتكف وضيفه الخفي: «اسمع». هكذا تتردد الكلمة، اضافة الى الكلمة الاخـرى: «أنت السبب». امـا البـاب الـذي بقي مفتوحاً، في سور بيت عفْـدي، على الزقاق المسدود فقد بقي مفتوحاً على حاله، وبهذا كان لتلك

العائلة، وحدها، بابان على الأزقة. وكذا الدجاجات لم تَحِدْ عن نهجها: تميل برؤوسها شمالاً ويميناً في تدرّج، فتتماوج أعرافها في الحركة البليدة. وهي تتفكّر، بدورها، أن ما تراه طافح بالبلادة أيضاً: ساحة الدار، وصعود كرزو وبرينا المتعاقب الى السطوح، وتحسس الآدميين لرؤوسهم، والجلاء الغريب للكائنات كلها، إلاّ جهور وحشمو، عن الزقاق المسدود، الذي كان في مقدورها ان تَتَخَطَّرَ فيه، حيناً بعد آخر، في اختيال ملكيٍّ لا يزاحمها فيه أحد. أي، بكلام واضح، لم يتلفّت امرؤٌ إلاّ الى شاغله، وكذا كان أمر الحيوان والنبات، بدءاً بشجرة الكينا الكهرمانية، وانتهاء بعبّاد الشمس الذابل على تخوم حقول الحلبيّين شمالاً.

ما من مسألة تهزّ أحداً الآن. غير أن برينا، وحدها، تنتفض كحنكليس الطين، وهي تكاد تضرب على أحشائها لوماً: «كيف نسيت سينم؟». نعم، سينم. اي عميان كان هؤلاء الذين لم يلتفتوا الى البلهاء التي انبثق بطنها، رويداً رويداً، فرفع ثوبها كقوس الهضبة؟ أمُّ سينم أخبرت برينا، في همس يقطرُ عَرَقاً، فعرقت برينا من رأسها حتى باطن ركبتيها. ولقد كانت الناس في سهو فما يفيقون على شيء: حبلت أنثى أم وضعت؛ مات امرؤٌ أم عاش. لكن المرأتين تجاذبتا الخبر على نحو يفيض تفهّمًا، بإيماءات رصينة مقتضبة. وكان واضحاً أن برينا تحاول، بين الجملة والأخرى، والإيماءة وأختها، عدّ الشهور التي تفصل بين ما بلغه حَبَلُ البلهاء، الآن، وزواجها من بيكاس، فما تتوفّق. يدها المتهدلة على يمينها تنقبض إصبعاً إصبعاً، وتتلوها اليسرى إصبعاً إصبعاً، ثم تنبسطان لتعاودا العدَّ. وفي يسر تخلّت عن ذلك، في اللحظات التالية، غير عابئة إن زادت الشهور أم عراها النقصان في تكوين جنين سينم. وكانت، برغم المباغتة، يتدرج على سحنتها فيض من حنان مُنسَرِحٍ، ومن لهفة تتقافز مع الكلمات: «أحضري سينم يا زوج عمّي. سأُعنى بها. سترين». . أمّا زوج مهمد بن كوجري فكانت تحبس، امام لهفة المرأة الصغيرة، بحث أعماقها عن كلام تُقنعُ به الآخرين. إذ، يقيناً، لا مكان للقول إن هذا الجنين هو ابن كائن اسمه بيكاس، وُلِدَ، ومات، ودفن في اليوم ذاته؛ بل اختفى ودُفنت الوسادة.

أفي مُكْنَة أحد أن يجد بلاغةً تعيد نَسَبَ الدم الى الدم في هذه الحال؟ لو كان بيناف حاضراً لنفث دخان لفافته من منخريه، مطرقاً، قبل ان يرفع عينيه الى أخيه مهمد: «فلنصحِّح المسألة كلها»، ولسوف يحيط أخوه الهادىء

وجهـه بيديه غير معقِّب، فيسـترسـل دون انتـظار شيء: «اذا لم يصـدقـوا فليتفضلوا الى المقـبرة». ويصمت متـأثراً بصمت أخيه، عارفاً أنه لم يلمس رضى، بكلامه، من نفس الرجل المُطْرق، متلفتاً من حوله في إعياء خانق. ولما يزيد الصمت ثقلاً يقف على ركبتيه في عصبية: «قل شيئاً. أليس لديك ما تقوله؟»، فيرفع مهمد رأسه وقد علا جبينه إشفاق على نفسه وعلى أخيه: «بعد كل هذه الشهور!! بعد كل هذه الشهور!!»، ولم يكن واضحاً ان كان يسأل بيناف، أم يستسلم، لكن الملاّ يعود الى الاسترخاء في جلسته، وفي نفث دخان لفافته: «فلنتفكّر. سيدبِّرها الله». ويتمتم مهمد: «كم مرة سيدبّرها الله يا ملاّ؟». «الى الأبـد» يشـدد الملاّ على الكلمات وهي تخرج من تحت شاربيه الكثين، رافعاً كفّه الى مستوى عينيه كأنما سيلطم نفسه: «الى الأبد. عليه ان يتدبّر هذا البلاء الى الأبد»، وترتخي كفّه بعد ذلك كمن يأسف على كلام لا يليق به، مطلقـاً تأوّهاً خفيفاً: «أووه. إلهي»، ويعقد لفافة جديدة قبل أن يطفىء التي بين شفتيه.

يقيناً، ما من اقناع حتى لو كان الملاّ حاضراً. وحده عفْدي، بسطوته، يقدر على إسكات الأفواه والأعين معاً، لكن عفدي لا يبارح الخيمة المغلقة، مسـترسـلاً في مجادلاته حول ما يمكن أن يتقاسمه الأباطرة الغائبون. ولقد ضاقت المشورة حتى بات كرزو يدلي بحذائه فيها: «البنت مجنونة يا برينا. قولي للنـاس إن بطنها مجنون أيضاً»، فتنظر برينا الى فكاهته في نفاذ صبر: «راقب الزقاق بحق الله، فذلك أفضل ما تفعله».

كانت المساجلات قائمة طوال يومين بين برينا وزوج مهمد، حتى عرف أولاد الملاّ وعفْدي، معاً، بوقائعها التي كانت الغلبة فيها لبرينا: «سأعود بها الى بيتنا ـ بيت الملاّ. سنعود كلنا»، هذا ما قرّرته المرأة الصغيرة، وقد فرح بقرارها اولاد الملاّ حقاً، بعدما لزموا بيت عفْدي مكرهين، تحت سطوة اولاده وتـرفّعهم الـذي لم ينتقص منـه أيُّ حدثٍ. وفي اليوم الـذي حملت المرأة، والصّبية، متـاعهم في لفـائف وصُرر، وتوجّهوا الى الباب المطل على الزقاق الغربي، وفي حين وطأت أقدامهم العتبة التي تفصل ملكية آل عفدي عن أرض الـدولـة المشاع (المشاع دون قصد)، مَدَّ أولاد الملاّ ألسنتهم للأولاد الآخرين، الذين لم تبدر منهم بادرة ردّ فعل قط، بل ظلّوا يحدقون في الراحلين بعيون صارمة حتى اختفوا.

شجـيرة الـزيتـون، وحـدها، تستدير بعيون أوراقها على الجهات في

الساحة الفارغة؛ تلك الشجيرة التي لن تكبر من وحدتها قط، وهي تتفرّس، رويداً رويداً، منذ أمدٍ لا يقدِّره إلّا النبات، في أبواب الغرف الشمالية، والغرف الشرقية من ساحة بين الملاّ بيناف. شجيرة زيتون مهملة، ترتدُّ، برهة بعد أخرى، على المضيق المظلم في جذعها الرقيق، وغصونها الرقيقة، بعدما أعياها المناخ الشمالي المستهتر عن أن تتسع حدودُ مباهجِ ورقِها، وغصونِها، على الفراغ المثقل بسمائه، وبضوئه.

شجيرة وحيدة حتى لو دخل الى الساحة آباءُ آباء الملاّ، لا برينا وأولاده فحسب. لكنهم، اذ دخلوا، تنفّست الشجيرة الصعداء، لأن ثمت من سيقاسمها وحدتها الآن. ولذلك، بحسب ما يمكن التكهّن به، وفقاً لتمايل الغصون، واهتزاز الورق كأنما تميل به رعشةٌ من جهة الى اخرى، أبدت الشجيرة المذعورة من ذاتها بعض احتفاء شابَهُ ثقلٌ واضحٌ، فاحتفى الداخلون بها، بدورهم، وهم يملأون الفناء صخباً بمتاعهم القليل.

أتستطيع شجيرة ممتهنة الى هذا الحدّ، (من أتى بها أيها الإله؟) أن تروي ما غاب عنه الرواة منذ غادرت العائلة البيت، إثر اختفاء الملاّ؟. هي لن تحكي على كل حال، برغم ضجرها الواضح من ذلك الإهمال، ومن أساها في تلك الوحدة المؤبّدة، بغياب الناس أو بحضورهم، لكن جدران الغرف المتقابلة، شمالاً وشرقاً، تفصح عن وعيد متبادل بينها وبين شجيرة الزيتون. الغُرفُ حانِقةٌ ككائنات حيّةٍ حانقة. يتقشَّرُ عن جدرانها الملاّطُ الطينيُّ الرقيق بفعل الصخب الأبكم لِلَّبنات، كأنما هي قلوب تنبضٍ تباعاً، متجاورةً، يهيب احدها بالآخر فيفيق على ذعر. فلقد كان يُشْغِلُ تلك الجدران ان ترى الشجيرة الساخرة تلك عاكفةً على ما هي عليه من نماءٍ لم يزدَدْ ولم ينقصٍ. والجدران تخمِّنُ، وفق حسابٍ مُضنِنٍ، أن الشجيرة تتقصّد ذلك تقصُّداً، بنحو من اللهو، أو الممازحة الـمُرَّة، لذلك تعيا عن كتمان وعيدها الذي يلوح شقوقاً طويلة تنبثق منها نباتات معرّشة قزمة، اصفرت أطرافُ وريقاتها.

على كل حال، عكفت العائلة العائدة، في يومها ذاك، على تنظيف الغرف، ونكشِ الأرض المحيطة بشجيرة الزيتون، ومسح الأقفال ببعض الزيت. وهي لم تنس، بالطبع، أن تحفر حفرة صغيرة لتملأها بالماء للدجاجات التي ستحضرها غداً، عوض الحفرة القديمة المندثرة. غير أن سينم، وحدها، لم تلتفت كثيراً الى ما يجري، ولم يطلب منها أحد، عن قصد من الشفقة على عقلها وبطنها معاً، بل كانت تحدّق، وهي تعبر عرض الساحة

جيئة وذهاباً، في باب الغرفة الشمالية، دون هأهأة، كأنها تحاول، لمرّة واحدة في حياتها المهدورة كمخيِّلتها، أن تمسك بخيط مّا يعيدها الى نسيج حيٍّ. ولـمّا أبصرتها برينا، بغتةً، على حالها تلك، توقفت عن كناسة العتبة الواطئة، ناظرةً الى البلهاء في حذرٍ من يباغت شخصاً في هيئة لا تليق به، ثم استدركت ذاتها فطأطأت، قبل أنَ ترفع رأسها، ثانية، على صوت يتنامى فرحاً: «عليه أن يقول: كوكو. بيكاس ديك». وكانت سينم، حين نطقها بالكلمات تلك، تقترب من باب الغرفة الشمالية، لتفتحه وتدلف الى الداخل، ومن ثم تردفه من ورائها، في هدوء، لتنبعث من مزلاجه النحاسي طقطقاتٌ تتدحرج على مدى الساحة.

الفصل الخامس

الأجنحة الهائلة البيضاء تخفق خفقاً عنيفاً فيغطي الأرض ريشُها المتطايرُ من الأفق الى الأفق، وما من شيء يتحرك في فناء بيت الملاّ، حتى شُجيرة الزيتون. اما في الأعلى، فكان السلك ذاته، الذي يعبر من جهة الى اخرى، يتمايل بحفنة الزرازير التي حطّت عليه، متشبثةً به بمخالبها حتى لا تجتثها الريح القوية، وكان ريشها يرتفع صفّاً صفّاً كأنما يتخلّله مشطٌ خفيّ.

بياض مديد ومرتفع. اجنحة هائلة بيضاء: هكذا ضرب الثلج بأوتاده هناك، ورفَع خيامه. وكان ثلجاً مبكراً جداً في اقتحامه، عجولاً، امهل الخريف بعض أيّامه الأُوَل، ومن ثم أخلّ فأَنْقَصَها. لكن من يعاتب الثلج؟ ابيض غريقٌ، تلتقطه الزرازير السوداء بمناقيرها لترفعه الى المسافة. بل أبيض أبلهُ، طاووسيٌّ، عارٍ من النمنمة الرحيمة التي تحرّر الشكل من شَبَهِه. ابيض الى غاية البياض. راكنٌ الى لُعبةِ لونِه. جاهلٌ، وعليه سيماء البطش.

ثلجٌ؛ وإذ يرفع كرزو عينيه الى السلك يظلّلهما منه ومن رياحه اللاسعة يتمتم: «ثلج كلبٌ، وابن كلب». ولربما مسح «زيوان» بخار الانفاس عن زجاج النافذة من الداخل، ناظراً الى أخيه، ومن ثم الى الزرازير متمتمًا بدوره: «ثلج كلب وابن كلب». ولم يكن «زيوان» يرى من اقتحام الثلج الغريب هذا إلاّ ان يعود الى فخاخه.

على حين غرّة، غطى «الثلج» المدينة. افاقت الناس صباحاً فرأت بيوتها غارقة حتى منتصف ابوابها في البياض المتلألىء، امّا من كان قد افاق فجراً، للصّلاة، فقد عكف عائداً الى فراشه حين اعياه تفسيره للبرد وللباب

الموصد معاً. وبدأب اشتغل المشتغلون، في ما بعد، ليحرّروا الابواب اولاً، والممرات والطرق ثانياً، بقليل من الاسئلة عمّا فَجَأَهم بهذا الانقلاب. ولربما كانوا على حق في ذلك الإهمال المقصود للاسئلة، اذ استنفدوا، ليومين، من قبل، كل دَهَشِهم وفضول اعماقهم، في تخمين اسباب الغبار الذي غطى كل شيء. وكان غباراً لجوجاً، ينفذ من الجدران ومن الجلود الآدمية. واعقبته، من ثم، ريح باردة كادت تجتث خيمة عفدي (هذا ما قالته زيركهْ لابنتها برينا)، لولا ان هبّ اولاده فتعلقوا باطرافها المُخَلْخَلة.

ومن الـذي سيقف طويلاً باسئلتـه امـام غبار، وريح، وثلج، يرثُ احدهم الآخر بصخب او من دونه، وقد تعوّد ان يشهد ما يهدم الاسئلة؟ الـرؤوس لم تزل ظلالها على الحال تلك من انعكاسها الكلبيّ، أعلى الثلج كانت الـظلال ام على الـطين. السـلالم ترتفع في الزقاق المسدود، والتأمّل المستشري بعـدواه لم يبـارح: الأيدي خلف الظهور، والرقابُ منحنيةٌ على الضـائـع الذي لن تجده. المسجد ابتعد. . نعم، المسجد ابتعد عن رقعته جنوبي الشارع المعبّد الوحيد، الذي يصل القامشلي بعامودا، وبغيرها. ففي يوم الجمعة (الذي صادف اليوم الاول من هياج الغبار) خرج المصلون بعد انقضاء الصلاة من باب المسجد، فلم يجدوا احذيتهم التي تعوّدوا ان يتركوها خارجاً، بل رأوا عوضاً عنها، جداول رقيقة من الماء سرعان ما اتّسع جريُها، تنسل إلى الداخل. تعوّذوا، ثم رفعوا جلابيبهم حتى الرّكاب مع ارتفاع الماء في ارض المسجد. وكان الأدهى انهم، حين نظروا من الباب الواسع، او من الشبابيك الواسعة، لم يجدوا الشارع او البيوت التي تحف بالمسجد من الشرق والغرب والشمال، كأنما دفعت يدٌ بالمسجد الى الجنوب، حيث يعبر فرع من نهر جغجغ قرب الهضبة التي يعلوها المطار. نعم. الأعين لا تخطىء الأمكنة التي تعرفها، برغم الغبار الذي ضرب بأقفاله على المسافات.

الماء. الماء. «استوى بعرشه على الماء». تلك كانت الجملة الاولى في خطبة المـلاّ احمـد، بعد الحمد لله وشكره على نِعمه، «وجعلنا من الماء كلّ شيء حيّ». «من ماء دافق، يخرج من بين الصلب والترائب» هكذا خَلقَنا الله. ماء. ماء. والمـلاّ احمـد يتفصّـد عرقاً فيمسح جبينه بمنديله البنيّ الصغير: «تسقونٍ ارضكم بالماء فَتُتْئِمُ لكمُ الثمراتُ. خذوا الماء في ايديكم، وانظروهٍ منسـلاً من الـرّاحات. من سيقبض على الماء؟ نوح. أكان. . أكان البـطّ لولا. . اكـانت آبـاركم رحمـةً. . اكـان اولادكم؛ وانتم؛ وعـظام آبائكم؛

ولهاثكم؟ كلاب الماء. سنونوات الماء. ستسألون عن قطرة يوم القيامة فلا تجدون غير الغِسلين. انظروا الحراشف؛ انظروا أَرْجُلَ الإوزّ والضفادع؛ انظروا الشجرَ الحمار»، ويلقي امام المسجد نظرة من حوله في استهجان مَنْ يرى استهجاناً: «هاها. الشجر. سترونه راكضاً. سترون زعانفه وغلاصمه، انظروا» وكشف عن طوق جُبَّته: «هذه غلاصمي» فكادت الناس ان تهبّ واقفة وهي ترى تحت وَدَجَيْ الخطيب غلصمَيْن ينفتحان وينغلقان في تُؤده: «ارأيتم؟» هكذا بادرهم الملاّ احمد، واردف: «اجلسوا» في صيغة امر لم يتمالك المصلون معها إلاّ ان يجلسوا متمتمين. واذ ساد هدوء ثقيل بعد برهات من ذلك، استرسل الخطيب في خطبته: «تلمّسوا اوداجكم» فتلمَّسها الجالسون على نحوٍ آلّيٍ يشوبُه الفزع: «من اين جئتم»؟ سأل الإمام سؤاله الذي لا يعني به احداً. «جئتم من هناك» اضاف في خشونة وهو يشير باصابعه العشرة الى اللامكان: «من الظلام. من الظلامِ. من الظلِّ البارِدِ، المُسْتَفْحِل، القويِّ، المحبوك كالسجّادة؛ من ظلِّ الظلِّ؛ من الظلِّ الذي لا لون له سوى لونه؛ من ظل كرسيّه». وتلفّت الى كل اتجاه هامساً: «كرسيِّيه . . »، ثم ارخى يديه مطرقاً ليجعل الصمت اكثر ثقلاً تحت شفاه الجالسين. «كرسيِّة» وانتفض بعد القاء الكلمة ككرة: «الكرسي ـ العرش، العرش ـ الكرسي. ربكم الذي وسع كرسيُّه السماوات والارض. ربكم الجالس في فراغ حكمته. نعم، في فراغ لا تدركه الكلمة، او الشعاعات، او الصلاة نفسها». واستدرك: «لا. للصلاة يد كجناحٍ تلمس الكرسي خفقةً خفقةً، دون ان تبلغ الفراغ الذي . . » ومسح جبينه بمنديله، مردفاً في اختصار واضح: «الفراغ، هناك. ربكم في مكان وكرسيُّه في مكان، وانتم في ظل الكرسي، في الظلامِ الاشدّ جمالاً ايها . . » وانتبه، بدوره الى الماء الذي تسلل من البوابة الكبيرة دفقةً دفقةً، رخيّاً هادئاً كأنما يصغي، فكشف عن طوق جبّته: «هذه غلاصمي».

منذ أول جملة في خطبة الملاّ أحمد استشعر المصلّون رائحة الماء؛ رائحة الغِرْين والقصب القزم النفاذة على ضفتي نهر الجغجغ، لكنْ لم يفاتح أحدٌ أحداً بسؤاله عن الرائحة تلك، إذ كان الوقت وقت خشوع. بيدَ لـمّا بلغ الأمر مبلغه، واستقرّ الماء تحت منبر الخطيب، أسَرَّ الجالسُ إلى الجالسِ بما اعتمل في نفسه، وكيف كتم ما كان ينبغي ألاّ يُكتم. وقد ادعى كلِ امرىء السبقَ في بصيرته وفي منخريه، لكن المسألة كانت اكتملت. قال الملاّ أحمد: «هـذه غلاصمي»، ومن بعدُ فَجَأَهم: «تلمّسوا أوداجَكم» فوقعوا على

غلاصمَ، بدورهم، تحت الأوواج، فدار بهم المسجد قليلاً من الفجاءَة: رجال بغلاصم. متى خرجوا من الأنهر بحقّ الله؟. لقد صرخ الملاّ أحمد: «جئتم من هناك» فما الذي قصده بقوله؟ الظلام؟ ظلام الكرسي أو ظلّه؟ ألا بدّ للمرء من غلاصمَ إن وُلد في الظلّ؟، وقد نسوا أمر غلاصمهم في حمّى البحث عن أحذيتهم . «أين نحن؟» ردّدها كل من خرج من الباب. وإذ استفحلَ الهمس المتسائل أوقفهم الملاّ أحمد بصرخته من المحراب الذي لم يبارحه: «ما حاجتكم إلى الأحذية؟ استخدموا غلاصمكم».

استقر الفخ الاول تحت السلك العالي، حيث استقرت الزرازير. «زيوان» لم يضيّع فرصته، وكان «كرزو» يراقبه سارحاً بفكره الى شيء آخر، من نافذة الغرفة الشرقية. اما في الغرفة الشمالية، فكانت انفاس «سينم» تستقر بخاراً تتسع حلقته على زجاج النافذة المطلة على الساحة البيضاء.

برينا كانت تنظر الى الساحة بدورها، من خلف رقبة كرزو الشبيهة برقبة ابيه في انحنائها. وكانت تضم الى جنبيها طفلي زوجها الآخَرَيْن، «عاني» و«حمزات» اللذين بلغا الآن، على التتابع، السابعة والخامسة من عمرهما. لكنها تستقر ببصرها، بعد ان تدور به الساحةَ، على نافذة الغرفة الشمالية، كأنها تجتاح الداخل، ومن ثم تحيط بالمرأة البلهاء منصتةً الى خفقات جسد الجنين: «كم هو دافىء؛ كم هو حيٌّ. تحرّكْ، تحرّكْ، بين يديّ»، وكانت تفتح يديها كمن يتلقّى هبة، من مكانها هناك، في الغرفة الشرقية، وعيناها لا تبارحان الجدار الذي يستر سينم، واعماق سينم، وما خلف سينم وأعماقِها.

هدهدةً، دافئة كانت تؤرجح المكان كله، بثلجه، وزرازيره، وفخاخه، في انتظار الوليد الذي سيحمل، بين ساعة وأخرى، إلى برينا تعويضاً لن تملك سواه. وهي لم تتفكّر قط في تبرير للمسألة. لم تتفكر في الوقت الذي سيَلي. لم تتفكّر في زائريها، وفي مساءلاتهم. ستغلق البوابة مثلما أغلقتها «خاتي»، من قبل، حين جاءها «بيكاس»، وهمُّها أن ترى حفيدها الذي لن تُقنعَ أحداً بأنه حفيدها.

في نزق بارد تتسع مملكة برينا، ويتسع العبث الضارب ببلاغته الصارمة في ثلج الساحة، وفي نزق، أيضاً، تتدحرج صرخات الطفل الخفيضة على المكان كله، حين تدخل برينا إلى غرفة سينم، أو تخرج منها، لاهثة: «هاتوا بالأقمطة. هاتوا بحساء العدس. هاتوا. . .». أوامر على غير هدى يخرج بعض كلماتها وتضيع الأخرى تحت اللسان.

هكذا، بدأت عائلة الملاّ الغائب مساءها ذاك، وسط فوانيسَ ضئيلةِ اللهب تعدو بها أشباح عبر الساحة. وقد حضر ولادة ابن بيكاس، غير المصرّح به، أم برينا، وأم سينم، والقابلة التي احضراها، بعدما تولى كرزو، ذاته - وهو يشتم كلّ ما حوله - تبليغ المرأتين همساً، بحسب رغبة زوج أبيه: «ستلد سينم». وقد كاد أن يقع كرزو في ملاسنة مع أولاد عفدي الذين اخشوشنوا معه آن دخوله ساحة بيتهم، عصر ذلك اليوم، لكنه جاوزهم ركضاً، واقتحم الباب المغلق دون أن يخلع حذاءه. ولـمّا خرج مصحوباً بأمهم، جمع كرة من الثلج وأهوى بها على خيمة عفْدي، التي علا حوافها ثلج سميك، من خلف ظهر المرأة، التي عبرت البوابة من قبله، فتوعده أولاد عفدي بحركات من الأيدي تشير إشارات تنمُّ عن الذبح. وقد رد كرزو، بدوره، بإشارات سفيهة، قبل ان يصير خارجاً، الى جهة الزقاق الغربي.

ما كان على أحد أن يسأل عمّا يجري في الزقاق المغلق، إثر اقتحام الثلج العجول لأقاليم الشمال، لكن ذلك لم يكنٍ يمنع، بأية حال، أن تظل للزقاق شؤونه التي يتناوب على اختبارها كلٌّ من جهور وحِشمو. وكانا الوحيدين اللذين لم يربكهما الثلج المبكر جداً، اذ عمدا، منذ النُّدَفِ الأولى، إلى صعود السلالم وهبوطها، ماسِحَيْن عن أخشابها ما يعلق بها من خُثارة السماء، أما السلّم الكهرماني فكان كفيلاً بنفسه، يزداد التماعه المضيء الاصفر كلّما ازداد الهطول الابيضُ كثافةً. غير أن ساحة بيت عفدي، التي كانت تغوص في ثلجها أرجل الدجاجات السارحة، لم يشغلها شيء قط، وظلت منطوية على نفسها، كالخيمة المنطوية على نفسها في زاوية السور، تميد فتتسع، ومن ثم تنطوي فتضيق، دون ان تدع لأحد فرصة الوقوع على سرّها. وكان مفهوماً أن يغفل القابعون داخل الغرف، من عائلة عفدي، عن احوال الساحة، لكن ما من عذر للخيمة المنتصبة هناك، تلك السادرة في محاوراتٍ هامسةٍ داخل ظلام أعماقها.

ثلج على سطح الخيمة. ثلج ينزلق رويداً رويداً عن الحواف المائلة فتطغى خشخشة انزلاقه على صوت عفْدي: «أعرفهم واحداً واحداً. أكلوا كلابهم من الجوع، وها هم يتطاولون علي!!». ثم يسود صمت لبرهة، قبل أن يردف: «دوّن في دفترك انني سآخذ قرية تِرْبَسْبي أيضاً. هل أظلمك بهذه القِسْمة؟».

من يدوّن كلام عفدي في خيمته المغلقة كأعماق دجاج الساحة؟ إنه هو

السبب، كما يردّد عفْدي. الضيف الخفي هو سبب المسألة كلها، وهو يدوّن في دفتره ما يتقاسمه مع عفْدي من رقعة الشمال المديدة. تلك هي الحكاية، مختزلةً، منذ اعتكاف الرجل الجَهْم. وكان سؤال كرزو الوحيد، قبل الرحيل عن منزل عائلة برينا، منصباً على مدى جهل عفدي بالتحول الذي أصاب ظلال الرؤوس: «كيف له أن يرى من قبره هذا؟»، ويدور حتى يواجه الشمس، تاركاً لظله أن يسقط على جدار الخيمة، ومن ثم ينبح ككلب، ضارباً بكفه على القماش السميك الذي يعلوه الغبار: «تعال نَنْبَحْ معاً يا جدي». ويبصق متمتاً: «يا جد الكلاب».

كانت أوكار النمل تتجاور من حول الخيمة بانتظام: فتحات صغيرة مخروطية بما يحوطها من تراب ناعم، وغدوٌّ ورواحٌ، من كائنات يتقرى بعضها البعض بقرون استشعاره فلا يصطدم الخارج بالداخل قط، بالرغم من العجلة الواضحة في حركاتها. ولربما عمد كرزو إلى الحيلة المعروفة في إشعال الخصام بين نملتين، ليخفف قليلاً من انتظاره المملّ لما يمكن أن يبدر عن الخيمة. والخيمة لا تثير فضول أحد سواه. إنها منسية، وهذا ما يغيظ الصبي، فيرفع نملتين، بين أصابع يديه، ثم يدانيهما حتى تلتقط إحداهما الأخرى، من الغضب، بكلّابتَيْ فمها. إذ ذاك يُنْزلهما كرزو إلى الأرض ويفلتهما، فيأخذ العراك مداه، ولا ينتهي إلّا بقطع رأسَ واحدة منهما.

النمل الأسود نملٌ غضوب، يرتدُّ مهاجماً إصبعك اذا لامسته بها. وهو جشع، يخبىء من الحنطة ما يكفي مؤونة شتاء لعائلة من أربعة أنفار. ولقد كان دأب الناس، في بدايات الخريف تحديداً، أن تنكب على حفر أوكار النمل بعمق مترين، في الغالب، متتبّعة الممرات الباطنية، حتى تعثر على «المخازن» فتنهبها، وكان على النساء، من ثم، أن تُحضر غرابيلها، الصغيرة منها والكبيرة معاً، ليجري فصلُ الحَبِّ المختلط. غير أن زوج مهمد بن كوچري، أم سينم، كانت معتكفة ذلك النهار، الذي صرخ فيه عفدي بضيفه: «سآخذ قرية تِرْبَسْبي»، على غربلة النخّالة، لتمزج القشور الخشنة منها بالتبن لبقرتها الوديعة كابنتها. وفي الوقت ذاته الذي كان كرزو يضرب بكفه القماشَ السميك لخيمة عفدي، كانت سينم تضرب بكفها على دلو البئر في ساحة بيت أبيها منصتةً، إلى الصدى الممتزج بهأْهَأَتِها، وقد استندت ببطنها المنتفخ على حافة الدائرة الحجرية للفوّهة، برغم أن امها حذرتها مرتين من

قبل: «ألا تحسين يا عنكبوت الحظيرة بانتفاخك هذا؟ لا تستندي إلى الحافّة هكذا، ستقتلين الحشرة التي تحملينها».

ما همّ إن قتلتْ سينمُ ذلك التعب الذي أقلق أحشاءها بانتفاخه العصيّ على فهمها؟ كانت تتأمل نفسها، في لحظات غير مُحْتَسَبةٍ من تأمُّلٍ طارىء وغريب، متلمّسة تلك الكرة التي تدفع سرّتها أَمَاماً كزهرة طائشة: «بطني. بطني»، تطلق الكلمة في حبور كحبور طفل بقوس بوله، وقد أخذت الهأهأة الصاخبة منها مأخذها. اما أمها فَعَيتْ وهي تدير السّر على محمله بأن تشد بحزام على وسط ابنتها حتى ليكاد الوليد أن ينزلق خارجاً، أو يزاحم موضع الرئتين. ولَكَمْ حثّتها، أوّل اعراض الحمل وأواسطه، أن ترفع عشرين دلواً، كل يوم، من مياه البئر، وأن تصعد السلم وتهبطه مائة مرّة، لكنها بكت - أم سينم - إذ رأت ابنتها منزلقة على الوحل الذي يُحدثه ما يندلق من الدلو حول البئر عادةً، يتنازعها الأنين والهأهأة البلهاء معاً، وهي تمسك بأحشائها، دون أن ترفع وجهها الغائص، جانبياً، في الوحل الداكن. وأم سينم، منذ ذلك اليوم، لم تحث ابنتها على شيء ثقيل من هذا: «ليكن ما يكون. هذا امتحان الله، وتعويض بالنعمة على البلاء».

«امتحان الله». كان الملاّ بيناڤ يكرر كلمتي «امتحان الله» كثيراً كلما حاول شرح الأمر لأخيه «مهمد»، لكن برينا لا تنطق بكلمة واحدة ذلك المساء، حيث يضيء المصباح الشاحب خصلة من الشعر أفلتَتْ بتمهّلٍ على طول صدغها وفكها، بينما راحت تمدُّ القابلة، من وراء ظهر امها وأم سينم، بأواني من «الجنكو» وبأقمطة كثيرة، وهي بادية الجَذَل. ومن ثم هبت منطلقة الى ظلام الساحة، وتمتمت دون أن ترى مَنْ تكلّمه في ذلك البرد الصامت: «إذهب إلى بافي كازمو، وقل له ان يهيىء عربته وجواديه وله عشر ليرات»، ومدت يدها بالنقود إلى كرزو الذي تعرف أنه يقف هناك، في الظلام، منتشراً كالنُّدف البيضاء التي توقفت قليلا لتسترسل أشدَّ هطولاً، بعد ذلك. «هاك» همست، فتناول الصبي النقود ومضى على عجل نحو بوابة السور.

أكرمت برينا القابلة فأتتها بعربة لا تخرج في ليل كذاك عادة، ثم واكبتها حتى البوابة بمصباح يتدلى لسانه المضيء ككلب عطشان. وإذ أردفت البوابة كادت تركض عائدة عبر المسافة التي لا تزيد على مائة متر، لكنها، شفقة على شعلة المصباح المتمايلة في وهن، ارتأت أن تهرول، حتى دون أن تلتفت الى شبح الصبي الملتصق بالحائط، تحت النافذة. ولما دخلت علقت المصباح إلى

جوار مصباح آخر أكبر جاماً، ثم جثت، كرّة أخرى، في الموضع ذاته، خلف المرأتين اللتين انصرفتا إلى شغلهما مع سينم ووليدها. وكانت سينم، على غير عهدها بما تعوّدته، تجس هأهأتها وهي ترفع رأسها، بين ثانية وأخرى، في ذهول ٍ شفيفٍ، ناظرة الى وجه الوليد الذي لا يبدو منه، في ظلال المصباحين، غير فم مزموم وأنف أفطس كبير على نحو واضح، وعلى نحو واضح، اكثر من المرأتين الأخريين، كانت أم سينم تطحن الاسئلة الصامتة تحت رحى أعماقها، وهي تغوص بنظراتها، عميقاً، تحت جبهة ابنتها فلا تقع إلاّ على فراغٍ يتناهشه إوزٌّ غضبان. «ابنتي». نعم، «ابنتي»: كلمة تبقى تحت لسانها الذي تعض عليه داخل فمها المغلق. وما الذي، بحق، يمكن أن تضيفه الى كلمة «ابنتي»؟. لسنين لم يمكن لأي حوار معنى، لذلك اختزلته مع بلهائها إلى اشارات بلهاء، وجُملٍ غير مكتملة، وأنصاف حروف، وتأتآت، وشتائم. وفي ودّها، الآن، ان تقولَ شيئاً آخر، فلا يسعفها غير خيط مالح من الدمع يصل العين بزاوية الفم. وعينها اليمنى، تحديداً، هي التي بدأت الكلام.

مراراً بكت زوج مهمد في الشهرين الأخيرين من حملِ ابنتها، إشفاقاً، ولم يكن يشغلها، قط، أن تقدم هي، أو زوجها، تفسيراً لأحد. إنهما غير مدينين بجواب حتى لله، بعدما شهدت هذه اللامدينة انزلاق مسجدها جنوباً، وعواصف غبار بلا نذير، وثلوجاً تثير القهقهة في فصل كان ينبغي على الناس أن تنتظر فيه أول المطر وهي جالسة على عتبات ابوابها، مشيرة الى رفوف الكراكي المترددة في عبور الشمال الدافىء حتى أعماق أنهاره الصغيرة. بل الأكثر صدقاً أن أم سينم كانت تبكي اشفاقاً على كل شيء: على ابنتها، وعفدي، وجهور، والملاّ بيناف، وخاتي، وحشمو، والرؤوس التي ترتسم ظلالها على هيئة رؤوس الكلاب. إنها تبكي لما يضفيه البكاء من خشوع على هذا العبث كله، الذي لا تدرك منه إلاّ انتفاخ بطن ابنتها: «البكاء، دون ادّعاء ذلك امام الناس، يقي أرواحنا من غواية الضحك الذي يذهب بالهيبة». هذا ما يقوله زوجها، وهي لا تفهم من ذلك الاّ ان للبكاء حشمةً لا يهتكها احد يوم القيامة، ولا يعترض الباكين ملاكٌ من الملائكة، أنّى مضوا على وجوههم في أنحاء أرض الحساب ذاتِ المقامات. غير أن ابنتها كانت تجرف بهأهأتها الملائكة الوقورين، فينسون حتى أحذيتهم النورانية وهم يهرولون خارجين من ساحة بيت مهمد. والبلهاء، طوال الشهرين الأخيرين من فترة حملها، اللذين ملأتهما أمُّها بكاءً أخرس، لم يخامرها قط أن تكون المسألة إلاّ لعباً. وهي،

بأي حال، لا ترى في كل ما تراه غير هزل يدغدغ الحياة. ولطالما كشفت عن بطنها مستطلعةً، في هذه الزاوية، أو في تلك، حين باتت تدرك، من كثرة من انتهروها، أن الآخرين لا يستحبون ذلك، ولربما عمدت إلى أن تحبو، وهي تقارن جذعها بجذع البقرة فيزيدها خيالها المتكوِّر على ذاته صخباً، فينتهرها من ينتهرها، من جديد، إذ يفضحها صخبها. وها هي ترفع رأسها قليلاً، دون هأهأة، محدقة في وجه وليدها الذي لا ترى منه غير أنفه وفمه.

أما كرزو فكان يجهد من مكمنه البارد أن يرى أكثر مما يراه، لاعناً ظهر المرأتين (زوج مهمد وزوج عقْدي) المشتغلتين على أشياء لا يراها، مستديراً بين الحين والآخر بعينيه إلى شباك الغرفة الشرقية، وقد وضع راحتيه بين فخذيه، ليشير إشارات مهدّدة إلى الرؤوس التي تتزاحم معتمةً في ما يعكسه مصباح الداخل من ظلالها، جاهدةً، بدورها، أن ترى، لكنها، يقيناً، لم تكن ترى إشارات كرزو المتوعّدة، بل الشبّاك الشحيح بضوئه، كأنما تهرب الغرفة الشمالية، رويداً، رويداً، إلى حدود أخرى للظلام.

إنهم اولاد الملاّ الثلاثة، زيوان وأخواه «عاني» و«حمزات»، مَنْ ينظرون إلى الخارج، حاجبينَ براحاتهم الصغيرة ضوء المصباح عن عيونهم الملتصقة بالزجاج حتى يروا الساحة، وهم يتتبعون كرزو بأعينهم ليكون دليلهم إلى ما يجري. وبرغم أن الظلام يقتحم الأرض مبكراً في طقس كذاك، فقد ظلوا محدقين في شبح أخيهم. وإذ تساوت الأشكال تحت خمائل الساحة المعتمة لم يتراجعوا: الراحات والأعين تزداد التصاقاً بزجاج النافذة، والأنوف تشم الخطى الخفية، حتى ليكادون أن يمدّوا أيديهم، في لحظة فضول كبيرة كالحمّى، عبر الساحة كلها، إلى جدار الغرفة الشمالية ليزيحوه، من أساسه، كباب خزانة خشبي، كاشفين المشهد على عريه.

والمشهد عارٍ، في الداخل، على كل حال: ولادة كأية ولادة. تعب، وأقمطة، وحساء محلّى من السميد والخبز، وأحاديث فَكِهَةٌ، وفضولُ أطفالٍ. غير أن ما كان ينقص هذه الولادة، لتكون كمثيلاتها، هو انتفاء الزائرين تماماً، عدا مهمد، الذي مرّ بالساحة مروراً، في ذلك الظلام. وقد توقف عند شبح كرزو دون أن يجاوزه، ثم سأله بضعة اسئلة وعاد أدراجه كما جاء. واذ مرت ساعة، أو ما يزيد قليلاً، بدأت حركة النساء الثلاث، في الداخل، تشهد يقظة قلقة. وكان كرزو، دون أن يسمع كلمة واحدة منهن،

يتـأمّـل انقـلاب الإشـارات في الأيدي، وتبـدّلات الـوجـوه المقنّعة بظلال المصباحين، مبتسمًا ابتسامة مكر يخفيها الظلام، لكنه أجفل قليلاً من صرير البوابة الكبيرة، فالتفت محدّقاً في إمعان، دون أن يسعفه الشعاع المنسرب تحت طبقة الثلج من رؤية شيء. حينذاك تقدم بنفسه صوب البوابة، وإذ قاربها توضـح له العـراء الرمادي الذي يلي الدّفّة الخشبية المفتوحة قليلاً. همس: «تفضل»، كأنما يداري ارتيابه بنبرة مؤدبة. وبالطبع لم يتفضل أحد بالدخول، فتقـدم أكثر حتى العتبة، ثم مدّ عنقه خارجاً، مديراً عينيه في اتجاه اليمين واليسار، من غير أن يرى كائناً، أو شبح كائن. واذ همَّ بردّ البوابة المفتوحة سمع خشخشة خطى في الثلج، فانتفض في اتجاه الخارج من جديد، دون أن يجاوز العتبة مما اغتلى فيه من فزع خفيفٍ كدغدغة.

لم ير كرزو أحـداً يمضي، غير أنه لمس الخطى المبتعدة لمساً بيديه لا بأذنيه، فخطا بدوره في اتجاه الشمال، حيث الخلاء الواسع الذي لا يوقفه غير خيط قصير من البيوت، ودغل ينتهي بأسلاك شائكة تفصل البّر التركي عن البّر السوري. ولم يخامر كرزو، في تتبّعه الغريب للخطى الغريبة، خوف قط. بل كان اقرب الى الغضب بانفعاله، يكاد يهرول بإصرار مَنْ يعرف أن امرأً ما فاته مراراً، وها هو الآن مشرف على إدراكه، لاهثاً: «انتظرني، انتظرني يا كلب»، ثم يتوقف مهدّداً وهو ينشج: «سأخبرهم، والله، أنك كنت هنا طول الوقت: قرب الشجرة الكهرمانية، وفي خيمة عفدي، وفي الزقاق المسدود، سأخـبرهم...» ويحتبس الكـلام في حنجرته التي تلين تحت دغدغة الدمع السـاخنة فوق وجنتيه، لكنه، إذ يستدرك حاله كمغلوب على امره، يتمتم بضع كلمات يائسة: «أنت لم تره بعد. أنت لم تر الوليد بعد. . يا».

جهـامـةٌ تتفجر بين الثلج والظلام. النساء الثلاث يغلقن بهرولتهن القلقة، في الغرفة الضيقة، ما يحاول كرزو أن يستجليه، في التصاقه الخائب بالنافذة. وهو سادر، في الأرجح، بين خيبته وبين ما يراه بعينيه دون أن يمس قلبه، كأنما يتناوبان، هو والمشهد، على الهرب، أحدهما من الآخر. والساحة سادرة بدورهـا: شجـيرة الـزيتون التي لن تكبر قط من وحشها تنفض عن ورقهـا، في تمايل حـسـابيٍّ، رقـائق الثلج التي لم تتكثّف بعد. وهي ترى الآن، كما كانت ترى في كل آن، في الظلام أو في خلافه، الجهات الأربع بحسب تتـاليهـا المنـطقي: الغـرفة الشرقية، والبوابة المتصلة بجدار الغرفة وبالسور معاً. والسور الغربي الذي ينتهي بجدار غرفة التنور. ومن ثم الغرفة

الشمالية التي تتصل، بسقفها، ببيت يجاورها، وقد وحدتها زاوية مشتركة بضلعين: شمالـيٍّ وغربـيٍّ، وفي الجنوب ثمّتَ غرفة التنور، والحظيرة الضيقة، وجدار خلفي لأحد البيوت التي تطل بأبوابها جنوباً، ممتدٌّ كسور عال بين آخر جدار للحظيرة وبين الغرفة الشرقية، حيث تتزاحم الوجوه الصغيرة على استجلاء شبح كرزو. وفي مُكْنَةِ شجيرة الزيتون هذه، عدا الجهات الأربع التي تراها، أن تتأمل السماء أيضاً. بل أن تتأمل، تحديداً، تلك التويجات الباردة البيضاء التي تفتتها يدٌ ذكوريّة من الأعلى الضائع في علوّه. وهي، بعد كل هذا، تحاول، مثل كرزو، أن ترى المشهد الذي يخفيه زجاج النافذة الغارق في الشحوب، لكنها لا تقدر ان تتطاول على جذورها، مثلما يفعل الصبي بتطاوله على أصابع قدميه، فتغمرها لوعة لا تخفيها إلّا الشبكة الرمادية المنسوجة من ثلج وظلام.

لقد تعوّدت شجيرة الزيتون التي لن تكبر قط، في غياب العائلة، ان تتفنّن في إبداء حنقها على تلك الوحدة المقدَّرة عليها عن سابق إصرار واضح، ومُحْكم. ولم تكن تأبه، بحقّ، لهؤلاء الذين تتدحرج ظلالهم البنفسجية من خلفهم على الساحة المهجورة. وهم، دون حاجة إلى تمعُّن أو حصافة، كائنات لا تراها إلّا الشجرة، بدلالة ان العصافير، وهي الأكثر ريبة بين طيور الشمال، لم تلحظ مرورها. بيد أنها، يوماً بعد يوم، ألفت حضورهم الخفيف، متسلّية كشجرةٍ وحيدةٍ، بالتأمل المرح في أحوالهم، حتى أنها صارت تفتقدهم حين يغيبون ساعات الفجر، فلا يظهرون، بعدئذ، إلّا قبيل الظهيرة. وكانت تتكهّن، كثيراً، بالذي يفعله هؤلاء - ذوو الملامح الضائعة تحت الشعور الطويلة، والعباءات التي يجرّون أذيالها وراءهم - في ساعات غيابهم تلك. وهي - الشجيرة التي لن تكبر قط - لم تكن مفطومة على أن تُغضي قط حين ينظر إليها أحد مّا: «الشجر لا يغضي». تلك بديهة النبات، إذ لا يُفْترض أن كائنا، أيّاً كان، قد يلتقي بصره ببصر جذوع تحمل أغصاناً تحمل أوراقاً وثماراً. تلك بديهة النبات، لكن شجيرة الزيتون هذه تُغضي تماماً حين يتأملها ذاك الغارق في بياض عباءته وشعره، وفي بياض عينيه أيضاً، والمتأبط دفتراً أزرق حال لون دفتيه. وكانت في إغضائها تكاد أن تلم غصونها وأوراقها لـمّا. والشجيرة، وهذا ما حيّرها، كانت ترى الجهات بكليّتها: من هذه الورقة ومن تلك؛ من هذا الغصين ومن ذاك، فكيف يحصرها الكائن ذو الدفتر حصراً بنظرة تحيلها عيناً واحدة في قبالة عين واحدة؟

انه، يقيناً، رقيب المكان المهجور عليها، كما هي رقيب المكان المهجور عليه وعلى الجمهرة الشبيهة به. ولقد طالت فترات المجابهة، بتتالي الوقت، بينها وبين الكائن ذاك، حتى أجفلها، ذات مرّة، مقترباً اقتراباً غطاها بظله البنفسجي، فأحسّتْ به كما لم تحس، من قبل، بشيء آخر، قط.

إنها تعرف ما تتركه الريح، قويُّها، ورخيُّها، بين الغصون؛ وتعرف نَهْبَ البرد ونهب الحر. تعرف الغبار الطائش والمطر الوديع، وخلافهما. ولكل معرفةٍ من هذه أثر يسري بأهوائه الى أعماق جذورها، حَرِّيفاً مرّة وحامضاً مرّةً، مُرّا مرّة وحلواً مرَّة. مِزّاً مرّةً وما بين هذا وذاك، مرّة اخرى. غير أن لظل الكائن الحامل دفتره مذاقاً شيّقاً؛ مذاقاً كسيادة جذر قويٍّ أو كسيادة ثمرة قوية؛ مذاقاً كانتظارٍ مُفْعَم بالعذوبة أو بالشهوة. أما حركة يد ذلك الأبيض من ثيابه حتى عينيه فكانت أشبه بحركةٍ رؤوم عهدتها الشجيرة من قبل. إذ دأبت تلك اليد، مراراً، على أن تُقَلِّبَ بعضَ الورقات، كأنها تتفحّص عافية الشجرة طُرّاً، في رأفةِ مَنْ يُقْلِقُ طفلاً بقبلةٍ لا محيد عنها. وراعها كم الحركة تلك شبيهة بما كانت يد الملاّ بيناف تهرقهُ، بأناملها الخشنة من أثر الوضوء في البرد، على أوراقها. ولقد كانت الشجرة تتأمّل أنامل الرجلِ الوقور، زوج برينا، بخلجاتٍ وَلَهَةٍ، ولو مكّنها الكلامُ منه لاستوقفته وهو يقلّب ورقاتها، داعية كل عطف فيه أن ينثني على غصين منها: «أغمرني بك قبل أن تأخذك الظلال». وللظلال، في عرف الشجيرة التي لن تكبر قط، مقام قَلِقٌ: الظلال لعبة طائشة. الظلال هي ضجر الكُتلة من كثافة الكتلة.

لم يكن غير الظلال في الساحة المهجورة، قبل رجوع برينا بأولاد زوجها إلى البيت. وكانت الشجيرة عاكفة على تصنيفها بحسب اللون والشكل والرائحة. نعم.. «للظلال رائحة». هذا ما عرفته هذه النبتة الغبراء التي لم يجاوز طولها المتر، وقد تنسّمتِ الظلَّ البنفسجي الذي كساها فألفته على مزيج من رائحة الملاّ بيناف. وهي تعرف رائحة الملاّ بيناف العالقة بها وبالتراب الذي من حولها. وإذ تحاول تحديدها يستعصي التحديد: «رائحة.. كماذا؟». إنها مترفة باختلافها على كل حال، وها للكائن الأبيض الغارق في بياضه نَسَبٌ ما، برائحة ظله، إلى الرجل الوقور الذي أخذته الظلال، بحسب تخمين الشجيرة، لذلك استأنست يدَهُ. وها هي ترى، الآن، من المكان ذاته، شبح كرزو المهرول في الظلام صوب البوابة، بعدما أحسّتْ مثله، تماماً، بأن أحداً ما يسترق النظر الى الساحة، من وراء الدّفّة التي فتحها على بعض

مصراعهـا. وكمثـل كرزو، أيضـاً، تعرف من يقف هناك؛ تعرف الخطى الأكيدة التي تخشخش في الثلج، ذاهبة في الاتجاه ذاته؛ إلى ضجر الكثافة من كتلتها.

ما من تحديد للمسألة في برهة الراهن، تحت صرخات الوليد الآتي من أحشـاء سينم بكل جهالة تلك الأحشاء. وما من تحديد للمسألة في البرهة التـالية التي شهدت إنقلاب حركات النساء في غرفة سينم: «المسألة!! أية مسـألـة؟» قد تهمس أعـماق أحد مّا، وهو على حقٍّ يقيناً، مثله مثل كرزو والشجيرة، إذ أن صورة أم سينم وأم برينا، وهما تخرجان معاً، ملتصقتين، في ذهول يتبيّنه الثلج وسور الساحة، يوقظ الكلَّ (الهواءَ، وما يلمسه الهواءُ) على مهزلة دخلت بيت الملاّ، ثانية، بعد تسعة أشهر من تشرّدها. ومُـخْتَصَرُ اللعبة كلّها، أن سينم أنجبت ابناً ذكراً على هيئة أبيه في انقلاباته، وما كادت تحـلّ الساعة الثانية من ولادته حتى كان يتحسس شاربيه كمن يتفكّر في اعتذار مناسب. وكانت برينا تتفكّر، بدورها، في اعتذار مناسب، لا إلى أحد، بل إلى نفسها: «لا بأس»، ومن ثم تتطلع من حولها كأنّما تستنجد: «أين أنت يا بيناف؟».

كان على أم سينم وأم برينا أن تعودا الى الداخل من جديد، بعد ذلك الهرب الذي لا تعرفان لماذا اقدمتا عليه، وقد تبعهما كرزو، مستغلاً ذهولهما، وشرودهما عنه، فألفى برينا ممسكة بيد ابن ابنها المستند بظهره إلى مخدة عالية، وهي تسأله في هدوء ثقيل: «ماذا نسميك؟»، فابتسم الوليد الذي اقتسمت ملامـحَـهُ الغامضة ظلالُ المصباحين، ملتفتاً إلى أمه المفتوحة الفم على هأهأةٍ محتبسة: «ماذا ستسمينني يا أمي؟»، فانطلقت الهأهأة عارمةً من بين شفتي البلهـاء التي لم ترفع رأسها المعصوب عن المخدّة. «أووه» تمتم ابن بيكاس مستـدركـاً، وأردف: «خُلِقْتِ من الهَـأْهَأَةِ يا أمي». وتفرس فيها في حنان رجوليٍّ: «لقد ملكتِ كلَّ شيء». ثم جال ببصره على وجهي المرأتين المختفيتين في ثيابهما الثقيلة كروحيهما، وجاوزهما إلى وجه كرزو الغارق في الظل من خلف المـرأتين، مبتسمًا: «أنت كرزو، إذاً؟ حـيّـرتني يا ابن جدي»، فلم يعقب كرزو، بل نطقت برينا: «أتعرفه أيضاً؟ حـيّـرك بماذا يا. . »، فأكمل ابن ابنها ما لم تقله هي في جملتها: «بيكاس. فلأكن بيكاس الثاني يا جدتي. هذا هو اسمي». «بيكاس» رددت برينا بعده، وأكملت: «ليكن يا بيكاس. قل بِمَ

حيّرك، كرزو؟»، فنظر بيكاس الثاني إلى كرزو، لا إلى جدته: «حيّرني بلعبته».

ليس على أحد أن يغرق في شروح تتصل بشروح، لذلك تواطأ الحاضرون، من كرزو الى البلهاء، على مجاوزة ما يستوقفُ عادةً. فإن وردت كلمة «حيرني بلعبته» على لسان بيكاس الثاني، فما من داعٍ لاستيضاحه في أمر اللعبة التي يعنيها. والأجدى أن تتم المجادلات، من ثَمَّ، على انفراد: أم سينم ستسأل أم برينا عن المحنة الجديدة. برينا ستسأل كرزو عن اقتحامه للغرفة. سينم ستسأل ابنها إنْ كان ديكاً. كرزو سيسأل بيكاس الثاني عن الذي يعنيه بكلمة «حيَّرتني بلعبتك». ابن سينم المحيِّر سيسأل برينا عن مدى تعبها من العبء الذي حمَّلها أبوه، والذي سيحمِّلها، هو، الآن. شجيرة الزيتون، التي لن تكبر قط، ستسأل الشبح المقترب، رويداً رويداً، صوبها، وهو ينظر في اتجاه نافذة غرفة سينم، عن الملاّ بيناف. وسيسأل الثلجُ الظلامَ عن قلقه الظاهر هذه الليلة.

أسئلةٌ، أو بقايا اسئلة. غير أن العيون يقظى على المشهد: الآدميون، والشجيرة، والثلج والظلام، واللامرئيون، يرقب أحدهم الآخر في فضول منمّق لا خوفَ فيه، أو قلق. لعبةٌ تُسْتكْمَلُ، وليلٌ يزحف زحفاً في اتجاه الغد، كجريح قابض على أحشائه خوفَ أن تندلق. وصوتٌ ليس الاّ صوت كرزو وهو يخاصم أمّ سينم التي نهرته على وجوده في الغرفة: «إذهبي أنتِ الى بيتك. سأبقى هنا»، فتردّ عليه برينا: «إخجل يا كرزو من زوج عمّك». ومن ثم يرتفع، على غير تقدير، صوت سينم ذاتها: «أبي لا ينام»، فتهمس أمها: «نامي أنت يا ابنتي. أبوك نائم الآن».

ما الذي ألهم سينم جملتها تلك؟ مهمد بن كوجري رجلٌ وديع وصموت. تقيٌّ وعفيفٌ. مكتفٍ، ولا أسئلة لديه عن أحوال العالم. زوّجه أبوه ذو القرنين، حسين بن حسو الميرسيني بن كوجري، من «عيشانة» بنت «أُوسي بدرخان» وهو لم يزل صبيّاً. ويزعم الزاعمون أنه دخل عليها بعد سنتين من وجودها في عهدته. وكان دافع حسين الجليُّ هو تقرُّبه الغامض من «أوسي» الذي لا نفوذ له على أحد، بل يحمل في جسمه ما يحار أيّ نفوذ في فهم ذلك. وللغرائب، بحسب عرف الناس في الشمال، كراماتٌ. وما من تفسير لإقدام حسين على تزويج ابنه الصبي غير ذلك. والأمر، برمَّتِه، أن «أوسي» أصيب بطلقة في الحرب التي دارت بين الاكراد والبدو في قرية «قولو»، وقد انتقل، من

ثم، مع المنتقلين من أمثـال حسين بن كوچري، الى قرية موسيسانا، لكن جراحه التي حشاها تراباً ليوقف النزيف، آن أصيب، تفتقت عن حرشوف أخضر، امتد بأوراقه الشوكية، من الكتف الأيمن الى العنق، نزولاً الى الثدي الأيسر.

أكان التراب الذي حشا به جراحه مختلطاً ببذور الحرشوف؟ من يدري؟ غير أن الرجل كان يصرِّح أنه لا يشعر بأي ألم من نمو ذلك النبات في جسده، برغم اضطراره الى قدِّ ثيابه في المستوى الذي ينمو النبات فيه. وبات ذهوله الـذي اعـتراه، أول الأمـر، يتحول، يوماً بعد آخر، الى خيلاء، رأى فيها الآخـرون قسـطاً من امتحانٍ إلهيٍّ جدير بالتكريم. ولهذا تقدم حسين بن كوچـري إليه طالبـاً يد ابنتـه فوهبها «أوسي» له. وبعد أيام من انتقال ابنة «أوسي» إلى بيت حسين، انتقل الرجل ذو الحرشوف الى مقبرة موسيسانا. فلقد غطى النبـات جسده حتى غدا ظهوره بين الناس مستحيلاً، وغدا ارتداؤه للثياب امـراً كالتعـذيب. وإذ حاول بعض أهله تشـذيب ذلـك الحرشوف بالمقص الذي يستخدمونه لجزِّ الصوف، هزّهم صراخ الرجل كأنما يقتطعون اعضاءه، فكفّوا عن ذلك. غير أن الحرشوف امتد وفاض، فكان الرجل، إذا مشى، يجرّ وراءه ذيلاً من النبـات كذيل العبـاءة. ولـمّا اصفـرّ حرشـوف الـبـرّيّـة، في ربيع ذلك العام، اصفرّ «أوسي» بدوره، ثم يَبِسَ ومات. ومذْ دفنوه في مقبرة موسيسانا، بات الحرشوف يغطيها كل ربيع، من أول قبر في جهة القبلة إلى آخر قبر. فاستبدّ بأهل الموتى غضب لم يخفوه، وهم يتعوّذون بالله آن مرورهم بقبر «أوسي». بل تنبّه اولاد أوسي، في ما بعد، على محاولات غير مكتملة لنبش القبر، فغطوه بِرَصْفٍ من الحجارة الثقيلة في دائرة قطرها أربعة أمتار.

«أبي لا ينام» تكرّر سينم كلماتها، فلا يردّ امها، بل يرد بيكاس الثاني: «إذا نمت يا أمي ينمْ جدي ايضاً»، فتغطي سينم وجهها، على حين غرّة، باللحـاف، ثم تَسْفِـرُهُ على النحـو المفاجىء ذاته، كما يفعل الأطفال حين يلهـون، مهـأهِئةً: «نامت الدجاجة. نامت البئر. نام السور. نام كَلَشْ. نامت بريخانة. نام الشّبّاك..»، فتقاطعها برينا: «كلنا سننام يا سينم. أَلَسْتِ جوعـانـة؟»، غير أن البلهـاء تجاوز السؤال، محتوية، بغتةً، رأس ابنها بين ذراعيها: «أنت ديك».

بيكاس الثاني يزداد اتساعاً، خليّةً خليّةً، شعرةً شعرةً، عظْمةً عظْمةً،

ثَنْيةً ثنْيةً، غضروفاً غضروفاً، مفصلاً مفصلاً، تجعيدةً تجعيدةً، ظلاً ظلاً، عمقاً عمقاً، وكثافةً كثافةً. بيكاس الثاني يختزل كلام الآخرين إلى حروف تعجّب، وبعض الإشارات العمياء في الملامح الحائرة. والحاضرون، يقيناً، (أربعٌ نساء وصبي) يستأهلون هذا الاختزال، وهذا التقتير في الشرح وفي غيره. فالجميع مرّوا، من قبل، بما يرونه الآن، وبيكاس الثاني، على غير عهدهم بأبيه، ملولٌ حتى الإعياء. ضَجِرٌ من الأسئلة، متأفّفٌ: «أستبقون من حولي هكذا؟ دعوا أمي تتنفّس، ودعوني أتنفّس». فيلتصق الجالسون من حوله بالأرض بكلّابات خفيَّة، ثم يتململون فيخلعونها ناهضين كالأشباح: «أنتركك مع أمك؟» يقول صوت ما على اللاتعيين، فيردّ المتكيء الغامض، ابنُ ظلٍ يحمل دفتره الأزرق أبداً: «لا. سأخرج أنا، ولتبقوا أنتم في هذه الغرفة».

حين انسل بيكاس الثاني من تحت اللحاف السميك لم يكن عارياً، بل يرتدي ثياباً نسائية هي بعض من ثياب برينا نفسها، التي لم تغفل عن أمر كهذا، فأحضرت لحفيدها ما لم تجد غيره في بيتها. وحين شارف الباب استوقفته جدته: «أأنت خارج حقاً؟»، غير أنه لم يجب، بل مد يده إلى مقبض الباب فأداره، ثم خرج تواكبه كلمات متفرقة: «قدماك حافيتان. البرد. خذ اللحاف». واذ اوصده من خلفه كاد يتنفسُ الظلامَ كلَّه ملء رئتيه: «ها أنا». وتقدم حافياً في الثلج صوب شجيرة الزيتون. تأملها كمن يرى في الليل أعمق أعماق جذورها، ثم دار من حولها نصف دورة، مبتسمًا، واتجه الى البوابة الكبيرة في السور، متغاضياً عن خطوات كرزو الخفيفة التي تبعته. فتحها، ودلف خارجاً.

ثمت أمر يحصل اتفاقاً وسط الظلام المهيمن، وكرزو يعد خطوات ابن أخيه إلى الجهة المعلومة تماماً: «كنت أعرف» يقول الصبي لنفسه. «كنت أعرف انه هنا». ثم جلس القرفصاء لصق السور، وهو يمعن النظر في شبحين يستغرقان في عناق طويل، وينفصلان مسافة خطوتين بعد ذلك، يتفرس أحدهما في الآخر، ثم يمضيان شمالاً. وإذ تقدّم كرزو خلفهما، بالخفّة ذاتها، عثر في مكان عناقهما على مستطيل رمادي، لم يكن غير دفتر حال لون دفتيه فما يُميَّزُ قط، في ذلك الظلام. وضعه كرزو تحت إبطه في إهمال، وقد أخذته الحيرة: أيمضي قُدُماً أم يرجع؟ وآثر، بغتة، ان يرجع، هامساً في قرارته: «لن يبتعدا».

لم يكن كرزو في حاجة الى شرح شيء حين دخل غرفة سينم المضطجعة بذلك الدفتر. ألقت النساء الأربع عليه نظرة غير مستفسرةٍ قط، ثم عَدلْنَ النظرة تلك فيما بينهنّ فأمست استجلاءً وفضولاً حول سِيَر آبائهن. وكنّ يتناوبن - أم سينم وأم برينا وبرينا ذاتها - الكلام، في حمّى يرتفع فيها الحرف المهموس وأخوه معاً، كأنما يضربن بذاكراتهن المبسوطة، كمراوح القش، تلك اليعاسيب اللجوجة التي تحمل الحاضر من جدار إلى جدار في الغرفة الضيقة. ومن العسير، بالطبع، شرح إقدامهنّ على سرد سِيَر الآباء، على هذا النحو من الإستغراق الذي أنساهنّ ما هنّ فيه. نتفٌ تتداخل: شهامات لا حدود لها، وبسالات لا حدود لها. قرون من شَعْرٍ لكل الرجال. حواجب معقودة على كثافتها. قامات منحنية في خفرٍ ذكوري من أثر التواضع. عيون لا تحدّق بل تومىء. جباه بغضون قد تبني العصافير أعشاشها فيها. أنامل طويلة، وراحات وسيعة تقبض على حقل بأكمله. أقدام مفلطحة كما ينبغي ان تكون أقدام رجال يَزِنون الأرض من تحتهم، وأعضاء أخرى يجري الكلام عنها في همس نديٍّ.

آباء يجدرُ بأيٍّ أن ينتسب اليهم. آباء متهوِّرون يخترقون أعماق أبنائهم من الطفولة حتى الشيخوخة، فيخلخلونهم. وسينم ترفع رأسها بغتة، قائلة: «ابي لا ينام»، فيرد كرزو في لؤم لا يخفى: «ليس على أحد أن ينام». وليس على أحد، يقيناً، أن ينام في هذه الفوضى الغامرة للطقس وللوقائع. فحشمو وجهور يتناوبان الصعود الى قمة السُّلّم الكهرماني ككشّافين على صارية؛ وعفدي يقتسم، بصوت عال، أقاليمَ لم يرها، بينه وبين الظلام في خيمته. وقرية «الهلالية» تغرق في دوي الطلقات التي لا تهدأ بين المهرّبين وخَفَر الحدود؛ ونهر «جغجغ» تلتحمُ ضفاف فرعيه بالثلج الذي يتمدّد قليلاً قليلاً فوق الماء كأغصان الغَرَب. وشجيرة الزيتون التي لن تكبر قط، من وحشتها، تنتفض من همس صوتٍ تعرفه يسأل شخصاً تعرفه: «أين الدفتر؟». وكرزو يتجاهل نظرات برينا إلى الدفتر الملتصق بأضلاعه الرقيقة تحت إبطه، وهي حيرى في مقارنته بالذي كان زوجها يتأمل فيه فضَّةَ رعبه. اما الحالُ التي وصلتْ دغلَ «الهلالية» بدغل «نصيبين» فكانت إمعاناً من الشمال في حبكته المضحكة: فما من ورقة سقطتَ من شجرة في الدغل ذاك إلّا سقط مثلها في الدغل هذا. ما تطاول غصن في دغل الهلالية الّا تطاول مثله في دغل نصيبين. ما مال جذع شجرة في دغل الهلالية إلّا مال مثله في دغل نصيبين.

ما انحدر جذر في تراب دغل الهلالية أعمقَ إلاّ انحدر مثله، أعمقَ، في تراب دغل نصيبين. أيُّ غصن في دغل الهلالية يرى، من عليائه، ما يراه غصن في دغل نصيبين. أية ورقة في دغل الهلالية ترى، الى اسفل وإلى أعلى، ما تراه ورقة في دغل نصيبين. ايٌّ جذر في دغل الهلالية يشمّ الذي يشمه جذر في دغل نصيبين: كل دغل يحصر المدى بباصرتين: باصرته وباصرة الدغل الآخر. تقاطعٌ، وتخاطُرٌ، يهيمنان حتى ليكاد النسغ في شجرة من دغل الهلالية أن يسيل من جذع شجرة في دغل نصيبين إذا تجرّح.

اقتسام نباتيٌ للرؤى كلِّها، وللمكان كلّه، والثلج والظلام اللذان يهرقان المسافة فتضيق كبؤبؤ، أو تتسع كبؤبؤ، يرفعان طرقاتهما على بوابة بيت الملاّ بيناف، فتلتفت برينا متسائلة: «كرزو؟»، واذ تقع عيناها عليه عاكفاً على صفحات الدفتر قرب المدفأة تومىء: «الباب. افتح الباب»، فينهض الصبي متثاقلاً، وقد ضمّ الدفتر ثانية تحت إبطه، ثم يمضي ليفتح البوابة المرتفعة في ظلام الجهة الشرقية.

كان الوهج البنفسجي قاسياً على عيني كرزو حين فتح البوابة: رجال متحلّقون في ثبات صارم، لاتبين من رؤوسهم إلاّ خِصَلُ شعر على الجانبين، مشعّة بفعل الضوء الذي يحجبونه بظهورهم. ولم يفطن كرزو، من المفاجأة، ان يسأل نفسه عن مصدر الضوء، وهو العارف ان لا ضوء في ذلك الزقاق، او في غيره، من بيتهم حتى وسط المدينة، حيث ترتفع، هناك، قرب المباني الحكومية، بعض الأعمدة ذات الفاكهة الزجاجية في الأعلى، وقد أحس طعمًا حامضاً تحت لسانه، وخدراً في ارنبتي انفه حين مضى أولئك الرجال، على مهل، إثر سؤال صغير، وهو يلمح بغالاً مضيئة تتبعهم، فتختلط ظلالهم بذعره الصامت.

«اين ابن بيكاس؟» كان هذا هو سؤال احدهم، بصوت خافت ذي رنين قسّم إجابة الصبي إلى مقاطع مرتعشة: «لا. . خرج. . رأيتهما يمضيان. . نعم. . هناك»، فاستداروا الى حيث اشار، ومضوا. غير أن كرزو، برغم ذلك الثقل الغريب في دمه، وفي حدقتي عينيه، آثر الوقوف أمام البوابة، وقد راعه أن أولئك الرجال توقفوا بعد مدى غير بعيد، متحلقين، من جديد، حول شبحين التقوهما اتفاقاً، وقد حدّد شكلهما الضوء ذاته الذي يلف ظهور البعض وجوانب من وجوه البعض الآخر، فتقدم مستأنساً وقد عرف ابن اخيه بيكاس الثاني، لكن ابن سينم هذا فضّ الحلقة متجهاً صوب الصبي،

بخطى نصف عجولة يُشْتَمُّ منها نفادُ صبر، أو تعنيفٌ، لا بدَّ منه، وإذ قاربه رفع يديه مباعداً ما بين أصابعها، نافخاً: «من أنت يا كرزو؟».

سينم تتكىء على مرفقيها وهي ترفع نفسها صوب الوسادة لصق الجدار، ناظرة إلى أمها في اعتذار طفولي لا مبرر له، كأنما تقترف ذنباً، برغم هأهأتها التي توحي بشيء آخر. وسينم لا تخفي، كونُها بلهاء، ذلك التساؤل الأحمق الذي استبد بها: «أين بطني»؟ منحنية برقبتها صوب نصفها السفليّ، مسترسلةً وهي تضرب كفاً بكف: «خرج الديك»، وسط النظرات المشفقة للنساء الأخريات اللواتي لم يتوقفن عن سرد سِيَر آبائهن: «هكذا انهار ابن كزمو الـدَّقُوْريّ». «هكذا أهوى عليه بالخيزرانة فتَجمد سبعة اشهر من فزعه». «هكذا وُضِع العقالُ في رقبته فاسترسل الزّبد من فمه حتى آخر بيت هناك».

«لا. كلب كالبقية. وثق به فأغمد في اضلاعه، من القفص الصدري حتى العمودِ الفقري، شيشَ التنور، لكنه تحامل على جرحه فخنقه بيديه، وظل جالساً، أربعة أيام، لصق جدار بيته، لا يبارحه ليلاً أو نهاراً، بينما تجدّد امرأته النار المشتعلة في الحطب كلما خبت. وإذ حضر بعض الدرك الخيّالة من عامودا أشار إليهم أن يتقدّموا فتقدّموا. وبينما هم في قبالته أخرج الشيش، الذي بقي مُغْمداً هناك أربعة أيام، من بين أضلاعه، أصفرَ كأنما غُسِلَ بالزعفران، وأحني برأسه الى الخلف، حتى لامس الجدار، هامساً: «أصاب الشيشُ شجرةَ وردٍ في الجنة».

ما من شيء سيوقف النساء عن رواياتهنّ، كأنما يبتعدن قليلاً قليلاً عن ريشة الملهاة الساقطة من فراغ أعماقهن على سجادة الغرفة. سيثرثرن حتى يضيع آباؤهن في مهاوي الكلام. سيخترعن ويسترسلن، نافخاتٍ في الإستفاضات أرواحاً ميتة. ستؤكد واحدتهن ما تقوله الأخرى بإحناءَةٍ من رأسها لتمضي، هي، في سرد ما ستؤكده الثالثةُ بإحناءَةٍ من رأسها أيضاً. وإذ ستتفتق جماجمهن الصغيرة عن تويجات الكذب الصغيرة، ستمهل إحداهن الأخرى فائضاً في الطنّين، ضماناً لدورها هي، حتى تستنفد المتحدِّثةُ أنفاسها.

ثلاث نساء: أمٌ وابنتها، وجَدّةٌ وليد الإبنة، وعراء أبيض محدّد بسور تفضي بوّابته الى عراءٍ أبهى، قلقٍ من شهوته إلى مدى لا يُساكنه أنسيٌّ أو وحشي، لكنه راضخ، في ذلّ، لخطوات رجال يستديرون بلحاهم البنفسجية الى حيث يقترب ابن بيكاس من كرزو، صارخاً به: «من أنت يا

كرزو؟». والصبيُّ يحار من سؤال ابن أخيه، فيتمتم: «أنـا؟»، ثم يتدارك نفسه: «وماذا أكون غير كرزو؟». غير أن سؤالاً آخر يخلعه من أعماقه المندلقة: «أين الـدفتر؟»، فيلتفت الى مصدر الصوت المتسلل من بين حلقة الرجال الغريبين، فلا يلمح الاّ نصف وجهٍ معتمٍ، بعيدٍ قليلاً، لكن أنفاسه الثقيلة تلمس غرَّة الصبي كأنما هو على مقربة أنملٍ منه. ويغيم المشهد، برّمته، في عيني كرزو، دون أن يصـدق: «الـدفتر؟»، ناظراً الى يديه الفارغتين، وقد رفعهما على نحوٍ يوحي بالدعاء: «أين الدفتر؟» ويستدير برأسه الى الخلف، صوب بيت أبيهً: «أظنني نسيته هناك».

كان الـدفـتر معه حين خرج، غير أن انزلاقه من تحت إبطه، هنا أو هنـاك، سهواً، لا يبدّل من دهشه العامر بالصوت الذي فَجَأَهُ لبرهة، وهو العارف، طوال الوقت أن صاحب الصوت لم يبارح المكان: «كان هنا. والله كان هنا» يردد الصبي الصامت في أعماقه، مضيفاً بصوت مجفل مرتعش: «أين أبي يا بيكاس؟». وبيكاس لا يرد، لأنه استدار، كأنما هو عازف عن إجابة الصبي على سؤالـه. لكن كرزو يتقـدم من ورائـه، مزمعاً ان يسأله ثانية، فيستوقفه «بيكاس الثاني»: «انت لجوج. إسأل جدك عقدي ساري».

لم يكن مهـمًا أن يسأل احداً، فالظلام الرمادي مثقل بحركة الرجال الغامضين، وعينا الصبي لا تستوعبان فترتدان إلى حدود معرفتهما بالأشكال، تماماًكما ترتد عينا سينم إلى حدود أقاليمها الصغيرة، هناك، في المكامن التي تقضم الجهاتُ منها مسافاتِها. أو تنكمش كحلزونات مذعورة. وسينم، من مكانها الدافىء تحت اللحاف السميك، لا تصغي الى آباء النسوة الخارجين من ظلال المصباحين الشاحبين في الغرفة، بل إلى العماء الملقى كوشاح على الخارج كله، سارحةً معهُ سَرَحانَهُ الاعمى، حيث يخرج والدها من جهة الزقاق الذي اغلقه جهور وحشمو، وتخرج هي من جهة الزقاق الغربي الموازي لذاك المغلق، ملتفةً حول نفسها، في المركز الذي يتحول فيه ظل رأسها الى هيئةٍ كلبية، وهي تصرخ: «أنا لست أميّ. أنا صبيٌّ». هكذا ردّدت ما ردّدوه على مسـامعهـا، حين كانت امهـا تُرضـع، دون سبب واضح، خروفاً في يومه الثالث، من ثديها. ولّما همّت هي، بدورها، ان تعري صدرها، قيل لها إنها صبي، لأن الصبي لا يملك ثديين مُرْضعين أو ناهدين. غير أن ثدييها كانا على حجم يؤبه له، وإذ بوغتت بظل رأسها الغريب قالت ما قالته دون أن تحاجـج نفسهـا على ذلك، بل كادت تضيف كلمات أخرى من مثل: «انا

سروال»، أو «وسِّـع الغربالَ يا ربّ». والكلمة الأخيرة من اختلاقات أمها المتباهية، في هدوء شديد، بإيراد حِكَمٍ من هذا النوع، وهي تفسّر الغربال على أنـه الرَّحم، يَسْقُطُ الطالح منه ويبقى فيه الصالح. وكان على الله أن يوسّع قليلاً، بحكمته، في ثقوب الغربال لتسقط سينم. لكنّ ما حدث لا يُرَدّ، فبقيت البلهاء. والبلهاء تنبس بحكمة أمها على خلاف القصد منها. ببغاء. هكذا، عليها أن تكون ببغاءَ جحيمٍ باردٍ، منتشر كالثلج الذي يحاصر الأرض بمنجنيقاته البيضاء، ناظراً في غضب الى الأعلى البعيد كبياضه. أما والدها الذي يخرج من الجهة الاخرى المسدودة، فيهمس، إذ يفجؤه ظل رأسه على هيئـةٍ آدمية، لا كلبية: «سـامحيني أيتهـا البلهاء، يا ابنتي، ويا سندي الرحيم». وهو يذكر ابنته، لا سواها، بسبب من خصامها المضحك قبل قليل من ذلك، فلقد عنّفها على إلقاء حجارة في البئر، منحنية على مائها بذلك الانتفاخ الـمُـتْـرَف الذي يتوسطه سُـرَّتُـها: «تفسدين الماء، وأنت لا تساوين دلواً منه»، ثم شدَّها من إحدى جديلتيها حتى انها ترنّحت، وكادت تسقط على جنب، وإذ تمالكت البلهاء استقامتها ثانيةً، قالت وهي تُهأْهِىء: «الماء حفرة يا أبي، وأنت حارس الحفرة» فردّ عليها: «وأنت مصيبة»، فوافقته بغتةً: «أنـا مصيبـة. البئر مصيبة، وأنت مجنون»، فَهمَّ مغضباً، وهو الهادىء أن يصفعها، لكنها استرسلت في كلام جمّد يد الرجل من خجله: «أحبك يا أبي. أحبّ ظلّك»، والتفت صوب البئر: «البئر تسرقك» فحار «مهمد بن كوچري» بأيٍّ يجيب، ثم استدار ماضياً الى جهة الزقاق المسدود.

«لماذا عليّ ان أسأل عقدي ساري؟» يتمتم كرزو. أثمت من يستطيع أن يسـأل عفـدي ساري، على أية حال؟. الخيمة موصدة، من الداخل، بالأخشاب وبأشياء اخرى لا يعرفها غير ساكنها. ولربما أخفاها الثلج، الآن، تماماً، وليس على أحد إبداءُ قلقٍ مّـا حول الأمر، فالتواطؤ محكمٌ. ففي اليوم الاول، أو الثاني، أو الثالث، أو أيّ يوم يشاء فيه الثلج أن يحتضن الخيمة من أوتادها إلى عَمَدها، سيلتفت اولاده، واحدهم الى الآخر، مذكرين بعضهم البعضِ بأصغر أثر، أو أكبر أثر، ضائع في ساحة البيت، متغافلين عن الأكثر وضوحاً وثقلاً، أيْ: الخيمة. الأم ستنادي في دجاجاتها الراكنات إلى حيث تتسنّى لها المخـابىء، وهي تذرُّ فُتَـاتَ خبز على الصّحْفة الباردة البيضـاء، ساهيةً، عمداً، عن مكان الخيمة. بضع دجاجات سيعبرن الهضبة الثلجية الصغيرة، التي ليست غير الخيمة المدفونة تحت طبقة من النُّدف، كأنما كن

يعبرنها منذ مائتي عام، على نحو عاديّ مُشبْع بعادِيّتِهِ. البئر، وسط الساحة، ستبقى مغلقة على مائها. وحدهنَّ الحيوانات التي في الحظيرة قد يختلقن صخباً خفيفاً، لا على اختفاء الخيمة وساكنها، بالطبع، بل طلباً لزاد، او دلالاً كعهد الحيوان بذلك.

من القادر ان يتكهنّ بالمجرى الساخر لسخرية الثلج في عبوره الشمال شبراً شبراً؟. وكرزو، الذي يتساءل قليلاً عن مغزى ما قاله بيكاس الثاني عن وجوب مساءلة عفدي، ينسى الـمُساءَلـةَ كلَّها، عائداً أدراجه صوب البيت، وهو يتقرّى بعينيه الساهمتين، وبقدميه، خطّ مجيئه الضائع، عسى يقعُ على أثر للدفتر. ويتوقف، من ثم، على مبعدة خطوات من بوّابة السور حين يسمع من يتتبع خطاه، وإذ يلتفت يرى شبحين يلحقان به في تؤدة.

كان أولاد المـلّا الثـلاثـة الآخـرون نائمين لـمّـا فتح كرزو الباب، هامساً: «ادخلا». لكن بيكاس الثاني، الذي ألقى من الباب نظرة شاحبة كشحوبه على الأولاد الراقدين في ظل مصباح محتضر، لم يدخل، بل التفت إلى باب الغـرفـة الثانية في الجهة الشرقية، سائلا: «من يرقد هناك؟»، فردّ الصبي: «لا أحد. لكنها باردة، ولا مدفأة فيها»، فتمتم ابن سينم: «ليكُنْ»، واتجه صوبها بالشبح الآخر الذي يتبعه. وحين صارا داخلها أغلقا الباب من ورائهما، فلم يتمالك كرزو نفسه، إذ بقي وحيداً في الساحة العمياء، إلّا أن يعـرض خدمـاته بإحساس موحش: «سأشعل لكما المصباح. لن تعرفا أين هو»، وتقدم مهرولاً، بيد أن الصوت الخفيض الذي أتاه، من الداخل، ردّه على عقبيه: «لا نريد المصباح».

خلال احدى عشرة سنة رفض «باران بن ساري»، جد عفدي ساري أبي برينا، وجد جدّ برينا، قبل انتقاله من «عامودا» الى «موسيسانا»، أن تشعل زوجه المصباح في حضوره: «الظلامُ رفاهيةُ الكائن». وكان يغادر بيته مع المغيب الذي يطول قدومه صيفاً، ويحل على عجل في الشتاء، ذاهباً إلى السور الذي يسميه «حدوداً». ولم يكن ذلك السور سورَ مكانٍ مملوكٍ، بل يقوم، متعـرّجاً على حافة اخدود ربما كان نهراً ذات يوم. سور قديم بلَبناتٍ ترابية متراصّة ممحوّة، خلّفهُ الرعاة، أو الفلاحون الذين أقاموا هناك، في وقت خلا. غير ان «باران» رأى فيه حدوداً بين الأرض من جهة، وبين الواقع الإلهي من جهة أخرى: «هناك» ويشير بإصبعه إلى الأفق في ما وراء السور: «هناك يدور النَّوْرَجُ الأقوى بقواطعه الذهبية. هناك النعمة».

ما من حمار، أو رجـل، أو طفل، أو امرأة، إلاّ رأى ما خلف ذلك السور، عدا «باران». بضع خطوات ويجد المرء نفسه في الجهة الأخرى من السور غير المديد، حيث تستمر الأرض هي ذاتها، ما قبله وما بعده، ترابيّةً ذات أخاديد من أثر الجرف والسيول التي تتحدّر من الجهة الشرقية. ولكن «بـاران» يقسِّمُ بذلـك السـور الهـواء، والوقت، والخيال جميعاً: «هناك.. هناك..». إحدى عشرة سنةٍ مصباحُهُ قلبه، وسَـكِـيْـنَـتُـهُ السوْرُ، حتى انهار بها حفّـرتِ المياهُ في أساسه فانهار «باران». وكان لا يستثيره في ما تبقّى من حياته، في ما بعد، سوى المصابيح: «إنكم تعمونني عن رؤيته» ويشير إلى شيء غامض متّسع كحدقتي عينيه.

«لا يريدان المصباح؟ تفو» يقول كرزو، وهو ينظر في غضب صبيانّي الى الباب الذي أوصده بيكاس الثاني. أما بيكاس الثاني فيشير، على الشبح الذي يرافقه: «تفضل»، كأنما يرى البساط البنيَّ الذي اهترأت حوافه قليلاً. ويجلس هو، بدوره، مستنداً بظهره إلى الحائط البارد: «الأمر هكذا، إذاً»، يتمتم من غير أن ينـظر إلى الجـالس أمامه، فيومىء الشبح برأسه: «نعم. هكذا هو الأمـر». فيسـترسل بيكاس الثاني: «كيف حصل كل هذا دون معرفتي؟»، ويجيبه الجالس أمامه: «ليس في مُكنتك ان تقع على كل شيء. فاتتك أمور كثيرة، وسيفوتك غيرها». إذ ذاك يحتدم بيكاس الثاني قليلاً: «أنا وأبي أغدقنا عليكم، جميعاً، نعمةَ أن ترجعوا إلى هذا المكان»، فيردّ الآخر: «كنا سنرجع على أية حال. لا فرق بين هذا المكان وغيره. ونحن لسنا عزلاءَ هذه المرة. انظر»، وأخرج شيئاً ما من تحت عباءته السميكة: «معنا آلاتنا». فدمدم ابن بيكاس: «ومعي ألمي».

«ستستمـرون هكـذا، سلالتكم كلها، وسنكون حاضرين بدءاً من الآن». يقول الشبح في لهجة تهديد لا تُخفى. عندئذ ينهض بيكاس الثاني واقفاً: «لا أحب غرورك. فَـلْـنُـنْـهِ الحوار»، غير أن الشبح لا ينهض، بل ينحني في جلسته متكئاً على مرفقه الشمال وهو يمسِّد بيده اليمنى وجهه الذي لا يُرى: «قد تعرف أشياء كثيرة يا صاحبي، لكنك لا تلمُّ بشيء مما تَـسْتسِـرُّهُ آلتي أو تُسِرُّ إلّي»، فيرد ابن بيكـاس الـواقف: «أرأيت توائمي الاثني عشر داخلين معي؟»، فيتمتم الشبح: «لا» وهو يلتفت في هدوء من حوله، فيخبط بيكاس الثاني على البساط: «أنت محدود كآلتك». إذ ذاك ينهض الشبح بدوره في مواجهـة الشخص الآخر، هاتفاً: «ستتخبّط حين أسرد عليك بعض ما

تفعل آلتي»، فيرد ابن سينم: «ستتخبط أنت، وتنفجر آلتك حين أسرد عليك بعضاً من ألمي».

كرزو يدور من حول شجيرة الزيتون التي لن تكبر، قط، من وحشتها، عازفاً عن الدخول إلى غرفة النساء. وبدا للشجيرة وحدها، التي تراه في ذلك الظلام، أن الصبي استبدت به الحيرة للمرّة الاولى. وكان يتعمد في دورانه غرزَ عقبي قدميه في الثلج على نحو منتظم، ناظراً تارةً الى غرفة ابن أخيه، وأخرى إلى غرفة سينم، ثم يلتفت الى الشجيرة غامزاً: «تعالي نلحق ببيكاس»، فلا تردّ الشجيرة بالطبع، إذ عليها، كحَدَثٍ نباتي جرتْ وقائعُهُ في هذه الساحة مصادفةً، أن تلتزم بإضرابها الخاص عن مخاطبة الانواع الأخرى من حولها، وكرزو منها، وكذلك الزرازير، والثلج، والغيوم. لكنها لا تنسى لمسات الشبح الذي كان يمر بالساحة غارقاً في بياض عباءته، وبياض شعره وعينيه، وهو يحمل دفتراً أزرق حال لون غلافه. وهي ترتعش رعشات خفيفة، الآن، إذ تشمّ في رائحة الصبي شيئاً من رائحة الشبح ذاك، فتكاد تلمّ اوراقها على عذوبة تخفق كجناح خفيف، ثم تحجم بحكم ان ذلك لا يليق بها، راهناً.

كانت الآلة الغريبة ترتفع بين يدي الشبح إلى المستوى اللائق ببصري رجلين يحدّق أحدهما في الآخر، ومن ثم تهبط بها اليدان ذاتهما حتى تستقرّ على الأرض. وإذ تمرّ برهة صامتة بعد تلك الحركة يفتح الشبح ما بين القضيبين الخشبيين المتصلين، كل بالآخر من أحد طرفيه، بأسلاك نحاسية، بينما تدلّت من ثقوب، على امتدادهما، شراشيب تنتهي بمجسّات فضّية تعبق منها رائحة أحماض نفّاذة: «هكذا» يتمتم الشبح: «ضع كل إصبع على مَجَسٍّ، وسيعطيك كلُّ شيءٍ، من حولك، حواسَّهُ وهواجسهُ، حتى لكأنك دورَتُه، وفَلَكُه. فإن التفتَّ إلى ذاتك اقتنصتَ ما فاتك في انشغالك بأمرٍ عن آخر. بل لربما بكيت اليوم من ألم أصابك البارحة، أو قبل البارحة». فيرفع ابن بيكاس يده مقاطعاً: «لا أريد أن أبكيَ اليوم ممّا لم أبكِ منه البارحة. وآلتك هذه لا تليق بمقام من يحملون دفتراً أزرق مثلنا». «وماذا في دفتركم؟» يسأل الشبح الغاضب، فيرد ابن سينم: «فيه ما أتعب جَدّي ايها الأبله». ويتغاضى الشبح عن الإهانة الخفيفة في جواب الجالس أمامه، سائلاً على نحو مفاجىء: «ألست أنت مَنْ نصب الفخ لخاتي؟»، فيجفل ابن بيكاس: «أنا؟ ما هذا الهراء؟»، «نعم» يرد الشبح، ويضيف: «لماذا أغويت مجيدو بن عفدي تلك

الليلة؟»، فينهض بيكاس الثاني محتدماً: «أهذه اسئلة أم مزاح سمج؟»، فيرد الشبح في برود: «ستدرك أنك كنت حاضراً في الذي سألتك فيه، حين ترجع إلى هناك»، فيسأله ابن بيكاس: «الى أين؟» «إلى ما فاتك ايها الأبله» يتمتم الشبح.

الوقت يسرق جسد ابن بيكاس كما سرق، من قبل، جسد أبيه: ذؤابات بيضاء تزداد استطالة في ذلك الظلام، وعضل يتهدّل من تحت الثوب النسائي الذي يرتديه. الكتفان تتقوّسان، والأصابع تزداد يباساً في مفاصلها. الصوت يكتنز ويتهدّج قليلاً. بل كل شيء في ذلك الجسد، اختصاراً، يأخذ هِبَتَهُ من الوقت، لكن الخوف لا يطأ عتبة أعماقه، إذْ هو واثق، على نحو مُحيِّر، أن ما ينتظره سينتظره، حتى لو تباطأ في الذهاب إليه ألف عام، لذلك يحدِّق في الشبح الذي أمامه، سائلاً في احتدام مكتوم: «وما الذي فاتني؟» فيبتسم الشبح ابتسامة لا يراها سواه، دون أن يجيب. وكأنما ينتظر ابن بيكاس ذلك، فيمدّ يديه في اتجاه الجالس أمامه: «تعال معي إلى هناك»، وإذ يهمس الشبح: «إلى أين؟» ينفخُ بيكاس الثاني الكلامَ نفخاً من مكانه المعتم: «إلى ألمي». وما تكاد تمضي برهة حتى يرشح الشبح عرقاً أخضر، قطرةً قطرةً، كأنما يعتصر دغلُ «نصيبين» نَفْسَهُ من مسامّه.

ينتصف الليل، أو ينحدر قليلاً إلى جهة الفجر. غرفة النساء لم يبارحها ضوءُها، والأكيد أن قصص الآباء هي التي تُبقي الملهاة اليقظانة في كمالها. كرزو الملتصق بالباب، من الخارج، يرتجف ارتجافاً خشناً من برده، لكنه لا يبارح المكان. الشجيرة، التي لن تكبر قط من وحشتها، غافية في حاضرها النباتيِّ. ثلج الساحة مستسلم للسماء الرمادية المعتمة، المستسلمة، بدورها، لزقاقات الحي الغربي، وللعراء الممتد مما بعد بوابة بيت الملا بيناف حتى الثكنة الفرنسية في الشمال الشرقي. أما دغل نصيبين فيشهد حشداً غريباً من البغال، والأشباح، والآلات الخشبية الضخمة الشبيهة بالنوارج، غير أن لها سلالم عالية في منتصفها، كأنما سيستطلع منها الكشّافة تلك المدينة الضائعة في الجهات. والواضح، يقيناً، أن ذلك الحشد يهيء لأمر غريب، فالإشارات، والإيماءات تتحول، في برهتها، الى نفير يقرِّب الأرتالَ أو يباعد ما بينها، فيما يشتعل البخار الصاعد من الأفواه والأنوف اشتعالاً تحت اللألأة البنفسجية الخافتة للهياكل الحيوانية والبشرية معاً. ومن ثم تتصل موجات جديدة من تلك الكائنات الخارجة في ظلام الشجر، حتى يمتلىء المكان بين

دغل نصيبين ودغل الهلالية، على شكل قوس مديد، متحد، صلب، ينذر بحماقة غيبية آسِـــرةٍ ككل الحماقات.

يتكىء بيكاس الثاني بظهره إلى الجدار، بينما يزحف الشبح زحفاً، في الغرفة، من جدار الى آخر، مُتْـهَدمَ الهيكل، لا يكاد يسمع من تعبه كلمات ابن بيكـاس: «أرأيت؟ أرأيت كبـدهُ المتـآكل؟ أرأيت عينيه السائلتين على خديه؟ أرأيت الشرخ الكبير في ثديها؟ أرأيت الجمجمة الرخوة كفُطر «قولو»؟ أرأيت كيف خيّطوا الفخـذين، أحدهما الى الثاني، بالمسلة الحديدية وخيط القُنّب؟ أرأيت أحشاءها، هناك، مندلقةً تماماً تحت الميزاب؟ ارأيت ما يكسُر الإبنُ في أعماق أبيه، وما يكسُر الأبُ في أعماق ابنه؟ ارأيت امه؟ ها؟ ستعتصر قلبَ ابنها لأنه شبيه بقلب أبيه. أرأيت الهضبةِ أيها الحمار؟ الهضبة.. الهضبة؟ قلبي هناك، بين الجرار المدفونة، وغدي مغبرٌ مما تثيره أقدام الماعز على سفح طوروس الشرقيّ. أنا، بيكاس الثاني، ابن سينم، فخُّ أمي البلهاء، أنا ابنُ أخي هذا..»، ونهض على عجل، فاتحاً الباب بدَفْعٍ كاد يخلع مصراعيه: «هذا..» مشيراً الى كرزو الممتزج بالثلج وبالظلام، مضيفاً: «هذا، هذا هو الذي يخبىء عنّي بقيّةَ الليل».

كان ابنِ بيكاس يسرد الكلامَ على الشبح دون تراتُبٍ، أو تحديدٍ في قصـده، ملقياً الضـمائر والحروف القاءً مختلطاً حتى خروجه من الغرفة على النحو المهتاج ذاك. ولـمّـا صار إلى الساحة، وقال ما قاله في إشارته الى كرزو، توقف لاهثاً، ومن ثم خطا بضع خطوات في اتجاه الصبي ليتوقّف ثانيةً كمن استدرك أمراً فاته، وبغتة عاد على أعقابه، في عَجَل، مثلما خرج، وإذ صار داخل غرفة الشبح أوصد الباب من خلفه بركلة قوية، صارخاً: «انهض، كلهم هنا» وأشار بيده الى الجدار الجنوبي للغرفة، ولما التفت الشبح إلى ورائه لم يجد الجدار: كان عمقٌ مّا، مضاءٌ بضوءٍ خافت، قد جرف مسافة الغرفة، حتى باتت أشبه بسرداب طويلٍ جداً، تتقابل على جهتيه أبواب كثيرة، بينما يكاد الشبح وابن بيكاس أن يضيّعهما البصر، إذا نُظِرَ إليهما من الجهة الجنوبية الأقصى، وهما هناك، لصق الجدار الشمالي الباهت، غير المضاء.

الحشـد يتقدّم. دغل نصيبين يتقدم بأكمله، وكذلك دغل الهلالية. الحماقةُ تهيـىءُ منجنيقاتها. ليل صلب وصخب صلب يروّعان الثلج المعرّش بشهـواته على الأشكال كلها، وما من سؤال ترفعه المدينة. حشمو وجهور، وحـدهمـا، في الـزقاق المسدود البعيد عن الحشد المتقدم، يصعدان، معاً،

سلالمهـا على نحوٍ متوجّس، وثمت ضربات عنيفة على شيء معدني داخل خيمة عفدي ساري، حتى أن الدجاجات الراقدة في مكان ما من الساحة تفتح عيونها، ثم ترجع فتغمضها إذ تهدأ الضربات. كرزو يلتصق بجدار الغرفة المضاءة حيث تسهر النساء، محدّقاً بعينيه الذابلتين من البرد في الباب الذي يخفي خلفه بيكاس الثاني والشبح. شجيرة الزيتون تتقرّى أعماق جذعها بحثاً عمّا يهدّىء النسغ البطيء. السماء تتقلّب كنائم قلقٍ، والثبات للثلج وحده.

الحشد يتقدم.

«أنـظر» يقول بيكاس الثاني، فينظر الشبح إلى حيث يشير. ويهمس مردفاً: «إنه يخرج الآن»، فيومىء الشبح برأسه: «إنني اراه». وهما، بالطبع، يريان، في أول بابين متقابلين في السرداب، من يخرج عارياً من أحدهما داخلاً الى الآخر، على عجل. إذ ذاك يتقدمان ليتفحّصا ما رأياه، محاولين فتح الباب الـذي دخـل منه الشخص العاري فيجدانه مقفلاً. يتطلعان، أحدهما الى الثـاني، ثم يكملان مشيهما في اتجاه الابواب المتقابلة الأخرى في السرداب المضاء بسراج لا يستطيعان تمييزه في ركنه البعيد. لكنهما يتوقفان بعد قليل، قبـل أن يجتازا بابين آخرين متقابلين، إذ يخرج رجل وامرأة في هيئة غريبة، نصف عاريين، وهما يدحرجان صخرة من باب الى باب، ثم يوصدانه خلفهما برتاج يحس بيكاس الثاني والشبح بصليله في عظامهما.

كان على ابن بيكـاس والشبـح أن يتـأمّـلا، طويلاً، تلك الأبـواب المتقـابلة، دون أن يسـأل أحدهما الآخر عـمّـا يجري. وهما، بالطبع، لن يسألا، ففي الذي يدّعيان من المعرفة ما يجعلهما يترفّعان عن ذلك، نكايةً أو تعالياً، برغم الغرابة التي يتفتّح عنها السرداب: خرج العاري الذي رأياه أولاً، ثم خرج الرجل والمرأة، ثم حشد من البغال من الباب الثالث، داخلاً إلى ما يقابله (كيف اتسع المكان لها؟)، ثم خرجت فزّاعات راكضة من الباب الرابع، ومن الخامس خرجت جنازة مهيبة لتختفي في الباب الذي يقابله، ومن ثم خرجت عربتا «حنطور» تجرهما الخيول من الباب السادس، داخلتين الى الباب المقابل، ومن السابع تسابق رجال ببنادق فرنسية الى الباب المقابل، ومن الباب الثامن خرجت ثلة من الدرك ما كادت تصل الى الباب المقابل حتى عادت أدراجها، بضع خطوات، ناظرة في اتجاه الرجلين، وقد توقف الشبح وابن بيكاس في قبالتهم، لا يبديان حركة ولا هُـمْ يبدونها: العيون تتقرّى

الأشكال هنا او هناك، ومن ثم تكمل ثلة الدرك مرورها الى الباب الذي يقابل الباب الثامن، من دون أن يرفع أيٌّ عن الآخر عينيه.

الحشد الغريب يتقدم بنوارجه الضخمة وبغاله المضيئة، صاعداً، على شكل طوق، هضبة الهلالية من الغرب، والهضبة الوطيئة التي تعلوها الثكنة الفرنسية من جهة الشرق. المدينة نائمة. السماء نائمة. الثلج منصرف الى أحواله. كرزو يصفق بيديه قرب نافذة غرفة سينم المضاءة ليجدّد دورة الدم فيهما. سينم تهمس، لأول مرة: «برينا. برينا» فتلتفت المرأة المصغية إلى امها وأم البلهاء: «هيه سينم؟». «ابني» تهمس البلهاء في صرامة واضحة، مردفة: «أين ابني؟»، فتدهش برينا قليلا: «إبنك»، ثم تتلفت من حولها مستنجدة: «لا أدري». وتقوم إلى الباب فتفتحه فترى كرزو الذابل تحت ضوء الشباك الشحيح: «كرزو» تقول الإسم في إشفاق: «ترفّق بنفسك يا صبي. ما الذي تفعله؟» فلا يرد الصبي الذاهل بعينيه الغائرتين. «كرزو» تكرر برينا نداءها، وتضيف: «أين ابن سينم؟». وكأنما أفاق كرزو على صفعة. غار رأسه بين كتفيه، بينما دار وجهه الخالي الاّ من الذهول صوب المرأة، وما لبث أن ركض إلى البوابة صارخاً: «كلهم هنا»، مغادراً ساحة البيت كاللّمح.

دُهشت برينا لبرهة من حركة الصبي، ثم ما لبثت أن ردت الباب تحت إحساسها بهبوب ريح خفيفة باردة، ناظرة إلى النساء الثلاث في الغرفة، تتوسلهن جواباً دون أن تنبس بكلمة. لكن من سيرد؟ سينم على حالها، يغطي اللحاف جذعها كله، ووجهها مبتسم لِما لن يراه أحد. المرأتان الأخريان مستغرقتان في سردِ سيرة ابويهما. تصغي إحداهن بالطريقة ذاتها التي تتكلم بها، كأنما لا تتكلمان، ولا تصغيان، برغم الحديث وسجاله. وهما، قطعاً، سادرتان عن دهش برينا وسؤالها غير المنطوق. وهي، نفسها، تكاد تغمض عينيها عن كل شيء؛ تكاد تخرج، مثل كرزو، راكضة الى الفراغ الأبيض المديد، لكنها تواسي نفسها بشبح الملاّ بيناف داخلاً، على حين غرّة، من الباب، هذه الساعة أو تلك، هامساً في وقاره المعتاد: «جئت ببيكاس معي». وتحاول برينا أن تتلمس ملامح بيكاس في أعماقها فلا تتمكن إلاّ من وجه غارق في شحوب المصباح. وإذ تجاهد أن تقع على ملامح زوجها، على نحو فجائي، تنتفض: ملامح زوجها تستعصي عليها أيضاً، فترفع يدها إلى جبينها المتماوج بفعل اللهب المتماوج، بغتةً، في المصباح: «أووه»، ثم ترخي تلك اليد، محدّقة في فراغ الحائط: «لحيتك خشنة»، وتبتسم لنفسها على كلام

لن يسمعه غيرها، متذكّرة ليلة زفافها إلى الرجل الوقور.

بيكـاس الثـاني يقـول للشبـح أن يرجعا عن المضيّ في اتجاه الأبواب الأخـرى، فلا يصغي. وفي كل خطوة يخطوانها ترتفـع همهـمات من خلف الأبواب الموصدة، كأنما يهمّ أناس بمغادرة الغُرف لكنهم لا يخرجون. ويعاود ابن بيكـاس طرح سؤالـه المختنق على الـذي معـه: «إلى أين تعتقـد أنك ذاهب؟»، فيرد الشبح، بعد برهة: «لست ذاهباً إلى مكان. إنهم هم الذين يأتون»، ويحدّق في عيني صاحبه مستفسراً: «أكانت هذه الغرف موجودة قبل لحظات قليلة؟»، وإذ يرد ابن بيكـاس سلباً، يضيف الشبح: «إنها ليست موجـودة الآن أيضـاً. المسـألة مزاح، فلا تتصنّع هذه الحيرة»، غير أن ابن بيكـاس يشده من رُدْنِ عباءته مستوقفاً: «انظر» فينظر الشبح، متوقفاً، إلى البـاب التاسع الذي تفتّح عن شخصين على هيئة الشبح وبيكاس الثاني، ذاتيهما. «إنهما. . .» تمتما معاً، وأمسك أحدهما بَعَضُدِ الآخر.

الحشـد يتقـدم بنوارجه الضخمة، وبيوت المدينة لا ينظر بعضها إلى بعضٍ، أو إلى الأفق المتّشح بالبياضِ الغامض، المحتشد، الذي تطوي فيه الموجةُ الرمادية، المعتمةُ، ما قبلَها، لتُطوى بالموجةِ التي تلي. فالبيوت لا تملك عيوناً، كما تعلمون، والشبابيك، التي يجري الفَرَض على أنها نظرات الجدران إلى ما لا يحتاج إلى نظرٍ، مغلقةٌ، باهتةٌ، وكسلى. وكذلك الزقاقات في الحي الغربي، بل في أيّ حيٍّ آخر، فهي لا تستطيع أن ترتفع إلى ما فوق مستوى الأسطحة لترى ما يجري. الزقاقات زقاقات. الزقاقات محكومة بألّا ترتفع قط، فهي متمـدّدة بأطـوالها، تعبث عبثاً غير محتشم بالجدران الأنثوية، وبالهواء والثلجِ الأنثـويين. أيْ، في بساطة لا بساطة بعدها، ما من أحد سيصرخ منذراً. ولماذا الإنذار، بحقٍّ؟ حشد مّا يتقدم في إصرار ملول يستأهل نظرة واحدة من عين نصف مغمضة، ليعود الناظر، بعد ذلك، إلى نومه، لا أكثر. غير أن المستحـكَـمَـتـيْـن بتاريخ مطرّزٍ كاللقالق على المخدّات ـ أم برينا وأم سينم ـ تفتحان عيونهما علَى حشد لا يتقدم، بل يقف هناك، في مرمى أعماقهما المنبسطة كصحفة الطعام: «أبي. .» تقول إحداهن، فلا تنتظر الأخرى حتى تقول، هي أيضاً، على عجل: «وأبي. .». «اسمعي» تقول الواحدة، فترد الثانية: «اسمعي. .». «إنه»، «إنه. .». كلام يتقاطع في كثير من مفاصله. كلام يتداخل بصوتين ممتزجين عجولين. يد هذه ترتفع لتنخفض يد تلك، لكن الشفاه الأربع تتحرك الحركة ذاتها، في الآن ذاته: «لو كان أبي حيّاً لحرق

سيارة البيك آب» تقول أم سينم، فتتمتم أم برينا: «نعم. نعم. لو كان أبي في محل أبيك لفعل ذلك ايضاً. أبي. .»، فتكمل أم سينم دون إنذار: «أولاد أخي حرضوه على شراء البيك آب. قلنا: ما لكَ وما للبيك آب؟ ليس لديك ما تنقله يا كَلَشْ بهذا الحيوان»، وترفع يدها عالياً: «والله أحسسنا أن السيارة الكلبة تدبّر له شيئاً». وترد أم برينا من غير مبرر: «كل السيارات أولاد حرام. نحن، أيضاً، أحسسنا أنها تدبر شيئاً». وترفع أم سينم حاجبيها: «أنتم أيضاً؟ أرأيتم السيارة؟». «لا» ترد المرأة الأخرى، مردفة: «لكن السيارة سيارة. نحن نعرف ذلك»، فتبادرها أم سينم: «لا بد أنكم رأيتموها. ها؟ والله، حين كانوا يديرونها بذلك القضيب الحديدي، من المقدمة، كان قلبي يطير. يطير مثل. . .» وتقاطعها أم برينا: «كان قلبنا يطير ايضاً. .»، وتمعن أم سينم النظر فيها بغتة: «لماذا يطير قلبكم؟». «يطير» ترد الأخرى، رافعة منكبيها على نحو متسائل: «يطير. السيارات تطيّر القلب، وكان إحساسنا. .»، فتمعن أم سينم في سؤالها المفعم بالشك: «والله كنتم تعرفون أنتم ايضاً. .»، وتتساءل أم برينا: «نعرف ماذا؟»، فتقول الاخرى: «تعرفون ما تدبّره السيارة. لم تقولوا شيئاً. سَكَتُّم»، «لا، والله يا عيشانه» ترد أم برينا، مضيفة: «مالنا وما للسيارة. نحن لم نرها، ولم نسمع أن أخاك اشتراها. والله. . .»، فتوقفها عيشانة بنت أوسي بدرخان، أم سينم، متمتمة في صرامة: «الكل كان يعرف يا زِيْرِكَهْ، والكل سكت»، وتخفض عينيها في استسلام: «مصباحا السيارة كانا مثل عيني الشيطان. افزعتاني. حين رأيتهما، أول مرة، فزعت. كانتا جاحظتين كعيني الشيطان. والشبك الصفيحي، من أمام، كان مثل فم. . مثل فم. .» وتلتفت إلى زيركَهْ: «يشبه فم مَنْ؟»، فترد زيركه، أم برينا: «مثل فم القحبة». فتصمت أم سينم متفكرة في تشبيه جليستها: «القحبة؟ أرأيت السيارة؟»، وترفع أم برينا يديها متبرمة من السؤال: «رأيتُ مؤخرتي».

لقد اشترى كَلَشْ، أخو عيشانة، خال سينم، سيارة «بيك آب» بإلحاح من أولاده، حين قدموا الى مدينة القامشلي، تباهياً. وكانت العادة أن يحوز هذا النوع من الآلات من يملكون حقول قمح أو شعير، ويضطرون إلى مواكبة الحصّادات الآلية بها، ونقل المؤونة الخفيفة من المدينة إلى العاملين في شؤون الحصاد صيفاً. غير أن كلش البسيط لم يخيّب تلك الرغبة اللجوجة في عيون أولاده: «نشتري بيك آب؟ نشتريها، وليكن ما يكون». وتعاقب، من

ثم، أولاده الستة على قيادتها دون سابق معرفة، حتى تمكنوا منها، وسط هتافات يومية في الحقل الذي يجاور بيتهم. إلّا أن اكثرهم افتتاناً بتلك الآلة، بعد ذلك، كان «كلش» ذاته، برغم أنه لم يُبدِ أية حماسة لتعلُّم قيادتها: «تليق بالأولاد»، هكذا يكرر امام من يرى في عينيه انبهاره وهو يتطلع إلى البيك آب. وفي أواخر الشهر الرابع من شرائها اختفت السيارة، وكلش، وابنه الأحمق «سَرْبَسْتْ»، الملقب بـ «الهَضْبْ» (أي: حجر النشادر).

«اشترينا عدة صفائح من البنزين» يقول «سَرْبَسْتْ» بعد ظهوره، ويكمل: «وضع أبي لحافاً في السيارة يتغطى به حين ينام، وكيساً من «الباقسمات» (خبز محمّر يابس)، إضافة إلى صفيحة الحلاوة. كنا نأكل بين قرية وأخرى. ولم أنم ستة أيام». والحكاية، برمتها، أن كلش تموّن بما قدر عليه، وحرّض ابنه على جولة طويلة بالسيارة بين القرى، حبّاً، وولهاً بما تثيره من غبار كثير «يخفي عشرة رجال»، كما يقول. وكان يقف في مؤخرة البيك آب المكشوفة، ذاهلاً يتطاير جلبابه، ملوّحاً للعراء من حوله، وقد كساه الغبار حتى انقلب الى فكاهة ذات حدقتين حمراوين. وهكذا انقضت الحال بين عراء وآخر، وهضبة وأخرى، وتخوم وتخوم، وصعود ونزول، وواد وسهل، وتراب وحصى، الى أن كان اليوم السادس الذي بقي الأب فيه متمدّداً على اللحاف الذي افترش بعضه وتغطى ببضعه الآخر، ولما جاهد «حجر النشادر» أن يوقظه، كان قد استسلم إلى فراغ الحماقة الحلوة، مختنقاً بما استنشق من الغبار.

«يوماً بعد يوم كان صوته يختفي» يقول ابنه الأحمق. «بات يسعل ولا يأكل. بات يخبط على صدره إذا توقفت، مشيراً أن أمضي». ويحاول التخفيف من شراكته في ما جرى، مولولاً: «لم تبق حفرة لم أصدمها، ليتعب أبي من الرّضّ، أو لتتعطّل السيارة»، ثم ينظر من حوله مستنجداً بأية نظرة توافقه على ما يقول، فيرى الجميع منصرفاً عنه بسمعه، وقد خيّم ما يشبه عدم الاكتراث بالأمر كله. والحق، بحسب تقدير من حضروا جنازة الرجل، أو عرفوه، أنّ ما من أحد أبدى اكتراثاً كبيراً لموته، لكن اخته عيشانة، أم سينم، تضرب على صدرها أمام أم برينا، في الغرفة التي تتمدّد فيها البلهاء: «كانت الدموع كافية لغسل مائة ميت، أما مِزَق الثياب، من كثرة ما شققتها الأيدي، فقد استغرق جمعها مِنّا يومين، وصنعنا منها، من ثمّ، بساطاً بطول أربع عشرة ذراعاً، وهبناه إلى «ميروكي» العمياء».

ابن بيكاسٍ والشبح يحدّقان في شبيهيهما الخارجيْن من الباب التاسع، لكن طرقات عنيفةً على باب ما، بعيد قليلاً، تعيدهما الى يقظة كادا يجاوزانها، ولـمّـا التفتـا كانت المسـافـة الـطويلة للسرداب تتقـاصر على عجل، كأنها استيقـظت هي ذاتهـا، بعـدمـا امتـدت، فجاءَةً، وتوالدت الغرف بأبوابها المتقـابلة. وبعد برهة باتت الغرفة التي كانا فيها على سابق أبعادها، بأمتار قليلة، دون مصباح، وصوت كرزو يرتفع مع الطرقات: «كلهم هنا»، وإذ فتح بيكاس الثاني الباب، مُـطِـلاً بهيكله الغارق في سنوات عصفَ بها، بغتةً، على ظلام الساحة، كان كرزو يركض في اتجاه البوابة، كأنّما بلَّغ ما توجَّب أن يبلّغه، وأعفى نفسه من أية مساءلة. وبالطبع، لم يقع ابن بيكاس على أحد حين جال بعينيه على الفراغ المادي، فأوصد الباب من خلفه، ملتفتاً في ظلام الغرفة إلى شريكه: «هذا الصبي غارق حتى غُرّته في همومنا». اما كرزو فلم يكن غارقاً في شيء مما اعتقده ابن أخيه، بل يقوم بما أُوكِلَ إليه، أو أوْكَلَهُ إلى نفسه، لا فرق: «هذه الزرازير. هذه الزرازير. . » يتمتم في الظلام الذي يلي البوابة، حيث يقف شخص واحد، مُـنْحنٍ قليلاً، على مبعدة منه، ثم يفتح ذراعيه على وسعهـا دون أن يتقـدم خطوةً: «هذه الزرازير. هذه الزرازير» مكرّراً الجملة على نحو هاذٍ، قبل أن يرتخي جسده فيهبط، بطيئاً، على الثلج. لكن الشخص الواقفَ يتقدم صوبه، ويرفعه قليلاً وقد سنده بصدره، كمن يوقظ طفلاً نائمًا، في حنو بالغٍ مبلَغَهُ.

الحشد يتقدم. صخبٌ هامس يرمي شبكته بين الهضبتين الواطئتين، من الهلالية غرباً، إلى الثكنة الفرنسية شرقاً؛ وصخب أقل همساً يعبر ساحة بيت الملاّ بيناف، إثر خروج بيكاس الثاني والشبح من الغرفة المظلمة، وهما يتجادلان: «لا خبرة لك بهذا» يقول الشبح محتدماً، فيرد صاحبه: «وخبرتك كوجهـك الذي تخفيه تحت العباءة»، ويردف: «كرزو يعرف أكثر، وكذلك سينم، وهذه الـ . . . » مشيراً إلى شجيرة الزيتون التي لن تكبر قط: «هذه. نعم. ما من أحد في حاجة الى خبرة. إنسَ، إنسَ تكنْ سيداً»، وتنزلق قدمه قليلاً فيتكىء على الشبح، مغمغمًا في تعب: «كلهم هنا. ما من مكان لأحد بعـد الآن»، ولـمّـا يعـبران البوابة في اتجاه لا يحددانه، برغم اتجاه الخطى شمالاً، في الـظاهر الذي يتبدّى لعين لا ترى إلاّ عن كثب، يريان «كرزو» والذي معه، مقبلَيْن يسند أحدهما الآخر، فيتجاهلانهما، وإذ يهمس الشبح

إلى ابن بيكاس: «ألَيس هذا . . » يقاطعه ابن بيكاس هَمْساً بدوره: «نعم. إنه أبي. جاء يأخذهما».

«يأخـذهـا. إنـه يأخذهما» تتمتم برينا في أعماقها، وهي تكاد تحس باليدين الخشنتين للملاّ، تتقرّيان ثدييها، فتجفل في مجلسها، داخل غرفة سينم، وقد سهت عن النساء الثلاث، باحثة بأعماقها عن يد البعل الذي أسلمته فجر الأنوثة كله، وقد خامرها، آنذاك، أنها تهبُ ما تَهَبُ، في حياءٍ فضَّاح، إلى ذكر سيأخذها نهباً، فَفَجَأَها بحياءٍ فضّاح تحت خشونة لحيته، ويديه، وصوته الذي جاهد، كوقورٍ، فخنقه حتى لا يعلو لهاثه. ولما أفاقت، في الصباح الأول لزواجها أخذتها عينا الرجل المحدقتان في وجهها، فلم تر من وجهه الاّ هما بعد ذلك: كانتا مكحّلتين ومغرورقتين كأنهما يهم بالبكاء، وقد عرفت، من ثمَّ، أنهما هكذا أبداً، مغرورقتان، إنما يذهب الكحل وحده، ويأتي، كلّما عنّ للملاّ أن غبشاً ما يصيبهما. وما كانت برينا لتهتمّ بغبشهما أو بسواه، بل بذلك الظل الذي يضفيه الكحل على عيني بعلها فيجعلها، هي، أكثر جسارة في دفعه إلى ما يريده منها، آن يحجُب إفصاحَ جسدِهِ، ولهاثه. ولذا أسّرت اليه، ذات مرّة، على نحو يشي بدعابة لم يُخفَ ما وراءها عن الرجل الوقور: «ضع كحلاً على عينيك كلّما واقَعْتني»، وإذ بادرها الملاّ سائلاً: «أنت لا ترين عيني في الظلام، فلماذا الكحل؟»، قالت متدلّهة: «إنها هنا» وأشارت الى عينيها هي. فكان الرجل يكتحل على مرأى منها، مساءً، كلّما ارادها، فتتهيأ هي له دون تصريح. وللمــلاّ، ككــل رجـال الشـمال، مرآةُ جيب مستديرة، صغيرة، ذات غطاءٍ من النحاس مرقّش، يطبُقهُ عليها فتغدو علبةً بهية توضع في جيب السترة الفضفاضة التي يرتديها؛ وله مِكحلة، أيضاً، من عظم الهدهد، وكيس أزرق صغير يُحفظ فيه الكحل، فيلفّهُ إذا فرغ منه، ويعقـد عليه خيطاً مجدولاً من حرير نقيّ. أمـا ملقط الشّعرالذي يزوِّق به شاربيه فكان من نحاس علا زاويته صدأ أخضر. ولطالما بادلته برينا ملقطاً بملقط حين يتململ من أن الـذي معـه يخطىء الشعرة المقصودة ويصيب غيرها، لكنه لم يتخلّ عن ذلك الملقط: يُخرجه من جيبه، ويتذمّر قليلاً، ثم يعيده الى حيث كان. ولربما ساعدته برينا، على كل حال، في التقاط بعض الشعر مما يعلو وجنته اليسرى، لأن يده اليمنى تعكس ظلها على تلك الوجنة، أبداً، مهما استدار الرجل في اتجاهات الضوء، فيُخْفى على الملقط ما يجب أن يَلْتَقِط: «اقتلعتِ سلالة روحي» يقول مداعباً زوجه، وقد تصنّع الألم، فتطلق

هي آهة مواساةٍ، معتذرةً بإشارة من عينيها وفمها المزموم: «فلتتقصّف يديْ التي آذتك»، فيعابثها اذ ذاك، مادّاً يده إلى ثديها الذي يتدلى كنيزك صغير من قبّة الجسد المنحني عليه، فتجفل: «يا لَكَ.. يا لكَ..» وترفع قامتها معاتبةً في دلال: «إستح».

«سَرْبَسْتَ الكلب»، قالت أم سينم، فأفاقت برينا من سَرَحانها على اسم الابن الذي أسلم أباه إلى حماقته الحلوة، وكادت أن تشارك المرأتين، في ضجر واضح، بعضاً مما يتداولن فيه، لكنها آثرت أن تسمع فحسب، ناظرة الى البلهاء التي لا تصغي إلاّ إلى فراغها، في استنادها الى الوسادة والجدار معاً، وكانت تكرر، في أعماقها، اسم «سَرْبَسْتْ» على نحو يزيد وطأة الضجر كلّما همست المرأتان بالاسم ذاك. وقد همّت أن تطالبهما بالكفّ عن ذكر الكلمة، وأن يستبدلاها بـ «حجر النشادر»، فألهاها ما تعمدان إليه من وصفه بالوسامة، برغم كل ما ألصقت به أم سينم من صفات الحماقة: «عيناه.. آه» تقول إحداهن، فتردِّد الأخرى: «عيناه.. آه». «أصابع يديه.. آه» تقول إحداهن، فتردِّد الأخرى: «نعم. أصابع يديه.. آه». أما ما نسيتا أن تسرداه، في جلستهما تلك، فهو أن «حجر النشادر» قاد السيارة على نحو جنوني، في أثناء صعود المشيعين بجثمان أبيه الهضبة التي تفضي الى مقبرة «الهلالية، حتى أنهم تفرَّقوا هَلعينْ، وقد ألقوا بالميت أرضاً عن أكتافهم. ولم يتوقف الأحمق، من ثم، إلاّ قرب «عين الكبريت» في بلدة «الدِّرْباسيَّة»، حيث المياه الفستقية الغريبة برائحتها التي لا تعلوها رائحة قط، وبعوضها الشرس المحموم. وصعد بالبيك آب، في اليوم التالي شمالاً، داخلاً بها الأرض التركية، وقد تسلَّمه مخفر الحدود، في مدينة قامشلو، من الخفر الأتراك بعد تسعة أيام، فانهال السوريون عليه شتماً وركلاً يومين، ثم أعادوه الى ذويه، أما الـ «بيك آب» فصارت ملك الجانب الآخر من السياج الأناضولي، وهي مُلكيّةٌ يُتعارف عليها تحت كلمة «مصادرة». لكن أحداً لم يهتم بالأمر كلّه، إلاّ عيشانة، أم سينم، ليس في ما مضى، بل في تلك الليلة التي تواطأت فيها، هي وأم برينا، على سيرة ابويهما المستسلمة للتنقيح، والإضافة، والتحوير الممكن بقدْر ما تسمح مخيّلة إحداهن.

.. والحشد يتقدم. لألأةُ تتسلق الهضبتين، من «الهلالية» غرباً، الى الثكنة الفرنسية شرقاً، من أثر البغال المضيئة الصاعدة. الهواء يكتم أنفاسه، والبيوت تتستَّر بالبيوت. قبور طائرة في الظلام الرمادي، والثلج يطلق صقوره

العمياء تتصيّدُ حماماتِه العمياء. إشاراتٌ كأذيال الثعالب تُجرجر فراءَها الناعم من زقاق الي آخر، وحقولٌ، مقنّعةٌ، وسط الأحراش الصغيرة المبثوثة هنا وهناك، تغزلُ أقدارها للمواسم القادمة. أما كرزو فيرتطم بعتبةِ بوّابة السور أولاً، ثم يُجاوزُها فتنزلق قدمه على الثلج؛ ثم يستوي إثر إمالتِه فيزفر زفيراً متقطّعاً، ويركض صوب الغرفة التي ولدت فيها سينم ابنها: «برينا» يصرخ حتى قبل أن يدير مقبض الباب. «برينا.. إنه يريدكما، أنتِ وسينم». فتلتفت برينا مجفلةً: «مَنْ؟»، فلا يردّ الصّبيّ الواقف في الباب، بل يتمعّن فيها، وسط ذلك الضوء الشحيح، كمن يُدركُ أنها تعرفُ قصدهُ تماماً.

شجيرة الزيتون، التي لن تكبر قط من وحشتها، تعرف، أيضاً، قصد الصّبي الذي رأته مهرولاً في الظلام. وكانت تعوّدت، من كل صبيٍّ راكض في تلك الساحة، على كل حالٍ، خبراً خفيفاً كخِفّةِ العُمْر، أو ثقيلاً سيلقيه حاملُهُ على مسمع الآخرين في خفّةٍ كخِفّةِ العمر. فعلى النحو ذاته من هرولةِ كرزو، الآن، دخل أخوه «زيوان» الساحةَ، قبلَ ما لم تحسبْهُ الشجيرة من أيام، صارخاً أن المرأة الأشورية ألقت بكلبها المدعو «بونجي» في التنور، وأن زوجها، أسفاً على الكلب، ألقى بها في التنور، وأن أولاده القوا به في التنور، ثم ألقوا بأنفسهم فيه تباعاً، فماتوا. والحقيقة لم تكن كذلك بالطبع، ومُخْتَصَرُها أن المرأة انتقمت من أولادها بإحراق الكلب، لأنهم يؤثرونه على أنفسهم فيطعمونه من طعامهم طوال الوقت، ولا يأكلون كما تريد الأم لهم أن يأكلوا. ولـمّا ألقت به في التنور احتدم زوجها لمرأى الحيوان الصغير منتفضاً وسط النار وهو يَثِبُ فلا يبلغ فوّهة التنّور المُسجَّر، فكاد، من سخطه ولوعته، أن يرفع زوجه عن الأرض كأنما سيلقي بها إلى حيث الأنين المختنق للكلب، لكن أولاده حاصروه مهدّئين. وانتهى الأمر على هذا النحو، برغم الشِّجار الذي امتدَّ، داخل العائلة، لأيامٍ، وكانت تتخلّله قرقعاتُ أحذية على الأبواب، وانفجارُ أوانٍ خزفية، ولطمـاتٌ تنتهي بعويلٍ خافت.

وعلى النحو ذاته، أيضاً، تتذكّر شجيرة الزيتون أن «حشمو» دخل الساحة مهرولاً، وهو يصرخ: «مجيدو قتل باقي جواني»، كما دخل من قبل، أو من بعد ـ لا على التعيين ـ أناس كثر، مهرولين بأخبارٍ مهرولةٍ تتراوح بين مقتل إنسان أو شكوى ضد طفل؛ مهرولين بأخبار تُلقى في خِفّةٍ، من ذلك التاريخ إلى الأبد. لذلك لم يكن غريباً على الشجيرة أن يأتي كرزو على هيئته تلك، فهو سيطلق الخبر من قفص لهفته، وسينتظر انفجار الحيرة التي يجبّ أن

يراها على الوجوه. وتكاد تبتسم، ورقةً ورقةً، في الظلام ذي الوبر المُدَغْدِغ، هامسةً إلى نفسها بكلام لا يفهمه سوى النبات. أما كرزو الذي وارَبَ الباب من ورائه، اتقاءَ الوهج البارد المتسلل معه إلى غرفة سينم، فقد بدا غير متلهّف إلى ردّ زوج أبيه، إذ تلهّى بالمصباحين المعلّقين إلى الحائط، يزيدُ شعلتيهما وهجاً بعدما خَبَتا.

ديكٌ مّا، من تحت سقيفةٍ معتمة لا تُرى، يرفع صياحه إلى الفجر المقترب في كسلٍ يستحق التوبيخ؛ بحسب ما تُفكّر شجيرة الزيتون التي لن تكبر قطُّ من وحشتها. ديك مّا، وحيد، في ذلك الظلام المستحمّ بسكينةٍ من الثلج والاقدار، يمرّنُ جسارته في أن يحيا، حتى من دون أن يجاوب صياحهُ ديكٌ آخر، كما هو مألوف في مخاطبات هذا الصنف من الطير، بينما راح الشبح، وابن بيكاس، يتجادلان في توجههما الى الشمال الشرقي، عبر العراء الذي يلي ساحة بيت الملاّ: «انت. .» يقول أحدهما، فيرد الثاني: «أنت. .» فلا يتسقّطُ الثلج من جدالهما غير تلك الكلمة، كأنما يفهم الواحد صاحبَهُ من إشارات لا يراها، وبقية كلام لا حاجة به إليها. غير أنهما يقفان، بين لحظات وأخرى، ضاربين بأعقابهما في الأرض، وهما يشيران إلى الحيّ الغربيّ تارةً، وإلى الجنوب تارةً، أو ينحنيان متمعّنين في آثار خطواتٍ سبقتهما الى الاتجاه الذي يقصدانه. وكان ظلاّهما يرتسمان، على جنبيهما، فوق الثلج، من دون أن يكون ثمّت ضوءٌ لقمرٍ، أو لسراجٍ، أو لمقامٍ نوراني يعبر من هناك مصادفةً. وإذ يمعنان غوصاً بأقدامهما في المخمل الرماديّ البارد، يمعنُ الظلاّنِ غوصاً، بدورهما، كأن لهما ثقلاً على جنبيّ الرجلين يضارعُ الثِّقَلَ الكثيف في هيكليْهما، حتى أن الظِّلَّيْن كانا يشقّان الثلجَ كما محراث، تماماً مثلما كان يشق مفتاحُ «جَكَرْخُويْنْ»، خال الملاّ بيناڤ، أرض غُرفِ بيته، وهو يجرّه من ورائه جَرّاً لضخامته، كلما انتقل من مكان الى آخر. ولم يفارقه ذلك المفتاح حتى مات، وقد أوصى بدفنه إلى جانبه، لكن أحداً لم يذكرْ إن كانت الوصية نُفِّذَتْ أم لا.

مفتاحٌ خشبي ظلَّ يكبر سنة بعد أخرى، حتى غدا، في ثلاثين سنة، أطول من قامة رجل. وظلّ «جَكَرْخُويْنْ» وحده، يبدي دَهَشَهُ من ذلك النموّ: «أووه. العُقْدَةُ من هنا إلى هنا. انظر». ويقيس أسفل المفتاح الخشبي بسبّابته: «انظْر، لقد طال» يقول مخاطباً مَنْ يلتقيه. غير أن المحيطين به، جميعاً، لم يُبْدوا دَهَشاً قط، كأنما كان يجري الذي يجري في خاطر الرجل

وحده. أما ظلاّ الشبح وابن بيكاس فلم يكونا خاطراً من خواطر الثلج، بل لهما عمقٌ، ورائحةٌ، وأثرٌ، يمكن لقيّافٍ أن يتتبّعهُ حتى في الظلام. غير أن النُدَف البيضاء التي زاد تهطالها، بغتةً، ولم تكن، من قبل، إلاّ نَثيثاً هيِّناً لا يؤبه له، ألقَتْ ستارها على كل أثر. وكان كرزو، الذي ينتظر جواب برينا في غرفة سينم، يفتح الباب بين برهةٍ وأخرى، هامساً دون أن يلتفت: «انفجرتْ. انفجرت» في إشارةٍ الى الهطول المتسارع للريش السماويِّ خارجاً، وكأنها يحثُّ برينا أن تستعجل. وبرينا مستعجلة، حقّاً، في تمكين سينم من ارتداء ثياب ليست للبلهاء، ومن لفّها بلحاف سميك يغطيها من الرأس حتى القدمين، وإذ انتهت من زواج ابنها لفّت جسدها أيضاً بغطاء سميك، وألقت نظرةً مبهمةً على أمها وأم سينم معاً، وهي تأخذ بيد ابنة الأخيرة في عبورها صوب الباب.

لم تُعِرِ المرأتان (زوج مهمد وزوج عقْدي) برينا وسينم أية التفاتة. كانتا ماضيتَينِ، على نحوٍ هاذٍ، في سردِ باطنيهما: «أبي» تقول إحداهن، فتردّ الأخرى: «أبي..». ولما أمسى الثلاثة خارجاً ـ كرزو وزوج أبيه وزوج أخيه ـ امتزج الصرير المختنق لحكايات المرأتين بصرير الباب الذي أطبقته يدُ برينا الضجرة من ورائها.

إنها لم تسأل كرزو غير سؤال واحد لم تنتظر جوابه. قال: «إنه يريد كِلَيْنا»، فقالت: «مَنْ؟»، ثم سكتت تماماً لتمضي إلى ثيابها تُهَيِّءُ نفسها وتهيِّءُ البلهاء معاً. وهي تدركُ، بباطنٍ يُدركُ الحيلةَ عادةً، أن كرزو كان على قُرْبٍ خفيٍّ من الحِيَلِ كلِّها، ومن السخرية المُرْبكةِ التي ألقى بها رحُمها كَنَرْدٍ على مسافة الشمال. وقد جالت ببصرها على الساحة، حين أوصدت الباب من ورائها، علّها تقع على ما تلهّفتْ، خِفيةً، أن تراه، فلم تلمح غير كرزو وشجيرة الزيتون التي لن تكبر، قطّ، من وحشتها، فأومأت برأسها الى البلهاء أن تتبعها فتبعَتْها، بينما وثب الصبيّ وثباً إلى بوابة السور، كدليلٍ عليه أن يبدي مهارةً صغيرةً حين لا يكون واثقاً من خطوته التالية.

ومَنْ عسى يكون واثقاً من خطوته التالية؟ السَّلالُم على حالها في الزقاق المغلق. خيمة عقْدي على حالها. ظلال الرؤوس، في هيئتها الكلبيّة، على حالها. الحشد المتقدم صوب المدينة على حاله. المسافةُ بين هضبة الهلالية والثكنة الفرنسية على حالها. قبر خاتي على حاله. الزرازيرُ التي ستهبط من علياءِ السِّلك فوق ساحة بيت الملاّ، والثلجُ، ودغلُ الشربين والسرو، ونهرُ

جَغْجَغْ، والريحُ الرَّخيّةُ، وشجيرةُ الزيتون، والأشباحُ الهائمةُ التي ضيّعتْ إنـاثَهـا، والفضـاءُ، والسّراجـان في غرفـة سينم، والشفاهُ الأربع للمرأتين المنسلّتين، هَمْساً، إلى رائحة أبويهما، والبيوتُ، وما بعد البيوت، وما بعدَ بعد الأفق المُخْتصِرِ في حكايةٍ مُـخْتَـصَـرةٍ، كلُّها، طرّاً، على حالها. أمّا الفجر الذي كان يتنفّس، عميقاً، تحت ثِقل هباته المرئية واللامرئية، فلم يُعِرِ المكانَ غير شحوبه، تاركاً للحيواتِ والأشكال أن تمضي في طيشها. وبالطبع لم تُعِرِ الحيواتُ والأشكـالُ الفجرَ غيرَ صفيرها المُتَهكِّم، وكانت تنشقُّ وتزدوجُ فلاَ يعرف الفجر أيّاً يضيء وأيّاً يحجب عنه ضياءه، لذلك بلغ الشحوبُ مبلَغه في المكان، وعمَّ الهمسُ والخُفُوتُ كأنها لن يوقظَ شيءُ شيئاً.

«منْ هنا» هَمَس كرزو، وهو يتجه شمالَ شرقِ العراء، فطاوعته زوج أبيه الممسكـة بيد سينم. ولما أوغل الثلاثة، قليلاً، في المدى المُغلق على مجون الثلج، تبـدى لهم هيكـلٌ شاحبٌ، منحنٍ كأنّـما يعاين قدميه، وقد التفت صوبهم برأسه، في وقفته، أو خُيّل لهم ذلكٌ، فتوقفوا يتمالكون أنفاسهم. غير ان كرزو كان أوّل المتمتمين: «إنه هو»، فلم تجد برينا ما تعلّق به على كلمتي الصبي، بشفتها المرتخية من أثرِ فكهّا السُّفلي المرتخي، غير همهمة التقطت منها سينم كلمـة «هـو»، فَعَلَتْ هأْهَـأَتُها: «ديك: للديك خصيتان»، وهرولتْ فأفْـلِتَ رُدْنُ ثوبها من يد برينا التي كانت تمسك به وهي تقود البلهاء.

إنهم يتقدمون، الآن، صوب بيكاس الذي ينتظرهم، بخطى أقرب الى الهرولة التي بدأتها سينم، ولـمّـا بلغوه لم يفتح الرجل الغائص في السنين ذراعيه لهم، بل استدار ومضى، فتبعوه دون همس إلى الجهة المعلومةِ بتدبيرٍ غير معلوم.

□

شجيرة الزيتون، التي لن تكبر قطُّ من وحشتها، استسلمت إلى قَدَرِها النَّبـاتي، فلم تعـد تتفكَّر في شيء. أمّا الحشدُ المضيء، الذي كان يتقدم، صاعـداً هضبة الهلالية غرباً، وهضبة الثكنة الفرنسية شرقاً، فقد اكتملت حلقةُ حصاره على المكان، حتى أنَّ البيوت التي تململت، باحثةً عن منفذٍ، عادت فهدأت وهي ترى الزقاقات مسدودة على أتـمِّـها.

نيقوسيا ١٩٨٣ ـ ١٩٨٥

SHOHDY

صدر للمؤلف

* كل داخل سيهتف لأجلي، وكل خارج ايضاً، ط ١ : ١٩٧٣ . ط ٢ : ١٩٨١
* هكذا أبعثر موسيسانا . ط ١ : ١٩٧٥ ـ ط ٢ : ١٩٨١
* كنيسة المحارب (يوميات) . ط ١ : ١٩٧٦
* للغبار، لشمدين، لأدوار الفريسة وأدوار الممالك . ط ١ : ١٩٧٧ . ط ٢ : ١٩٨١
* الجمهرات . ط ١ : ١٩٧٩ . ط ٢ : ١٩٨١
* الجندب الحديدي (سيرة الطفولة) . ط ١ : ١٩٨٠ .
* الكراكي . ط ١ : ١٩٨١ (ضمن المجموعات الخمس) .
* هاته عالياً، هات النَّفير على آخره (سيرة الصِّبا) . ط ١ : ١٩٨٢